

www.kotobarabia.com
رواية
نفق تضيئه
امرأة واحدة
www.kotobarabia.com
أحمد ابراهيم الفقيه

رواية

نفق تضيئه امرأة واحدة

أحمد إبراهيم الفقيه

نفق تضيئه امرأة واحدة

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبين الزمن الذى مضى والزمن الذى لا يأتى، زمن ثالث استعاد الآن مساره من جديد.

تبخرت الرؤيا التى أضاءت القلب بعجيب أسرارها، وانتهت الرحلة التى قادنى فيها الشيخ الصادق أبو الخيرات، عبر صحراء القيظ والعطش، إلى أرض مسحورة، ومدينة حققت معجزة انسجامها وتناغمها مع موسيقى الكون، فنجت من تناقضات المدن الأخرى التى تعانى تلوث الروح وانقسام الذات. وها أنا الآن أخرج من تخوم مملكتى، لأدخل دائرة العادة والروتين. أكابد الحياة داخل مدينة لا تقيم أعياداً للماء والنجوم والقمر والزنابق وزهور أشجار اللوز والمشمش والليمون والبرتقال. وأمشى وسط عالم انطفأت فيه الأنوار التى كانت تشع من الماء والحجارة، واختفت منه الأناشيد التى كانت تعزفها الغابات والحقول والنوافير. عالم لن ألتقى فيه بنرجس القلوب التى تشبه اسمها، ولن أسمع فيه غناء بدور، مضمخاً بشذا البساتين التى في السماء. أو مزامير ياقوت، التى تعزف لغة الأشجار والصخور. عالم استعاد

شكله الكربونى، واستأنف زمانه، دورته الروتينية المكرورة، واختفي منه ذلك العطر الذى على إيقاعه يخفق القلب. سأمشى في الشوارع، تلفنى كثافة الزمن، مجرداً من أردية الحلم، ملتصقاً بالحائط كى لا تدهسنى السيارات. طاوياً القلب على تفاصيل تلك الأيام التى رأيت فيها ما لا عين رأت، وسمعت فيها ما لا أذن سمعت. غير قادر على أن أخبر أحداً بهذا السفر، لأن أحداً لن يصدقنى. حتى لو قلت إنه نوع من الرؤيا والمغامرة الروحية، فسيأخذون كلامى ضدى، ويستخدمونه دليلاً على خطورة مرضى. سأكتم سرى، وسأسعى جاهداً لتحقيق تلك المصالحة المستحيلة بين زمن الحلم الذى تجسد واقعاً، وبين زمن الواقع الذى لا يعترف بالإشراق والتجليات. سأواجه الحياة كما واجه آدم الحياة عندما وجد نفسه ملقى في الخلاء، مطروداً من بساتين ا ، خارجاً من سماء الزمن المطلق، اللانهائى، زمن الجنة والرضا الإلهى، داخلاً زمن الأرض والخطيئة. سأكون أسعد حظاً منه، لأننى سأجد في خزانة الملابس بذلة أغطى بها عرى الجسد، وربطة عنق تعفينى من التفكير. سأدخل عنقى في أنشوطتها، وأدور مع دورة الحياة في سخفها وتفاهتها،

غارقاً مثل بقية الأعناق في روتينها، مسلماً نفسى لعبودية العادة وسطوتها.

كان أول شىء أفتقده وأنا أصحو في اليوم التالى، هو تغريد العنادل في شرفة دارى، والذى كنت أسمعه قبل أن أتحرر من نومى. بقيت ذاهلاً بعض الوقت، قبل أن أدرك أننى نائم في هذه الغرفة التى طالما رأيتها مسقوفة بالأجنحة السوداء. جاءت فاطمة تذكرنى بالوقت. وتقول بأنها تركت لى إفطاراً فوق الطاولة، لأنه حان ميعاد ذهابها إلى العمل. فكرت في تمارين الصبح الروحية، التى كنت أقوم بها في عقد المرجان. وقررت برغم هوس الوقت الذى جاء يلاحقنى، أن أواصل القيام بها. تمددت فوق البساط أحاول أن أصنع في هذه الغرفة، فضاء وسماء، أطير عبرهما بلا أجنحة. أنشد صفاء لا يأتى إلا عندما نطرد من قلوبنا النغمة النشاز. كنت مشغول الخاطر بما سوف يواجهنى من متاعب النهار، فلم أستطع أن أمنح التمرين ما يريده من استغراق. انتهيت من أدائه فكافأنى مع ذلك بشىء من الهدوء الداخلى. اغتسلت نافضاً عن جسمى آخر ما التصق به من بقايا الإعصار الأصفر، وارتديت قميصاً جديداً يخفي آثار

الجروح في صدرى، تناولت إفطارى، وأدخلت رأسى في ربطة العنق، وقررت أن أضع نفسى تحت تصرف الزمن الآتى. ذهبت إلى عملى. واستعدت فيما بعد سيارة »الهوندا« الصغيرة، التى حجبوها عنى خوف أن أقودها أثناء نوباتى العصبية. سلمنى أخى مفاتيحها، قائلاً بأنه تم إصلاح العطب. كنت أعرف أنه يتحدث عن عطب آخر، ولكننى أخذت المفاتيح ولم أقل شيئاً. إنها تأتى لتجعل الأفق أكثر اتساعاً، وتمنحنى حرية أكثر في الانتقال والحركة. ثمة طرق زراعية، متربة، ضيقة، تحف بها أشجار التين الشوكى، تتفرع عن الطريق الذى أسلكه إلى الجامعة. طرق تفضى إلى غابات ومزارع وحقول وقرى تحيط بالمدينة، اندهش الآن من غفلتى، لأننى لم أفكر خلال الأعوام التى مضت أن أحيد بسيارتى عن الطريق الرئيسى وأذهب إليها. صرت الآن أقتطع ساعة من وقتى كل صباح أقضيها متجولاً بين هذه المناطق، محاولاً أن أتعرف على هذه التفاعلات التى يحدثها في الطبيعة مجيء الربيع، وتجليات ذلك كله في الأرض والأشجار والكائنات. أختار طريقاً يشق المزارع التى تتاخم بعضها بعضاً، ويقود إلى منطقة السد، الذى

أشادوه منذ سنوات لحجز مياه واد منحته الذاكرة الشعبية اسماً يدل على الجنون، نتيجة عنفه وشراسته. وما أن وصلت أول مرة إلى هناك حتى اعتبرت ان ما أراه اكتشافاً مدهشاً. إذ فجأة ينفتح الفضاء على مساحات شاسعة من أرض منبسطة خضراء تمتد على مدى البصر. حقول من الشعير في أول مراحل نموها، تحاذيها مناطق للرعى تنوس بأعشابها ونوارها. أضع سيارتى جانباً، وأقف أتنسم هواءها، واملأ بصرى ببهجة اخضرارها، وأرقب هذا التباين بينها وبين الجبال البعيدة الحمراء، بعريها وصخورها. ثم أمشى متجولاً، أبحث بين أعشابها عن الزهور البرية التى تختلف عن زهور الحدائق والدكاكين التى تبيعها، أحببت من بينها رائحة النرجس البرى ذى الزهرة الصفراء، فصرت أجمع كلما ذهبت إلى هناك حزمة منها. وأتأمل الكائنات التى تسكن هذه الحقول وأتآلف مع جندب يقفز فوق الأعشاب أو طائر حسون يحط قريباً منى ويتلفت نحوى كأنه يتحدى قدرتى على الإمساك به. أدخل في لعبته، وأمد نحوه يدى فيسبقها قافزاً إلى الأمام، دون أن يطير بعيداً أو يتيح لى إدراكه. يهزمنى العصفور، فأتجه إلى خروف صغير يركض في

لهفة إلى ضرع أمه، أراه فأستغرب كيف اهتدى إليها وسط هذه القطعان المتشابهة. وبرغم الأوحال ولسعات الحسك وما قد يلصق بالبدن من أشواك التين الوحشى، فقد كنت دائماً أعود وأنا راضٍ عن نفسى، لأننى لم أعد أتنازل بسهولة عن حصتى في الشمس والهواء، والالتقاء ببهاء الطبيعة وهداياها اليومية للسمع والبصر والفؤاد. كنت أرقب باندهاش هذه الروح الجديدة التى أستقبل بها ميلاد النهار سعيداً، لأننى استعدت كامل عافيتى، فلا اكتئاب ولا أوجاع رأس ومعدة مما يصاحب هذا الداء، مدركاً أن هناك شيئاً منحته لى عقد المرجان، شيئاً لم يضع بضياعها ،. ولم تأكله الرياح الصفراء التى أجهزت عليها. استعدت فور عودتى الحصص التى انتزعوها منى أثناء المرض، وحرصت على حضور ما يعقد من حلقات دراسية أو ندوات عامة، والمشاركة فيها بالتعليق والنقاش. وسط دهشة زملائى الذين لا يعرفوننى إلا متفرجاً ساخطاً، أو رجلاً منطوياً على نفسه، هارباً من مثل هذه الحلقات، مريضاً أغلب الوقت بالكآبة وانشطار الذات. شخصاً جديداً يرونه الآن، تحرر من أمراضه وجاء يتفجر رغبة وحماساً للعمل. رأونى أملأ سيارتى بالزهور البرية،

وعرفوا بأمر هذه الرحلات التى أقوم بها إلى المناطق الزراعية، فجعلوها سبباً لتكليفي بجمعية النشاط والرحلات، جمعية يهربون كلهم منها، لأنها تتطلب عملاً متواصلاً لا يتلقى صاحبه أجراً، ولا يحسب له في الترقيات والرتب الجامعية. عقدوا اجتماعاً وانتخبونى رئيساً للجمعية، مهمته أن يتولى منذ الآن إعادة إحيائها. فصار المجىء إلى الجامعة روتيناً يومياً، إن لم يكن بسبب المحاضرات، فبسبب هذه الجمعية. نفور غريزى من العمل، عاش معى عمراً كاملاً، صار الآن يتراجع، ويفسح الطريق لهذه الطاقة الجديدة المتحفزة، المستعدة للكدح طوال ساعات النهار. أكتب محاضر اللجان، وأتولى نسخ الجداول، وأداء المهمات الإدارية التافهة بذات الحماس الذى أؤدى به المهمات العلمية. ولا أجد تفسيراً لهذا كله، سوى أننى ولأمر ما، أريد أن أهرب من هذا الواقع بالانغماس فيه، وأن أتداوى بذات الداء الذى أشكو منه. فلا يمكن أن يكون هذا الانهماك المبالغ فيه، حباً للعمل وإنما كراهية له وخوفاً منه. إنه هروب من الذات ولكن إلى الأمام، ووسيلة وحيدة لمكافحة الزمن الآتى، المحدود، الراكد كمياه السباخ. محاولة للإفلات من إحباطاته،

وتجنب عقد مقارنة مفجعة بينه وبين الزمن الآخر، الأسطورى، الذى مضى ولن يعود. وكنت إذا ما وجدت نفسى مشغولاً باستحضار ذلك الزمن، أو مغموراً بأطياف البشر الذين عاشرتهم فوق أرضه؛ أهرع إلى سيارتى، وأذهب في زيارة قصيرة إلى ضريح الشيخ الصادق أبو الخيرات، حيث أوقد شمعة، وأجلس عند رأسه أقرأ فاتحة الكتاب. ثم أعود إلى زحمة الطرقات، أحتمى بها من سطوة الحلم. كنت أخشى أن يتفكك هذا التواصل الذى يتحقق الآن بينى وبين المحيط الذى حولى. أن يتسرب الخلل إلى التوازن النفسى الذى حافظت عليه أثناء تعاملى معه. أخشى أن يختفي الهدوء وينفجر الضجيج داخل رأسى. فأعود مرة أخرى إلى الانسلاخ عن الواقع وإعلان القطيعة معه، مدفوناً تحت أحاسيس الغربة والإحباط. كنت خائفاً من المرض، ومن ظهور الطيور الكريهة السوداء في سمائى. أريد بقوة أن أضمن حداً أدنى من الانسجام مع البيئة التى بها أحيا، كما تفعل أسماك البحر، وديدان الحقول، وحيوانات الغابة وحشراتها. سأحاول أن أنسى قصة الرحيل إلى مدينة المرجان، فلا أذكر إلا حصيلة التجارب والخبرات التى عدت

بها من هناك، ساعياً لاستخدامها في تعميق علاقتى بمظاهر الطبيعة، وفهم أسرارها. إننى الآن أكثر قدرة على تأمل هذه المظاهر والتحاور معها، والتقاط اللغة الخفية التى تتكلم بها كائناتها. لم أعد أمر بالأشجار دون أن أعيرها انتباها، أو أرى السحب في السماء فأصرف نظرى عنها كأنها لا تعنى لى شيئاً. صارت الآن تثيرنى وتحرك في نفسى فضولاً لاستكناه ما تحمله من دلالات وما تنبض به من أفراح. إن مشهد عنكبوت ينسج بلعابه بيتاً، أو فراشة تحمل فوق جناحيها عبء ألوانها، أو نملة ضئيلة الحجم تحمل قشة أكبر منها، وتجر في جهد نصفها الخلفي لكى لا تتأخر عن الطابور، أو دودة ذات وبر وألوان تلتصق بورقة خضراء تتناول غذاءها. صار يثيرنى، ويدفعنى إلى أن أقف أسائل هذه الكائنات وأستمتع ببهجة مصاحبتها والإنصات إلى حديثها. وبمثل ما اهتديت إلى جمال النمل والديدان والجنادب والعناكب والفراشات، فقد صرت أعتنى بقراءة الأشكال التى تتولد في السماء عند التحام السحب وانفصالها، أو عندما يثير الشفق معارك الضوء والظلام على حافة الأفق. أنشئ علاقة حميمة مع مشاهد الطبيعة في تحولاتها، مدركاً عمق الوشائج

التى تربط بينى وبينها، باعتبارها رفيقة عمر الإنسان، وبيته في الحياة والممات. ملاقياً في صحبتها تعويضاً جميلاً عن الصحف التى لا أقرأها، والمشاكل التى تنشأ بين الطلاب والمدرسين ولا أدخل طرفاً فيها، والصراعات الدائرة على المراكز والكراسى، والأخرى الناشبة بين مختلف الانتماءات السياسية والتى لا أعبأ بها ولا أقترب منها.

وجدت أن التمرين الروحى يشحذ الذهن ويجدد قدرة الحواس على الأداء والتلقى، فحرصت على القيام به كل صباح، دون إخفاق. نظمت وقتى تنظيماً دقيقاً بحيث لا أهمل جانباً على حساب جانب آخر. بما في ذلك الحياة الاجتماعية. إننى لا أعرف أحداً من الناس الذين حولى معرفة حقيقية. عشت محتمياً بأسوارى، منسحباً داخل صدفة الذات، مكتفياً بعزلتى، متنقلاً بين مدينة الذاكرة ومدينة الحلم، مشغولاً بالزمن الذى مضى، باحثاً عن زمن لا يأتى، عازفاً عن الاقتراب اقتراباً حميماً وحنوناً من عوالمهم، أو تحقيق تواصل معهم. إننى أشعر بالأسف لأننى حرمت نفسى من دفء عواطفهم، وبقيت تائهاً عن هذا المصدر الخصب من مصادر الطمأنينة والأمان. لا أدرى إن كنت قادراً على بناء

الجسور التى تهدمت بينى وبين أصحاب وزملاء وذوى قربى، بمعاودة التزاور معهم، والتودد إليهم، والبقاء بصحبتهم قدر ما أستطيع. حاولت أن أفعل ذلك وأنا أعرف أننى أفعله بجهد إرادى، يتناقض مع طبيعتى التى تنفر من طقوس الزيارات البيتية. إنه شىء أقوم به إرضاء لنداء الواجب الاجتماعى، وليس تلبية لنداء داخلى. إننى مهما بذلت من جهد لتأكيد انتمائى لهؤلاء الناس وهذه المدينة، فإن ولائى الحقيقى يبقى لتلك العوالم التى باحت لى بأسرارها عندما تحررت من قيود الزمان والمكان. حتى لو أنكرت هذا الإحساس، وحاولت أن أنشغل عنه بانهماك في ممارسة الحياة، ففي مكان من عقلى، يظل ذلك العالم ينادينى، وأحس إحساساً غامضاً، إننى سأجد ذات يوم من الأيام سبيلاً إلى النفاذ إليه. لقد تقوض ذلك العالم. ضاعت مدينته وانتهى زمانه. ولكنه يظل كامناً في منطقة ما، من ذاكرتى ووجدانى، يبحث عن ولادة جديدة.

وهارباً من نفسى، أرتمى في طواحين العمل والواجبات الاجتماعية. نشاط اكاديمى بالنهار وزيارات عائلية بالليل. أكرر نفسى مع اليوم الذى يكرر نفسه. أحاول

أن أجعل الشخصيات المتناقضة التى تسكننى تتحد في شخص واحد، وتتعامل مع الناس بسلوك يلقى الرضا منهم. كما أحاول أن أجمع الأزمنة المتعددة المتناقضة في زمن واحد، وأن أضبط إيقاع هذا الزمن الداخلى مع الزمن الخارجى. أجمع المحدود باللامحدود. وزمن الحلم بزمن الواقع. وأمضى محافظاً على هذه التوازنات لكى لا يفسد نظام الكون. وبدأت أتعب. بدأ الجهد العصبى الذى أبذله يأتى بنتائج لا تخطئها العين. كانت أولى مظاهر هذا التعب، حموضة المعدة، التى عادت أكثر حدة وألماً. إنها ليست إلا إنذاراً بالمرض الذى سوف يأتى. داء خبرته وتعايشت معه في مراحل مختلفة منذ أن عدت من بعثتى الدراسية. واعتبرته مقياساً لعافيتى النفسية. إنه لا يختفي نهائياً، وإنما يبقى متوارياً لا يظهر إلا إذا كان هناك شىء يهدد بخراب الروح. مرحلة أولى قبل أن تظهر الطيور السوداء وقبل أن تنهمر القبضات تدق باب البيت. ولأمر ما تصورت أن أنجع وسيلة لمكافحة هذا التعب، هى المزيد من التعب. المزيد من الجهد العضلى الذى يجب أن ترتفع وتيرته حتى تصل إلى الجهد العصبى. وإنهاك الجسد لا بالعمل فقط، وإنما بالركض

ومزاولة التمارين الرياضية الشاقة كمرحلة أولى تقود إلى المرحلة الثانية من مراحل العلاج، وهى النوم، باعتباره الموت الأصغر. حيث يستطيع الجسم وجهازه العصبى أن ينعما بأكبر قسط من البطالة. ما أن تأتى الساعة العاشرة حتى أدخل منهكاً إلى سريرى. وأبقى نائماً عشر ساعات. نظام صارم أرهقنى وأراحنى، أفلح في تخفيف نسبة الحموضة، وإن لم يفلح في إزالتها. أعرف أننى لن أستطيع أن أحافظ على هذا التوازن زمناً طويلاً، وأننى بحاجة إلى معجزة، إلى شىء باهر ينبثق في حياتى. ينقذنى من هذا العناء، ويمنعنى من السقوط فريسة لضجيج أجنحة الطيور السوداء.

ولا شك إن ما حدث بعد ذلك، كان حدثاً خارقاً بكل المقاييس. حدثاً لم أكن، برغم الحدس الذى كان يدفعنى لاستشرافه وانتظار مجيئه، أتصور أن يأتى بهذه الطريقة المذهلة، ويباغتنى كما يباغت الجبل الذى ينشق فجأة عن كهف ملئ باللؤلؤ والياقوت وعقود الذهب والمرجان، رجلاً فقيراً يبيع الأحطاب.

كنت قد انتهزت فرصة مجىء يومى عطلة، فنظمت لعدد من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، رحلة عن طريق جمعية النشاط، إلى مدينة قورينا. ترافقت عطلة الأسبوع مع عيد وطنى، فاتخذت من هذين اليومين مناسبة لتنظيم هذه الرحلة التى لم تكن إلا ذريعة لأن أرى شخصياً هذه المدينة التى تشوقت دائماً لزيارتها. وما أن وصلنا ليلاً إلى الفندق الذى يحتل جزءاً من هضبة تطل على المدينة، حتى أخذت مفتاح غرفتى وذهبت مرهقاً أنشد نوماً أخشى ألا يواتينى، نتيجة ما ألاقيه من صعوبة النوم في الأماكن غير المألوفة. لكن النوم جاء بمجرد أن وضعت رأسى على الوسادة. أخذ الساعات التى يريدها، وصحوت في غرفة مازال يشملها الظلام. فتحت باباً زجاجياً تغطيه الستائر، وخرجت إلى الشرفة. ضربت وجهى أنسام الفجر، باردة، منعشة، كأنها ترشنى بماء الزهر. وغمرت الغرفة فرحة الامتلاء بهواء جديد، وارتمى الجبل الأخضر أمامى مملوءاً بأنفاس الفجر ومجللاً بالغموض. نظرت إلى ساعتى، فوجدت أن هناك أكثر من ساعة ونصف تفصلنى عن الموعد الذى حددناه للإفطار والانطلاق في جولة جماعية عبر أطلال المدينة

الأثرية. ارتديت ملابسى وخرجت للالتقاء بربيع الجبل. تمشيت صاعداً الهضبة متأملاً بهاء النباتات والأعشاب التى بللها الندى، مستشعراً لزوجة النسغ الذى تدره أوراقها وأنا أمشى فوقها، مستمتعاً ببكارة الأرض وشدو الطيور التى أسمع غناءها ولا أراها، فلابد أنها تغنى وهى ما تزال في أعشاشها. أثار منظر الجبل مزدانا بقلائده التى يصنعها الربيع، ذكريات اللحظات التى كنت أقضيها متنقلاً عبر الدروب الجبلية بصحبة امرأة اسمها بدور، عندما كنت أميراً في مدينة أخرى، وزمن لا يشبه هذا الزمان. تذوى الأحلام وتتغير الدنيا، ولكن مشاهد الطبيعة تبقى بمعزل عن كل هذه التحولات. وعلى مرمى البصر كان الأفق يتفجر بألوانه التى تسبق مواكب الشمس. كنت أريد أن أواصل المسير، ولكن إحساساً مبهجاً أثملنى، وجعلنى أبقى جالساً مكانى فوق إحدى الصخور، أرقب الأفق، وأعب رائحة البطم والصنوبر ونبات الزعتر البرى، وأتنسم هذا الهواء المضمخ بأنفاس الغابة. مأخوذا بهذا الجلال الذى ينبض به المكان والزمان، متسائلاً عن السبب الذى يجعلنى لا أصحو كل يوم لأرى الشمس لحظة ميلادها. سأجعل ذلك عادة يومية لا أتخلى عنها،

وسأنتظرها الآن، في هذا المكان، حتى أراها تظهر ببهائها وضيائها. يملأ ذهنى يقين لا أدرى من أين جاء، بأن شمس هذا اليوم ستكون بداية زمن جديد، وأن الزمن الذى كان دائماً يرفض المجيء سوف يأتى الآن، مع بزوغ هذه الشمس. حالة إشراقية غمرت روحى، ولم أجد لها تفسيراً إلا عندما تنبهت إلى وقع أقدام خلفي، وإلى صوت نسائى جميل، أعرفه تمام المعرفة، يرتفع بين الصخور والأشجار قائلاً:

- صباح الخير دكتور خليل.

أدركت أن إحدى الطالبات اللاتى يرافقننا في الرحلة قد استيقظت مبكرة، وخرجت قبل شروق الشمس إلى الجبل. وقفت، واستدرت لكى أرد التحية. وما أن رأيتها. . حتى تسمرت أنظر إليها مصاباً بصعقة الاندهاش والذهول. سقط فكى الأسفل فوق صدرى، وأنا أدير عينى في وجهها غير مصدق ما أرى. لا أدرى كم مر من الوقت حتى استعدت وعيى وقدرتى على الحركة. فأغمضت عينى ونفضت رأسى كأننى أنفض عنها حلماً غريباً من أحلام اليقظة. إذ لا يمكن لهذا المشهد إلا أن يكون حلماً. فتحت عينى وأنا على يقين بأن الحلم قد اختفي، وأن المرأة التى قالت صباح الخير، قد

تبخرت لأنها لم تكن إلا وهماً. ولكن المرأة كانت هناك، تحتضن فوق صدرها حزمة من الأغصان والأزهار، تماماً كما كنت أراها ونحن نتجول فوق جبال عقد المرجان. وقد وقفت ببهاء قامتها السامقة، وجمال عينيها المضيئتين، تنظر في وداعة نحوى. هل يمكن أن يكون ما أراه حقيقة؟ ساءلت نفسى. وساءلت الجبل، والأشجار والصخور والطيور التى حولى. أم أنها بوادر حالة نفسية بدأت تعاودنى وترسم لى أطيافاً لبشر لا وجود لهم إلا في ذاكرتى. هل يمكن أن تكون بدور قد جاءت من عالمها الأسطورى، وانبثقت فجأة بين هذه الصخور والأعشاب أمامى؟ بدور التى لم تكن إلا خيالاً وسراباً. حتى وإن لم تكن كذلك، فقد تركتها في عالم تقوض، وتحول إلى رماد ودخان. سمعتها تعيد تحية الصباح، فحركت فمى بالتحية. انثالت ضربات القلب عنيفة مدوية، كأنها زلزال يهز الجبل. دار الدم في عروقى دورة سريعة أحسست بها كالهدير. كأن الكون يشهد انفجاراً هائلاً. اقتربت خطوات منها، متفحصاً ملامحها، فلعلنى ظننتها تحت وقع المفاجأة تشبه بدور وهى لا تشبهها. ولكنها لم تكن تشبهها. كانت هى بدور. الوجه الشفاف الذى ازداد توردا وصفاء

بفعل برد الصباح. الشعر، غزيراً، ناعماً، فاحم السواد، تتطاير منه شرارات الضوء، بفعل أشعة الشمس التى بدأت الآن شروقها، متزامناً مع ظهور هذه المرأة. وعندما ابتسمت كانت ذات الابتسامة التى تنتج غمازتين تزينان صفحتى خديها. لا اختلاف سوى أنها لا ترتدى الآن جبة الحرير، وإنما رداء عصرياً. سترة من الجلد بلون دم الغزال، أكملت تزريرها فوق الصدر، وبنطلون من القطيفة الشهباء يضغط على ثراء الجسد، وحذاء رياضياً يصلح لوعورة الأرض الجبلية. رأيتها تمد لى زهرة حمراء من حزمة الأزهار التى معها، وتسألنى إن كنت قد تنسمت عبيراً قبل هذا اليوم، مثل العبير الذى يضوع منها. كنت لا أزال غارقاً في ذهولى، غير قادر على استيعاب هذه المفاجأة، أو العثور على تفسير لها. وساهما أخذت منها الزهرة، وساهما مددت يدى أصافحها لأعرف إن كانت حقاً امرأة من لحم ودم وليست امرأة مصنوعة من أبخرة الحلم. كان عبير تلك الزهرة، ذات الساق الوبرى الطويل، والتويج الذى له لون الذهب الأحمر، عبيراً غريباً، نفاذاً، له نشوة تدير الرأس، وكان رأسى قد بدأ يدور، منتشياً بفكرة أن هذه المرأة التى أقف الآن قبالتها،

ويهاجمنى عطر أزهارها، كما يهاجمنى عبير الذكريات التى عشتها معها، إنما هى امرأة تخرج الآن من كتاب الحلم والأسطورة. فمن قال إن عصر المعجزات قد انتهى من دنياى ؟.

سألتها وأنا أرى الكون يعيد تكوين نفسه من جديد، إن كانت هى أيضاً إحدى المشاركات في الرحلة. كان سؤالاً لا معنى له. ولكننى كيف لم أرها، ولم أهتد إليها إلا الآن ؟. أعرف أننا التحقنا بالطائرة دون انتظام، وأننا عندما اجتمعنا في الحافلة التى أقلتنا إلى الفندق كان الوقت ليلاً، ولم يحدث تعارف بين المشاركين في الرحلة بعد، ولكن كيف لم ألتق بها في الجامعة ؟. أفهمتنى أنها تعمل معيدة بكلية الصيدلة، وأن المجىء إلى الجبل الأخضر كان أمنية أرادت تحقيقها منذ أن عرفت أنه المكان الوحيد الذى نبتت به عشبة شاع استعمالها في عصور ما قبل التاريخ باعتبارها دواء لكل الأمراض اسمها السلفيوم، وأنها لم تستطع أن تنتظر حتى موعد الإفطار فخرجت قبل شروق الشمس تبحث عن الأعشاب الطبية التى اشتهرت بها هذه المنطقة.

- هل ستعرفين عشبة السلفيوم لو عثرت عليها؟

- أعرف شكلها الذى كانوا يرسمونه فوق العملة المعدنية. ولكن أحداً لم يستطع الاهتداء إليها، لأنها عشبة انقرضت منذ ذلك الوقت.

- لو كنت مكانك لواصلت البحث عنها. فالأرض التى انبتتها لن تعقم عن إنجابها مرة أخرى.

- ولكن ذلك مستحيل.

ولماذا يكون مستحيلاً ؟. ألا تدرك هذه الفتاة أنها تنتمى هى الأخرى إلى عالم مضى على انقراضه ألف عام ؟. فكيف تسللت من ذلك المكان وذلك الزمان وتظاهرت بأنها معيدة بكلية الصيدلة وإحدى المشاركات في هذه الرحلة ؟. وكيف خلعت ثوبها الأسطورى وارتدت سترة الجلد وبنطلون القطيفة ؟. كنت أجهد نفسى في البحث عن تفسير واع لمعجزة ظهورها. لابد من تفسير يقبله العقل. فهل كانت هذه المرأة وجهاً رأيته رؤية عابرة في إحدى المناسبات الجامعية، ومسحوراً بجماله اختزنته في ذاكرتى ثم استحضرته اثناء تلك المغامرة الروحية الإشراقية وصنعت منه وجهاً لامرأة أحبها وأعيش أياماً معها في زمن خارج هذا الزمان. لا أستطيع أن أعثر على تفسير غير هذا التفسير. ولكن كيف

يمكن أن أنسى ذلك؟ كيف أرى امرأة كهذه فأنسى أننى رأيتها وسمعت صوتها واختزنت جميع ملامحها لتكون زادى ومؤونتى في مملكة الحلم. إننى لا أستطيع أن أذكر كيف ولا متى ولا أين رأيتها. سألتها بصوت مازال ملوناً بالانفعال والدهشة، ومصحوباً بارتعاشة القلب، إن كانت تذكر أننا التقينا قبل الآن. لأن وجهها وصوتها مألوفان ألفة شديدة لدى. سألتها دون أن أفضى لها بعلاقة الحب التى ربطت بيننا ذات يوم. أخبرتنى بأنها كانت ممن حضروا محاضرتى عن ألف ليلة وليلة، وأنها سألتنى عقب المحاضرة إذا كان التعبير الحر عن العواطف كما تصفه ألف ليلة وليلة يعكس قيمة سلوكية في الحياة العربية القديمة وتقليداً من تقاليد الثقافة الشعبية، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاء إلى حياتنا هذا التطرف في قهر العواطف وكبتها حتى أصبح التنكر لعواطفنا عرفاً سائداً في الفكر والسلوك. أذكر أننى قدمت تلك المحاضرة قبل يومين من زيارتى إلى الشيخ الصادق وسفرى إلى مدينة الرؤيا. صار الآن يقينا، أننى حملت هذا الوجه معى في تلك الرحلة. لم أنقل الوجه فقط، أو القامة أو الصوت وإنما نقلت ثورة الروح وتوهج المشاعر واشتعالها،

التى دفعتها إلى أن تسأل سؤالاً يستنكر تقاليد التزمت ويبحث عن زمن جديد يعيد الإنسان إلى عصر البراءة الأولى. قلت لها وأنا أفتش عما تبقى في ذاكرتى من تلك المحاضرة:

- إذن فهى قضية تشغلك؟

- بمثل ما تشغل أى إنسان آخر، يكره أن يمسخ عواطفه ويتنكر لنداءاته الداخلية ويمضى في الحياة يرتدى أقنعته وينسى وجهه الحقيقى كما يريدنا هذا المجتمع أن نفعل. وكان جوابك متفقاً مع ما كنت أحس به.

تفجر المشهد في ذاكرتى كما تتفجر كرة الألعاب النارية، تنير الأفق بأضواء عراجينها الملونة.

- أذكر الآن كل شىء. أذكر أننى قلت لك، بأن أكثر المجتمعات تخلفاً وبدائية، تهتدى بفطرتها إلى هذه الحاجة الإنسانية للتعبير عن العواطف. ومعنى ذلك أن تقاليد التزمت والفصل التعسفي بين النساء والرجال إنما هى تقاليد مفروضة من خارجنا. إرث ثقيل جاء من عصور الغزو والانحطاط والتراجع الحضارى.

كانت الأسئلة كثيرة. وكانت القاعة صغيرة ذات سقف منخفض وإضاءة شحيحة. تزدحم بأنفاس الحاضرين ودخان

سجائرهم. كنت متهيباً من مواجهة جمهور خارج البيئة الجامعية. أدفن رأسى في أوراقى متجنباً النظر إلى وجوه الناس. كنت قد بدأت أحس بالضيق والرغبة في الهروب، عندما سمعت صوتها كأنه قادم من زمن آخر. تكلمت بحرقة وإحساس بالفجيعة والضياع. كانت المحاضرة عن الموت. فتكلمت هى عن قوة الحياة التى يجب أن نواجه بها الموت. فاجأتنى جرأتها ونبرات الصوت التى تكلمت بها. رفعت رأسى أبحث عنها. ولا أدرى لماذا أحسست حين رأيتها بأنها المرأة التى تصورت أننى عشت عمراً أنتظر ظهورها، وأهيئ نفسى لاستقبالها، وأزرع حقولاً من العشب في قلبى لتكون منتزهاً لها. طال غيابها، وانقضى الجزء الجميل من العمر دون إشارة منها، أو علامة توحى بقدومها. تيبست أعشاب القلب وأنا أنتظر زمناً لا يأتى، وأعلق بصرى بشرفات ونوافذ ظلت مغلقة لا تعد بأية مسرات. فأعدت ترتيب حياتى، وحددت علاقتى بالكون على أساس أنها امرأة لا وجود لها. رأيتها فارتعشت. جاء الألم كماشة تعصر صدرى. ها هى تظهر بعد أن فات الأوان. أمطار تأتى بعد موعدها. مات الزرع وانتهت مواسمه، فلن تنتج إلا العوسج

والصبار والحنظل. وغاضباً منفعلاً، أجبت على سؤالها، وكأننى ألومها لأنها تأخرت كل هذا الوقت. وقررت في تلك اللحظة، أن الاختيار الوحيد الذى تبقى لى، هو أن أطوى أوراقى، وأغادر القاعة، وأنسى أننى رأيتها. أواصل حياتى وكأننى لم أسمع صوتها، أو أتلقى إشارة منها.

وها أنا اكتشف اليوم. ان ما ظننته محواً لصورتها من ذاكرتى لم يكن إلا بداية استيلاء هذه المرأة على كل فضاءات الذاكرة، التى لم تعد تتسع إلا لصورتها. وابتنت لها مدينة في الحلم تليق بجمالها، وتكون بديلاً سحرياً لمدينة الواقع التى أخفتها بين جدرانها. ثم صنعت لى قصة حب معها، تعويضاً عن خيبة قلب لم يستطع الوصول إليها.

سرت أتبعها وهى تثب فوق الصخور بحثاً عن الأعشاب والنباتات الطبية، وتبدى فرحة واندهاشاً لكل عشبة تلقاها. رأيتها لا تقيم اعتباراً للموعد الذى حددناه لزيارة الآثار، فأسعدنى هذا الإهمال لبرنامج الرحلة. لم أشأ أن أذكرها به، لكى أتيح لنفسى فرصة البقاء معها بعيداً عن الآخرين. توغلنا في الغابة، وانحدرنا مع إحدى الشعاب، فاختفي الفندق، وباختفائه غاب عن أعيننا الأثر الوحيد الذى

ينتمى إلى هذا العصر. لم تبق إلا أطلال المدينة الأثرية، ومظاهر الطبيعة فوق هذا الجبل الذى لا يولى انتباهاً لتبدل العصور. غارقاً في الزمن الثابت الذى لا يتحول. جئنا إليه ننتمى إلى زمانه، ونطفو لحظات فوق أزمنة البرامج والجداول ومواعيد الحضور والانصراف.

مضت تحدثنى عن الخصائص الطبية لأعشاب الجبل وتذكر أسماءها العلمية التى لا أعرفها فأجتهد في تذكيرها بالأسماء الشعبية لنبتات الحرمل والعرعار والزعتر والخبيز عندما أراها. عثرنا على نوع من الشيح تنفع أزهاره الصفراء لعلاج الالتهابات والحموضة، فجمعت أضمومة منها لكى أتداوى بها. جاء الضحى سريعاً وفقدت الشمس وداعتها. خلعت المرأة سترة الجلد وبقيت في قميص أبيض مطرزة حوافه بخيوط حمراء، وله أزرار بيضاء شديدة التوهج، جلسنا فوق العشب، بجوار شجرة بطم تزدهى بوفرة أوراقها وتيجانها الحمراء المصنوعة من ثمار لم تنضج بعد. هذه إذن هى المرأة التى رهنت لديها قلبى منذ ألف عام، ولم أستطع أن أسترده بعد. كنت لا أزال غارقاً في ذهولى وأنا أرى المادة التى صنعت منها أحلامى ترتدى هذا اللباس

وتحمل هذه الأزهار، وتصير امرأة، مفعمة الأنوثة تجلس بجوارى. أرقبها وهى مشغولة بتنسيق أعشابها وأزهارها ونفض الأتربة عنها، وأسمعها وهى تتحدث عن كيف تحول اهتمامها بالنباتات الطبية إلى متعة وهواية، بعد أن كان مجرد واجب من واجبات العمل والدراسة. فتنثال على الذاكرة مشاهد من تاريخ علاقتى بها. العناق فوق فراش واحد والسهر حتى الصباح تحت سقف بيت تضربه الأمطار والعواصف. نشوة النبيذ وهسهسة موقد النار ولهاث الجسد الراكض فوق حشية القش. الاحتفال بأعياد القمر والارتماء متعانقين داخل قوارب الصيد. الاغتسال الطقسى في مياه الينابيع والجسد الذى انبرى عارياً فوق الجبل تباركه أشجار التين والزيتون. الحنجرة التى تسكب بهاءها كالضياء، والعزف الذى ينشر شذاه كحقل من الزهور. ها هو الحلم يعيد إنتاج نفسه، ويرجعنى مرة أخرى إلى نقطة البدء. وها أنا الآن مطالب بأن أمثل دور الرجل الذى لم يتعرف عليها إلا هذا الصباح. وهى تجلس أمامى، بعيدة، وصامتة. تنفث سحرها في حياد ولا مبالاة. كأنها استيقظت لتوها من نوم دام ألف عام داخل كهف الأسطورة.

- يبدو غريباً أن نعمل في جامعة واحدة دون أن نلتقى ونتعارف.

كنت أريد أن أعرف إلى أى مدى تستطيع هذه المرأة أن تستعيد ذكريات العلاقة التى جمعتنا منذ ألف عام. لقد كانت هى أيضا هناك، تلاقينى وتعانقنى. تبادلنى العشق وتسمعنى الألحان والأغنيات التى كان من بينها أغنية شعبية من مدينتنا القديمة. حتى وإن لم تر حلماً كحلمى، ولم ترحل إلى تلك الأرض مثلى. فإن شيئاً ينتمى إليها كان هناك. ولابد أنها في منطقة ما، من تلك المناطق العميقة في نفوسنا، البعيدة عن مداركنا الواعية، تعرف أنها عاشرتنى وعاشت أياماً في صحبتى في أرض غير هذه الأرض وزمن غير هذا الزمان. إنها تعاملنى بألفة ومودة، وجاءت هذا الصباح تبادرنى بالتحية وتقدم لى زهرة حمراء كأنها تستأنف معى علاقة قديمة. أفلا يعنى هذا شيئاً؟

- أردت فعلاً أن ألتقى بك بعد تلك المحاضرة التى أثارت فضولى وأرغمتنى على أن أبحث عن ألف ليلة وليلة وأقرأها كاملة، بعد أن كنت أكتفي بالاقتباسات التى تنشرها

الكتب المدرسية. أردت أن أشكرك لأنك هديتنى لقراءة عمل قصصى أسعدنى.

إنها لا تذكر شيئاً عن علاقتنا القديمة لأنها تتحدث الآن عما يعيه سطح الذاكرة، وليس عما تعيه الأعماق.

- هل حقاً كتبت أطروحتك عن ألف ليلة وليلة؟

يمنعها الحياء من أن تذكر العنف والجنس، ولكن لا يهم، سأتولى المهمة بالنيابة عنها، وسأقول ذلك بأقصى قدر من اللياقة.

- إنها دراسة في الأدب المقارن، ومحاولة لرصد تأثيرات ألف ليلة وليلة فيما نراه من حديث عن العنف والجنس في أدب الغرب.

- هل أجد نسخة منها في المكتبة؟

- سأعيرك نسخة عندما نعود. احرصى جيداً ألا يراها والدك. فهى تستثير حفيظة أى أب تقليدى.

- اطمئن. ليس في حياتى مثل هذا الأب.

لست في الحقيقة قلقاً من ناحية الأب، فلتترك أمره معلقاً وغامضاً كما تشاء. لا يقلقنى إلا يقينى بأن هذا الجمال لا يمكن أن يبقى بلا أتباع ومريدين. إننى بالغ الامتنان لأنها

جاملتنى هذا الصباح ومنحتنى شرف هذه الضيافة المبهجة القصيرة على موائد جمالها. ولكن هل أستطيع أن أمد بصرى وقلبى إلى أكثر من ذلك. هل أحلم بعلاقة، تستأنف تاريخاً قديماً، وتعيد لأيامنا هذه، نضارة وبهاء تلك الأيام. أعرف أننى كنت هناك في مدينة أنا الذى أسسها، وأقام نفسه أميراً عليها، وجعل الحب شعاراً لها. فهل يتحقق بعث ذلك الحب وسط مدينة منحوتة من صخر التقاليد، ومع هذه المرأة التى انتظرت مجيئها وأنا في العشرين من عمرى، وأخلفت موعدها فلم تأتنى إلا وأنا على مشارف الأربعين.

كانت العصافير قد توقفت عن الغناء. تركت أعشاشها وذهبت في سياحاتها اليومية، وجاء أحدها يلتقط غذاءه قريباً منا. كان يبدو وادعاً ومطمئناً، كأنه لم يغادر عش طفولته إلا منذ لحظات مضت. كنت أريد أن أكسر هذا الصمت الذى حل بيننا، ولكن ما يريحنى هو أن الصمت هذه المرة لم يكن صمت الفراغ وانقطاع التواصل، وإنما صمت الدهشة والتأمل العميق، الذى جاء هذا العصفور يضيف إليه سلاماً يليق بهذه الجلسة. تساءلت وأنا أراقب العصفور الذى كان بريئاً، إلى حد أن جاء ينقر الأعشاب التى بين يديها، عن هذه

القوة التى أشادت لى مدينة وأسكنت بها هذه المرأة، وصنعت لى قصة عشق معها، ثم عادت بعد أن انتهى الحلم وتقوضت مدينته، تضع ذات المرأة في طريقى. أستيقظ فألقاها تنتظرنى بين أحراش الجبل وأشجاره. إنها لا يمكن أن تكون قوة عابثة، لاهية، تعمل دونما هدف. إنها قوة تسعى للخير وتعطف على المحبين الضائعين، وسأضع ثقتى بها، لأنها أكثر منى حكمة وفهما لمصلحتى. كانت الشمس تتسلل عبر أوراق الشجر، تصنع خيوطاً من الضوء تسيل فوق الأرض وتخضب وجه المرأة. علقت بها بصرى أنظر إلى الظل والضوء يعانقان وجهها ويملآنه مرحاً ورقصاً. رأتنى أطيل النظر إلى عينيها فرفعتهما نحوى. لم يكن كُحلاً هو الذى صنع سوادهما العميق. إنها امرأة تكحلت بكحل الملائكة من قبل أن تولد، فما عادت بحاجة إلى زينة تبيعها بوتيكات الجمال الصناعى. هربت بنظراتى إلى العصفور، وكأننى أخشى صداماً مع عينيها لا أقوى على احتماله. لابد أنها قرأت شيئاً في نظراتى التى تشبه صلاة صامتة. إن امرأة لها كل هذه الشفافية، لن تكون عاجزة عن التقاط الإشارات الخفية التى تصدر عن رجل أحبها منذ ألف عام. قلت لها

وأنا أفتش عما إذا كانت تحمل اهتماماً بى خارج نطاق الفضول الذى اثاره في نفسها حديثى عن ألف ليلة وليلة:

- لم أكن أظن أن من نساء بلادنا من لها كل هذا الجمال.

ترددت كثيراً قبل أن أقول هذه الجملة. فأنا لا أريد أن أفسد بهاء هذه اللحظة بحديث يحرجها. إنها جملة بريئة وصادقة. ولكننى أعرف المتاريس التى تقيم خلفها امرأة تنتمى إلى مدن الصحراء. وأعرف أن العبور إليها لن يكون سهلاً كما هو الحال مع نساء المجتمعات المفتوحة. إن على الرجل أن يتحسس طريقه بحذر، قلت لنفسى، لكى لا تدميه الأسلاك الشائكة التى حولها. أجابت وبلغة انجليزية هذه المرة.

- الجمال في عين الرائى. (Beauty is in the eye of the beholder).

لعل في هذه الكلمات اعترافاً بأننى أراها بطريقة مختلفة، واستخدمت تعبيراً إنجليزياً، تفادياً للحرج الذى يبعثه هذا القول باللغة العربية. قلت مجازفاً بالقفز فوق الأسلاك الشائكة:

- كل شيء نسبي إلا جمالك.

نهضت تنفض عن بنطالها ما علق به من أعشاب يابسة. رأت حجراً أثرياً ملقى بعيداً عنا، فركضت إليه وكأنها عثرت على اكتشاف. كان الحجر جزءاً من عمود أثرى، وكانت الكتابة التى فوقه، رموزاً تنتمى إلى لغة عصر قديم. جعلنا نتأمل النقوش دون أن نعرف ما تعنيه، أو نعرف ما الذى جاء بهذا العمود إلى هذا الجزء من الغابة. لعله كان حجراً في معبد من المعابد، وما هذه الكتابة إلا صلاة وثنية.

- ليس لهذا الحجر قيمة كبيرة وإلا ما تركوه مرمياً في الخلاء.

ولكنها كانت مستغرقة في تأمل النقوش، تسألنى وتسأل نفسها، عما يمكن أن تقوله هذه الكلمات إذا كانت حقاً صلاة. تذكرت أن مدينة قورينا عبدت الإلهة إيزيس، وأقامت لها المعابد والتماثيل. استحضرت مقطعاً من غناء ياقوت الشاعر في مدينة عقد المرجان. أعدت صياغته وأضفت إليه، وقد نسيت كل شيء عن عمود الآثار، فلم أر إلا المرأة التى أمامى. ترجمت لها النقوش قائلاً:

إليك أيتها الملكة التى تبسط نفوذها على عصافير الفجر وأشجار الحلم وكائنات الليل والنهار، أرفع صلاتى.

لقوامك الأهيف الرشيق الذى يلثمه الضوء

وجيدك الأتلع الذى شف شفافية الندي

ووجهك الذى يشبه تسابيح الملائكة

وشعرك المصنوع من ولائم الليل

وصدرك المجبول من فاكهة الفصول الأربعة، أرفع صلاتى.

إليك أنت، أيتها المرأة المقدسة، التى ببهائها يزدهى الكون، أصلّى.

قالت ضاحكة:

- هذه ليست صلاة وإنما قصيدة غزل حسى. فمن أين جئت بها؟

تركنا الحجر وأخذنا طريقنا إلى الفندق. لم أكن قد عرفت لها اسماً غير اسم الحلم. وعندما سألتها قالت إن اسمها سناء. تحولت كل خلايا جسمى إلى عصافير تحسو هذا السناء قطرة قطرة. أسعدنى التقارب بين اسمها الحقيقى

واسمها في الحلم. قلت لها في سرى، كلمة لم يتحرك بها لسانى. قلت لها خاشعاً، ساكناً، صامتاً: »أحبك«.

وصلنا إلى الفندق واحتوتنا الضجة التى كان يصنعها رفاق الرحلة العائدين من جولتهم بين الآثار. انتهت تلك اللحظات النادرة الاستثنائية، التى استفردت فيها بالمرأة التى تبسط نفوذها على كائنات الليل والنهار. ولكن السناء الذى سكبته في روحى ظل يملأنى بالانتشاء، فأحس بأننى أريد أن أعانق كل الناس وأشاركهم هذا الفرح الذى فاض به صدرى. ذهبنا جميعاً بعد استراحة الغداء إلى متحف المدينة. أراحنى كثيراً انه لم يكن في أصابعها خاتم خطوبة أو زواج ولكننى كنت قلقاً وأنا أتابعها من بعيد لأعرف إن كان لها صديق جاء معها في هذه الرحلة. تبدد قلقى عندما وجدتها تتبسط في الحديث مع الجميع، وتجلس أثناء الغداء مع بقية النساء المشاركات في الحفلة. رأيتها أثناء وصولنا إلى المتحف ترافق طالباً يصغرها سناً وتطوف معه القاعات والأروقة، فلم ألاحظ شيئاً بينهما يعيد لى قلقى. تعمدت أن أتخلف عن بقية أعضاء الفريق الذين يتحلقون حول المرشد السياحى، ورأتنى أقف بمفردى أمام تمثال إيزيس، فجاءت تشاهد

التمثال معى. كان تمثالاً بالحجم الطبيعى، بدت فيه إيزيس ترتدى ثوباً مزيناً بخطوط حمراء. احتفظ الثوب بألوانه رغم تقادم العصور. كانت ابنة السماء واقفة وحول جبهتها تلتوى الأفعى التى كانت رمزاً لها. احتفظت بملامحها سليمة عدا أرنبة الأنف التى تهشمت تحت وطأة السنين، وأنقصت شيئاً من كبريائها.

- إنها إيزيس جاءت تقلد موضة هذه الأيام وترتدى قميصاً تزينه الخيوط الحمراء، مثل قميصك.

- رأيتك تقف مبهوراً أمامها فقلت إن الدكتور عاد وثنياً يعبد التماثيل.

كان النحات قد وضع شيئاً من إيمانه في التمثال، وصنع لإيزيس خطوطاً حادة يعبر بها عن ملامح الوجه، وجعل الأفعى تنام هانئة فوق

رأسها، فأضفي عليها كل ذلك جلالاً يليق بامرأة أسطورية مثلها

- كنت فقط أتبادل معها حديثاً قصيراً وأسألها عن شعورها وهى تقف وحيدة بعد أن تخلى عنها البشر، ولم يعد أحد يعبدها.

- يجب أن نكبر قوة احتمالها. كيف لا تسأم وهى تقف هذه الوقفة منذ أكثر من ألفي عام. إننى على يقين بأننى كنت سأسأم الوقوف بعد ألف عام فقط.

- إنها لا تسأم لأنها تلتقى بحبيبها أوزوريس الذى يعود إلى الحياة مع فصل الربيع، فتخضر بعودته الأرض، وتمتلئ العيون بالماء، وحواصل الطير بالغذاء.

- لعلها أدركت الآن إنه لا أمان لقلوب البشر.

لم أقل لها ما فعلته هذه المرأة عندما مات أوزوريس، وخشيت ألا يبعث من جديد، فذهبت تبحث بين أعضائه التى تناثرت في أرجاء الأرض عن تلك القطعة من جسمه التى تقوم بمهمة الإخصاب، حتى وجدتها وأخصبت بها نفسها، وأنجبت ابنها حورس الذى يولد كل صباح مع ميلاد الشمس. لم أقل لها ذلك، لأن امرأة مثلها، تخرج كما فعلت هذا الصباح لمشاهدة الشمس قبل شروقها، لابد أنها التقت بهذا الكائن الإلهى.

رأتنى أقف صامتاً، أتأمل التمثال، فلكزتنى بمرفقها قائلة:

- هيا، لقد بقينا وحدنا في الغرفة معها. لا تنس أنه الربيع، وقد يأتى زوجها أوزوريس فلا يعجبه أن يراها تحادث الغرباء. سوف لا يعجبه ذلك، لأنه سوف يأتى هذه المرة، مرتدياً عباءة شهباء من الصوف، وغطاء رأس له زر طويل، تماماً كوجهاء القبائل البدوية التى تسكن خلف هذا الجبل.

تركنا ايزيس تنتظر بصحبة الأفعى، زوجها العائد، وانتقلنا إلى ربات الحسن الثلاث، وهن يقفن عاريات، اشتبكت أذرعهن وكأنهن يقمن برقصة تمجد بهاء الجسد الأنثوى، ويصنعن تمثالاً واحداً يمتلئ بجمال يتبدى من كل الجهات. وصيفات لأفروداايت ورفيقات لربات الفنون. مثال للجمال الذى لا يذوى ولا يذبل، وتجسيد لحلم فنان ينتمى إلى عصر قديم. انتهى ذلك العصر ولكن الحلم ظل باقياً رغم تواتر العصور، كنت أحاول أن أجد صيغة للتعامل مع هذا الجمال الذى ينبض به الحجر. أن أعيد تمثل تلك اللحظة التى قبض عليها الفنان وأبقاها هاربة من سطوة وشراسة الزمن. وأهتدى إلى تلك الوشائج التى تربط بين هذا العرس الحجرى

والأعراس التى يقيمها القلب في أرض الحلم. رأتنى سناء أحرك فمى بكلمات إعجاب لم تسمعها، فسألتنى:

- هل قلت شيئاً؟

أجبتها ضاحكاً، وقد أحسست بأن علاقتى بها صارت تسمح بأن أتبسط معها قليلاً في الحديث، أو أن وجود هذه التماثيل النسائية العارية أفلح في أن يحررنى من ذلك الخجل الموروث:

- كنت أقول إن الذى صنع الملابس للنساء، ما كان ليفعل ذلك لو انه شاهد هذه التماثيل الثلاثة.

- ما أعظم طموحك. لعله من الأيسر عليك أن تبدأ بالدعوة لرفع البراقع عن أوجه النساء قبل المطالبة بتعريتهن.

التحقنا بالآخرين الذين تحلقوا حول تمثال أفروديت، ربة الحب والجمال، وقفت تعرض حسنها العارى للمتفرجين وتضع تحت قدميها جرة. لابد أنها هدية من ديونسيوس، رب الخمرة والمرح، الذى وقف في الجهة المقابلة يشاركها الإقامة في ذات الغرفة، ويستحضر ذكريات عشقه لها ذات يوم. على رأسه تاج من ورق الكروم، وبين يديه عناقيد العنب. بدا وجهه حزيناً لا مرح فيه، وكأنه يحس بغربته في

بلاد لا يحتفل بكرومه وأعنابه. كان المرشد يسرد تاريخ حياته عندما خرج مطروداً من سماء أبيه زيوس وعاش مشرداً في الأرض، رمزاً للاندفاع والجنون والمتعة، يعلم الناس نعمة الاهتداء إلى نسغ الحياة، وممارسة الشبق والشعر والفن، تصريفاً للطاقات المحبوسة في الجسد، إلى أن صار إلهاً للمرح والخمر والحدائق والغابات، وملهماً للإبداع والفنون الجميلة. ذكرتنى سناء بأن علينا أن نشاهد الأماكن الأخرى خارج المتحف، التى فاتنا أن نشاهدها مع الآخرين أثناء الصباح. تركنا القاعة ومررنا مروراً عابراً بزيوس كبير آلهة الأولمب، فطلبنا منه البركة، وبوسايدون إله البحر، فقدمنا له التحية، ووقفنا قليلاً أمام جدارية تمثل الربة قورينا وهى تعانق أسداً، بينما وقفت الربة »ليبيا«، تضع فوق رأسها تاجاً من الزهور. ومن حولنا أروقة تمتلئ بآلهة من الشرق والغرب، تخلت عنهم البشرية، فتخلوا هم أيضاً عن عالم البشر، أداروا ظهورهم له، غير عابئين بهمومه وصراعاته. قالت سناء ونحن نترك هؤلاء الآلهة يسبحون في زمانهم المطلق ونتجه إلى الأطلال:

- أرأيت كيف كان أسلافنا يصنعون من النساء آلهة؟

- سأكون أول من يطالب بالعودة إلى هذه التقاليد القديمة، وسأبحث عن امرأة أجعل منها آلهة أتعبد كل صباح في محرابها. فهل توافقين على تسهيل مهمتى والقيام بهذا الدور؟

- لست مؤهلة لذلك، فأنا لا أجيد ترويض الأسود.

ذهبنا إلى الأطلال الغارقة في ضوء الشمس. حيث الساحات والأسواق والمسارح والمعابد التى صارت مجرد أعمدة تنتصب في الفضاء كأنها أذرع تتضرع بصلاة صامتة. والقبور التى بنيت كما تبنى القصور، احتفالاً بالموت، وتمجيداً له. مدينة انتهى عصرها، وغمر ظلام الأبدية سكانها، وتحولت إلى غابة من الحجارة. والشمس في قبة الكون ترسل ضوءاً باهراً، ينعكس على رخام الأعمدة ويشع من طرقات المدينة المبلطة، وقد أطبق الصمت، ثقيلاً، غامضاً، كأنه لغة مكتوبة بالحبر الأبيض. دخلنا متهيبين إلى أطلال المدينة، وكأننا ندخل في طقوس زمن آخر. رفعنا أبصارنا نتأمل أحد الأقواس التى أشادها ملك فخور بانتصاراته، وقد جاء جلال الحجارة يبعث في النفس، منذ الوهلة الأولى، إحساساً بالضآلة. لم نطلب دليلاً يرافقنا. وإنما

أسلمنا أنفسنا إلى المدينة وكأننا نريد إعادة اكتشافها. لم أر أحداً على مدى البصر يتحرك بين الأطلال غيرنا، فنذرت نفسى لإعادة بناء هذه المدينة الموحشة، الخاوية، التى لم يعد أحد بحاجة إليها. سأبنيها الآن، وسأقيم بها مجتمعاً يضاهى في بهائه مجتمع المدينة التى غنى لها بندار قائلاً: هذه هى حديقة زيوس المفضلة، فخذ عروسك إليها، حيث ستلقاك الربة ليبيا، وسط بهاء المروج الخضراء، مرحبة بضيافة عروسك المجيدة، في قصرها الذهبى. سأعيد الأشجار إلى حدائقها، والمياه إلى النوافير والأحواض التى جف ماؤها، وأقيم الصلاة في المعابد التى هجرها مصلوها، وسأهتم بالمسارح التى تحمل ذكرى البشر الذين يصارعون النمور والأسود فأعيد إليها مصارعيها ونمورها. سأبنى القلاع التى تهدمت والقصور التى تحولت إلى أنقاض. سأملأها بشراً ورقصاً وغناء وموسيقى. وسأعتبر أن الشاعر بندار كان يخاطبنى بهذا القصيد، لأننى جئت أحمل هذه العروس لتكون ضيفة على الربة ليبيا ومليكة على هذه المدينة. كنت أريد أن أبدأ مراسيم تنصيبها، عندما رأيتها لاهية عنى، مشغولة بتأمل الثور الذى يحمل قرص الشمس فوق قرنيه، منقوشاً

فوق الحجر. رفعت رأسها إلى أعلى، فأذهلنى هذا التباين بين الشعر الذى تهدل متألقاً، داكن السواد والتوهج، وبين صفاء العنق وشفافيته المضيئة. وتبدت لى سناء، رمزاً لخصوبة الحياة، مقابل الصمت والحجارة والعدم. قلت لها:

- في مكان ما من هذا الميدان، كان الشاعر بندار، يلقى أشعاره التى تمجد الحب والبطولة منذ ألفين وخمسمائة عام. ذهب كل شىء وبقيت قصائد بندار.

- ذلك دليل على صدق التعبير الذى يقول بأنه لايقهر الموت إلا الكلمة والحجر.

- والحب. لا شىء نستطيع أن نقهر به الموت الذى ينصب فخاخه في أجسادنا سوى الحب.

- لا أعرف كلمة أخرى عبثنا بها كثيراً حتى لحقها العطب، مثل هذه الكلمة.

- إننى أتحدث عن الحب الذى يكون بعثاً للنفوس.

- إنه مثل طائر العنقاء. شىء لا وجود له.

- إنه هو بذاته طائر العنقاء الذى يحل في نفوسنا ويبعثنا من رمادنا.

لماذا لا أقول لها الآن بأننى عشت أبهى أيام العمر بصحبتها، وإننى مازلت أحتفظ بالوهج الشهى الذى التصق بقلبى منذ أن عرفتها في تلك الأرض المسحورة، واحترقت معها بذلك العشق الذى كان يصهرنا ويعيد خلقنا مرة أخرى.

كنا قد وقفنا تحت أعمدة قبر ملكى، نحتمى بظله من وهج الشمس، ورفعت هى رأسها تتأمل نقشاً يشبه موج البحر. ترى ما الذى يوحى به إليها هذا الجو المشبع بالأساطير. وهذا الدخان الأبيض الذى جاء من عصور سحيقة وتجمد حتى صار ضوءاً.

«ليست هناك رقصة إلهية أكثر تقديساً.

ولا مدينة أخرى أغدق عليها أبوللو بركاته الكثيرة، مثل قورينا.

هكذا كان يقول ابنها وشاعرها كاليماخوس. وها أنا أشهد ببركة هذه المدينة التى أحبتها الآلهة، والتى لها فضل اهتدائى إلى هذه المرأة. لقد دعتنى منذ لحظات إلى أن أتجول معها بين هذه الأطلال بعيداً عن الآخرين. فهل كان ذلك يعنى شيئاً ؟. ها نحن نتنقل بمفردنا وسط طرقات اختفي منها البشر والعسس ولم تبق إلا الآلهة تواصل في هذه الباحات،

رقصها الأزلى. فلماذا لا أستفيد من اختفاء البشر وتواطؤ الآلهة، وأبوح لها بما في خاطرى. ولماذا أخشى كلما فكرت بالحديث، بأنها سوف تجفل منى وتركض مذعورة وسط الخلاء كغزالة ظهرت أمامها فجأة بندقية الصياد. مرة أخرى وجدت نفسى أعيد تلك الكلمة، التى لم أقو على أن أحرك بها فمى. في صمت قلت لها أحبك. أطبقت عليها صدرى. ومنعت لسانى من أن يتحرك بها. وقلتها بصوت لا تسمعه إلا هذه الأرواح النائمة في ظل الحجر. نعم، قلت في خاطرى، ماذا يكون الحب إن لم يكن هذه الدماء التى تركض في بدنى، تريد أن تغادرنى وتفر إليها. هذه الرغبة الحارقة لأن أسند رأسى فوق نهديها وأبكى. أغسل يدى في موج شعرها وأغنى. ألثم وجهها وأرتشف الندى من فوق شفتيها وأعانق في عينيها المدى، وأصلى للشموس التى تشرق فيهما. أذهلنى أن أكتشف بأن سناء، سمعت الكلمة التى لم أنطق بها إلا في صدرى. وأثملنى رحيق الفرح، وهى ترد قائلة بأنها تحبنى بمثل ما أحبها، ولم تكن تنتظر إلا إشارة منى لتبوح لى بأسرار تلك الرؤيا التى أوصلتها إلى مدينة أسطورية أقامت بها، وأحبت فيها أميراً تركته هناك، ثم رأته

اليوم يرتدى لباساً عصرياً ويأتى قبل شروق الشمس، ينتظر فوق الجبل مجيئها. كنت أعرف أنها لم تقل هذا الكلام. وإننى أنا الذى قلته في صمت نيابة عنها، لكى أخلق لنفسى وهماً يمنحنى نشوة الاستماع لكلمات أتمنى أن أسمعها. كان القبر الذى وقفنا تحت ظله كبيراً، ومهيباً. بنوا فوقه نصباً يمتلئ بالنقوش التى تصور موائد تكدست فوقها صحون الأطعمة والفاكهة، تحيط بها زخارف وكتابات تشبه التعاويذ. ليكن حبنا تميمة نكافح بها خواء الزمن، ونطرد بها الموت الذى يريد أن يحيلنا إلى طعام على موائده. وصامتة وقفت: سناء، تمسح حبات العرق التى نبتت فوق جبينها، مستغرقة فيما ترى، كأنها مدينة تمتلئ بالأسرار والوعود الجميلة. أتأمل الوجه الذى يفيء سلاماً، وملامحه التى ينعكس فوقها صفاء السماء، فأحس بإيقاع مرح يغمر روحى، وينقلنى إلى عوالم أخرى، أرى فيها نفسى وقد أنجزت وعدى ببناء هذه المدينة. جاء الشاعر بندار يلقى أشعاره التى تمجد انتصارات ملوك قورينا، وسط حشود تملأ الساحات فرحاً. وهبط ديونسيوس من فوق غيمته، وجاء يملأ الجرار برحيقه الكريم. وضج المكان بالرقص والغناء، صلاة للآلهة،

واحتفالاً بهذا العيد. دقت النواقيس في المعابد، وامتلأت المسارح برجال أقوياء يصارعون الوحوش وينتصرون عليها. كنا قد وصلنا في جولتنا إلى معبد آمون. فرفعت رأسى لأرى عربات الشمس تهبط من السماء تحمل الإله آمون الذى جاء يبارك هؤلاء البشر ويقيم لى عرساً مع سناء. أردت أن أضع يدى في يدها امتثالاً لتعليمات الإله، فلم أجدها. ومذعوراً صرت ألتفت حولى أبحث عنها. عادت المدينة إلى صمتها وخوائها. وأنا تائه بين الأنقاض والخرائب بعد أن تخلت عنى الآلهة، وحيداً لا أجد أحداً بجوارى. لعل وجودها لم يكن إلا وهماً، ولم تكن سناء التى جاءت معى إلى هذا المكان إلا طيفاً صنعته من دخان الأحلام التى انطفأ جمرها. فها هى تختفي من حياتى كما اختفت في المرة الأولى. صرت أرتعش فزعاً، خشية أن تكون الأمراض العصبية قد عاودتنى وجعلتنى أتصور أن بدور الحلم تجسدت كائناً حياً، وجاءت معى في هذه النزهة. وملهوفاً صرت أطوف حول المعبد أبحث عنها. ثم صرخت أناديها. رددت بقايا المقابر والمعابد والأسوار والقصور، اسمها معى. فجاءت تركض من خلف أطلال المعبد تسألنى:

- ما الذى حدث؟

غمرنى إحساس جارح بالخجل. كانت أطرافي ما تزال ترتعش. لا أعرف الآن لماذا أصابنى هذا الرعب، ولماذا ناديتها بكل هذه الفجيعة والحرقة.

- ظننت أن أشباحاً خرجت إليك من بين هذه الأنقاض.

أضافت وهى ترانى أتهالك إعياء، وأرتمى جالساً فوق عتبات المعبد:

- أرجو ألا تكون مريضاً.

- إننى بخير. كل ما في الأمر أن هذه الشمس. .

لم أكمل الجملة. لأنه لا شمس تسفعنى بضوئها الحارق غير هذه الشمس التى ترافق بزوغها مع ميلاد شمس اليوم. ها هى ترى بنفسها كيف هاجمتنى الأشباح عندما غابت عنى لحظة قصيرة. إننى الآن وقد وجدتها فلن أتركها ترحل عنى أبداً. لم تكن هذه المرأة وهما. وأنا لم أكن مريضاً أتخيل أشياء لا وجود لها. إنها هنا بجوارى. أستطيع أن أضع يدى في يدها مستعيناً بها على النهوض، وأتأكد من حضورها المفعم حياة ونبضاً.

- هل نعود إلى الفندق؟

لا أرغب في شىء إلا أن أبقى معها. رأيتها تسير باتجاه الفندق فسرت بجوارها. مضينا نعبر الأطلال دون اهتمام هذه المرة. طرحنا من وعينا ذلك الإحساس بالانتماء إلى عالم آخر ومدينة أخرى، فتباطأ الزمن عائداً إلى روتينه المليء بالمواعيد والجداول وأوقات النوم واليقظة. وفي صمت بدأنا نصعد الهضبة. تحركت نسمة هواء منعشة، جاءت من جهة الغابة، وتمررت عبر أشجارها، فوصلت إلى وجوهنا ندية رطبة. وعبر سرب من طيور القطا فوق رؤوسنا، فتتبعناه بأبصارنا حتى توارى في الأفق. التقت نظراتنا لقاء سريعاً لا يبوح بشيء. وعدنا نواصل سيرنا البطىء باتجاه الفندق.

ما إن وصلت إلى غرفتى وانفردت بنفسى، حتى أحسست بحزن مضن، قابض، يفترسنى. حزن لقيط لا أب له ولا أم. لا أدرى من أين جاء، ولا كيف جاء يباغتنى على حين غفلة. لقد جاء هذا اليوم خافقاً ببهاء فجر جديد، وزمن جديد، تحققت لى فيه أشهى الوعود، والتقيت فيه بسناء الحلم التى سكبت سناءها في روحى حتى الثمالة. فلماذا يزورنى

الآن، هذا الأسى الفاجع ؟. وكيف تبخر فجأة ذلك الفرح الذى كان منذ لحظات يقيم أعراسه في دمى، ليترك لى هذه اللوعة المزروعة كهشيم الزجاج داخل صدرى. حاولت الحصول على إغفاءة قصيرة، يتبدل اثناءها مزاجى، وتذوب في متاهة النوم قسوة هذا الوجع، فأستيقظ أكثر استعداداً للسهرة التى ستقام هذه الليلة. لم أستطع أن أنام ولكننى بكيت. بكاء صامتاً، سكبت خلاله دمعاً كثيراً، وأحسست بعده بالارتياح.
جاء وقت السمر فتشابكت أيدينا في رقصة يشترك فيها النساء والرجال. أوقدنا ناراً وسط الغابة، وتحولنا إلى قبيلة بدائية ترقص حول النار. الغابة من حولنا تمتلئ بالظلام والأسرار، والموسيقى تنبعث صاخبة، من مسجلة معلقة بعرف شجرة، فوق رؤوسنا. وسناء في الصف المقابل من الحلقة ترقص فترقص معها ألسنة النار التى انعكست على مرايا وجهها. استحضرت في ذهنى صورة لمعابد النار، وجعلتها إلهة تضىء الكون بنارها المقدسة، وما أنا إلا راهب مجوسى يصلى خاشعاً لها. أرقب في وله هذا النور الذى يدور راقصاً فوق جبينها وخديها، وأتابع ارتجاجات نهديها وهما يتقافزان كطائرين من طيور النار يحرقان قميصها.

أضيع في بيادر ضوئها، وأنتشى بأقداح عشقها، فأحس بأن ما مضى من العمر لم يكن إلا رحلة حج إلى مجد بهائها، وأن عناصر النار والماء والهواء والتراب تتفاعل الآن في بدنى وتضج بفرحة البعث والميلاد الجديد. تركت مكانى وانتقلت لأقف بمحاذاتها. أضع يدى في يدها، وأشبك أصابعى بأصابعها، أريد لنارى ومائى وهوائى وترابى، أن تتبارك بنارها ومائها وهوائها وترابها، تتحد بها، وتصنع لنا وجوداً واحداً، يلتحم في كيان واحد فلا يقدر الزمن على تفريقنا. أرقص معها، وأضبط إيقاع جسدى على إيقاع نهديها. وألثم شعرها الذى يضرب أحياناً وجهى، وأستحضر أثناء ذلك كله، ما يقوله شعراء هذه المدينة، عن رقص الآلهة، وتراتيل أبوللو، وحديقة زيوس المفضلة.

انتهى الرقص، وخمدت النار في الموقد، وعدت إلى غرفتى، وإلى نوم عذب يمتلئ بأحلام رأيت فيها الكون يعود إلى براءته الأولى. خالياً من كل الناس إلا من سناء ومنى. نجلس متعانقين تحت أشجار الغابة، ونعاشر في سلام ساكنيها من نمور وأسود وفيلة وقردة وغزلان. يصبحون جميعاً أصحابنا. يأتمرون بأمرنا، ويضحكون ويلعبون معنا.

كان اليوم الثانى من أيام الرحلة يوماً عادياً. اكتفينا فيه بجولة جماعية عبر أحد المشاريع الزراعية، حيث استضافنا رئيس المشروع وقدم لنا غداء من الخراف المشوية، تقاضى ثمنه إنصاتاً لخطاباته الحماسية حول النهضة الزراعية. وسريعاً انتهت الرحلة ووجدت نفسى عائداً إلى بيتى، أنام في سرير واحد مع امرأة غريبة عنى. وأتساءل لماذا ظلمت هذه المرأة وظلمت نفسى عندما جئت بها لتشاركنى حياتى. ها هى أعراف المجتمع وشرائعه تعتبر أن علاقتى بها هى العلاقة الشرعية الصحيحة التى تباركها ملائكة ا . وما عداها خطيئة، تستحق اللعنة والرجم بالحجارة. وها هى أطرافنا تشتبك تحت الأغطية في عناق كاذب، لأن المسافة بينى وبينها رغم العناق ورغم الملائكة، لا تزداد إلا اتساعاً. قضيت الليل أفكر بسناء واستعجل مجىء الصباح، بأمل أن ألتقى بها. وذهبت عندما حان الوقت ومعى نسخة من الأطروحة التى وعدت بإعارتها لها. جلست في الغرفة التى يشاركنى في استخدامها عدد من مدرسى القسم، أنتظر قدومها. لم يكن بالغرفة سوى الأستاذ شعبان الذى جمع أوراقه وأقفل عليها الدرج استعداداً للذهاب إلى المحكمة. فهو

بجوار عمله مدرساً للغة الإنجليزية، يتولى الترجمة في المحاكم سعياً وراء رزق إضافي. قائلاً من خلال السعال المزمن الذى لا يفارقه صيفاً وشتاء، بأنه سيلتحق بصلاة الظهر بعد مشوار المحكمة، فلن يستطيع العودة إلى الجامعة هذا اليوم. ويطلب منى أن أبلغ ذلك لمن يسأل عنه. وما أن وقف ليغادر الغرفة، حتى وصلت سناء. جاءت ترتدى كنزة رقيقة من الصوف مشغولة باليد كما بدا لى، وبنطالاً من قماش أسود، وحذاء رياضياً أبيض بلون الكنزة، وقد جمعت شعرها في أضمومة واحدة تتهدل فوق صدرها، وثبت فرحاً لاستقبالها. سحبت لها مقعداً ووضعته أمام مكتبى، وذهبت مسرعاً أحضر لها القهوة. تركتها للحظات قصيرة وعدت لأجد رفيقى في الغرفة، مازال واقفاً بجوارها، يضع يده فوق مسند مقعدها، ويبالغ في عبارات الترحيب والثناء، وكأنها ما جاءت إلا لزيارته. عاد الرجل إلى مكتبه، وأعطيت نسخة من الأطروحة إلى سناء التى صارت تقلبها وتقرأ عناوين فصولها. انتظرت أن يذهب الأستاذ شعبان إلى محاكمه وصلاته، لكنه أعاد فتح الأدراج التى أقفلها، وأخرج كتاباً ومضى ينشغل بقراءته. قلت لها بصوت أردته أن يكون

هامساً لكى لا يصل إلى أسماع الرجل، بأن تعبير العنف والجنس الذى ورد في عنوان الرسالة، قد يعطى انطباعاً خاطئاً عن محتواها، فهى بحث أكاديمى يمتلئ بالهوامش والحواشى، وفيه ثقل البحوث العلمية وجفافها. ولذلك أريدها أن تصبر على قراءته وتخبرنى برأيها. أحببت أن تكون هذه الكلمات مدخلاً لحديث أكثر حميمية. ولكننى عندما رفعت رأسى لأرى الرجل، وجدت أن نظراته تسمرت فوق الكتاب الذى يتظاهر بقراءته، وتحول إلى أذنين كبيرتين تلتقطان ما يدور من حديث هامس بيننا. لم أستطع أن أواصل الكلام، لأننى أعرف أن أى حديث شخصى، سوف يتحول على لسان هذا الرجل إلى دعابة يستعملها أعضاء هيئة التدريس في قتل الوقت. أحسست أن سناء أكثر حرجاً منى. شتمته في سرى شتيمة مقذعة. وامتد بيننا الصمت حتى وقفت سناء تستأذن في الذهاب قبل أن تكمل قهوتها. خرجت أمام الباب أودعها. قالت وهى تحتضن البحث:

- سأقرأه بأسرع ما أستطيع.

- لست مستعجلاً على البحث. وإنما على الالتقاء بك. فمتى أراك؟

قالت قبل أن تهبط الدرج:

- حالما أنتهى من قراءته.

امتلأ قلبى بالشجن الذى تتركه لنا الشمس الغاربة. استقبلنى الرجل بضحكة باردة، وقد وقف تتقدمه بطنه، التى جعلت الناس يحرفون اسمه من شعبان إلى شبعان.

مازال الجنس بضاعة رائجة تجذب النساء الجميلات.

قلت بلهجة حانقة:

- تعرف أنه بحث علمى لا علاقة له بما يدور في رأسك.

- لكنك تبخل بهذا البحث العلمى على زملائك، وترفض أن تضع نسخة منه في المكتبة.

- إنها النسخة الوحيدة التى تبقت معى.

لم يكن هذا هو السبب. ولكننى آثرت أن أحتفظ بأطروحتى بعيداً عنهم لكى لا تصبح مادة لحديث المدرسين. أعرف حساسية الموضوع الذى تتناوله الأطروحة. كما أعرف إلى أى مدى تظل هذه البيئة الجامعية وبرغم القشرة الحضارية، مشدودة إلى أكثر تقاليد المجتمع تزمتاً. ولا أريد أن يحدث معى، ما حدث لزميل كتب أطروحته عن أغانى

الأعراس، وجاء فرحاً يعرضها على زملاء الجامعة، فإذا بها تتحول إلى مادة للاستهزاء والسخرية. اعتبرت هذه الأطروحة جزءاً من تلك المرحلة التى طويتها، فلم أشأ أن أترجمها أو أسعى لنشرها، مقتنعاً بأنها استنفدت الغرض الذى من أجله كتبتها. لقد انتهى أمرها بالنسبة لى.

- ولكن هذه النسخة الوحيدة لم تصمد أمام سحر عيون المرأة التى جاءت تطلبها.

انشغلت بتقليب الأوراق التى فوق مكتبى ولم أقل شيئاً. ظننت أن هذا يكفي لأن يقفل الموضوع. لكنه لم يقفله.

- يسمونها في كلية الصيدلة الحورية، لأن لها جمالاً يشبه حوريات الجنة.

قلت وأنا مازلت منشغلاً بأوراقى:

- ألم تكن تريد اللحاق بالصلاة، فما الذى تنتظره. أذهب قبل أن تضيع حصتك في الحوريات.

- ولكن المؤسف هو أن المسكينة تنتمى إلى بيت سيئ السمعة.

ها قد بدأ يعزف النشيد الخالد لمجتمعات الفضيلة الكاذبة. لم أشأ أن أرد عليه، فواصل العزف:

- مات والدها مفجوعاً، عندما اكتشف أن لأمها عشاقاً يزورونها وتزورهم، رغم أنه التقطها من إحدى الحانات وتزوجها ضد إرادة أهله.

- ومتى استطعت وأنت المشغول بالتدريس والمحاكم والبحث عن الدواء في الصيدليات، أن تفتش عن كل هذه الأشياء في حياتها.

- وهى مخلصة للمبادئ التى سارت عليها أمها. كنت عضواً في مجلس الجامعة عندما أصدرنا قراراً، وهى لا تزال طالبة بطردها من الجامعة عقاباً على الفضائح الأخلاقية التى ارتكبتها.

أعرف أننى لو أطعت غضبى وذهبت أصفعه الآن، لتحول العراك إلى قصة تتحدث بها الجامعة. مارست أكبر قدر من ضبط الأعصاب، وقلت من تحت الضرس:

- كيف يستقيم هذا الكلام يا رجل، والمرأة التى تتحدث عنها هى الآن أستاذة في الجامعة؟

- لا تسألنى أرجوك، وإنما اسأل الدوائر العليا التى أبطلت قرار الجامعة وأرغمت الإدارة على إعادتها، وفرضت بعد ذلك تعيينها معيدة برغم سلوكها المشين.

وأضاف ضاحكاً:

- وهى لا تزال تتمتع بحماية هذه الدوائر ورعايتها. ولا شك. .

قلت مقاطعاً:

- عن أى دوائر تتكلم يا أستاذ؟

- كأنك لا تعلم بأننا كأى مجتمع في الدنيا لدينا رجال كبار في الحكومة يحبون هم أيضا الجمال ويتطوعون لخدمته.

- منذ متى نبتت لك أنياب الثعابين، تنهش بها لحوم البشر، وقد كنت منذ دقائق تتحدث عن الصلاة؟

- لا تغضب يا دكتور خليل، لست إلا زميلاً يعرف حسن نواياك، ويريد تحذيرك. أنت تمشى فوق أرض مليئة بالألغام، وعليك أن تحترس، فهؤلاء الناس لا يحبون العبث بألعابهم الجميلة.

رميت بالأوراق فوق المكتب وخرجت حانقاً. لا شك أن ميراثاً ثقيلاً من تقاليد القمع الجنسى والعاطفي، هو الذى صنع هذه النفسية المشوهة التى تحولت إلى رتيلاء كبيرة، تخرج لعاباً كريهاً لزجاً، وتنسج به هذه الشباك للإيقاع

بضحاياها. لعله سعى ذات يوم إلى كسب ودها، وعندما رفضته، بازوجته وسعاله وسماجة حديثه، تحول إلى مخيلة مريضة تخترع الأكاذيب وتنسج حول سناء الشائعات. تركت المكتب وذهبت إلى فضاء الساحة. كان لعاب الاشمئزاز يملأ فمى فأخرجت منديلاً تخيلته وجه الأستاذ شعبان وبصقت فيه. وقفت أملأ صدرى بالهواء بحثاً عن سبيل لإزاحة هذا الضيق. رأيت موقف السيارات قريباً فاتجهت إليه. سآخذ سيارتى إلى الطريق الساحلى، أقودها فيه بسرعة وعنف حتى أفرغ هذه الشحنات التى يضيق بها صدرى. تذكرت أن في جدولى حصة يحين موعدها بعد دقائق قليلة. تركت السيارة ودخلت إلى المكتبة. تعلمت منذ أن عدت من مدينة عقد المرجان، كيف أستطيع أن أحارب حالات الغضب، بشعر المتصوفين. استعرت كتاباً يضم مختارات من القصائد الصوفية ورجعت به الى قاعة التدريس. لم أكن في حالة نفسية تسمح بإلقاء الدرس فاقترحت على الطلاب موضوعاً ينشغلون بكتابته وتفرغت لقراءة أشعار ابن الفارض والحلاج ومحيى الدين بن عربى. عندما انتهت الحصة وذهبت إلى سيارتى، كنت لا أزال حانقاً. لكنه حنق لا يمنع العقل من

التأمل والتحليل. لم أكن بالتأكيد أقبل ما قاله الرجل. وإن كنت أستطيع الآن أن أبحث عن تفسير أكثر موضوعية لما قاله. لا يمكن لامرأة مثل سناء، التى تجلت رمزاً لكل ما هو جميل ومبهر في الحياة، أن تكون الشىء ونقيضه في ذات الوقت. لا يمكن لهذا الجمال، الملهم لأنبل المشاعر، إلا أن يكون خيراً وبهجة وفضيلة. لاشك أن هذا الرجل الذى جاء يبدى معرفة بها، واطلاعاً على أسرار حياتها، باعتباره صاحب أقدمية في التدريس بالجامعة، لا يعرف عمق الروابط التى بينى وبينها. إنها امرأة تكره أن تبدى سلوكاً يناقض حقيقتها، إرضاء لحراس الفضيلة من أمثال هذا الأستاذ. وهذا الصدق في طبيعتها، هو الذى استنفر كل أجهزة الدفاع في نفوس تكلست حتى صارت تتماهى مع المؤسسة الاجتماعية وطقوسها التى استعارتها من ظلام الكهوف. فجاء أصحاب هذه النفوس يلفقون ضدها التهم، ويكتحون في وجهها التراب. إن سناء هى الضوء الذى يكشف ما يطويه الآخرون. إن كان خيراً فاح كالمسك، وإن كان شراً ظهر عارياً بأنيابه الزرقاء. ترى هل تعرف سناء ما يقولونه عنها؟ هل تعلم بأن هذا الرجل الذى كان يدلق

نفسه عليها، ويطريها بكلمات التملق والمداهنة، هو الذى أطلق وراءها أكاذيبه السوداء ؟. عدت إلى البيت والوحشة التى أطبقت على قلبى لا تريد أن تفارقه.

فاطمة مرة أخرى. امرأة البيت وتقديس الحياة الزوجية. القالب الجاهز الذى ينفع زوجة لكل العصور وكل الظروف. تمر بها الأحداث وهى ثابتة ثبات الحقائق الأزلية في الحياة. ترهل الجسم قليلاً، وانطفأ في عينيها الألق القديم الذى رأيته عندما التقيت بها لأول مرة. كانت مهمته أن يجذب العرسان، وانتهى بعد أن تحقق الغرض وتمت الصفقة. احتفظ الوجه بوداعته. وطبيعته الهادئة المسالمة، كأنه أعلام قبيلة أعلنت استسلامها. لم أرها تغضب أو تثور. حتى إذا غضبت فهو غضب مكتوم لا أسمع له صوتاً ولا أرى له أثراً في سلوكها. صبرت زمناً طويلاً على مرضى. وها هى تصبر أيضاً على ما أبلغتها به من أننى رجل عقيم لا قدرة له على منحها أطفالاً يملئون خواء العمر. أغيب عنها النهار كله، فلا تسألنى سبباً أو تفسيراً، ولا تبدى تذمراً أو ضيقاً. تنتابنى أحياناً هذه التفجرات البركانية، فتتركنى وتذهب للاحتماء بمطبخها. تجيد الطهى بمثل ما تجيده امرأة

صار الطهى حرفتها. تحتفظ بالبيت نظيفاً، مشعاً، كأن فريقاً من العاملات يخدمن معها. نضال يومى، لا هدنة فيه ولا راحة. يبدأ بإعداد الإفطار، ثم الذهاب إلى عمل في التعليم حتى منتصف النهار، من أجل مرتب تضيفه إلى مرتبى. تعود بعده إلى دورة أخرى من الطهى والغسيل حتى يحين موعد النوم، فتتبدى نظيفة، جاهزة، إذا ما طالبت غريزة الزوج بحقوقها. دون أن يكون لغريزتها حق أن تسأل أو تطلب، بعد أن أجادت حفظها وتعليبها. لم تسألنى يوماً مساعدة في تنظيف البيت أو غسل الصحون أو حتى إعداد القهوة أو رتق أزرار القمصان. تتولى كل الخدمات داخل البيت وكأنها ليست امرأة تذهب إلى عمل أكثر إرهاقاً من عملى. بل كثيراً ما أسمعها تستنكر ما تقوله بعض المدرسات، من أنهن لا يجدن حرجاً في سؤال أزواجهن المساعدة في أعمال البيت وإعداد الطعام، وترى في ذلك استهتاراً بوظيفة الزوجة وخروجاً على الأصول. امرأة فصلت تفصيلاً مثالياً، يناسب مقاس زوج ينتمى إلى هذا المجتمع. إننى برغم الجهد الذى أبذله لإثبات انتمائى له، وولائى لنواميسه، مازلت فاشلاً في تحقيق هذه المصالحة

معه. إنها بالتأكيد لم تخلق لمعاشرة إنسان مثلى، وإنما خلقت لرجل آخر أكثر اتزاناً وعقلاً، ممن عقدوا صلحهم الأبدى مع الناس والحياة. يعترف بمهارتها، ويقدس الحياة الزوجية مثلها، ويحقق معها وبها، التوافق الذى يرضيهما. لماذا تلقى الأقدار بامرأة لها كل هذه الكفاءة في طريق رجل مسكون بالهواجس والكوابيس. لا يقيم اعتباراً لخصالها، ولا يبحث عن سبيل ينفذ من خلاله إلى المناطق الدافئة في قلبها. إننى أعرف الميراث الذى يشكل شخصيتها وقناعاتها، وأحاول قدر جهدى أن أكون رفيقاً بها، وأن أحترم هذا العقد الذى يجمع بينى وبينها. إننى لا أكرهها. ولكننى أيضاً لا أستطيع أن أحبها. وها هى امرأة لها مقاس يناسب المساحة الفارغة في قلبى، تأتى اليوم لتملأها، وترغمنى على أن أعيد ترتيب حياتى. جاءت متأخرة كثيراً عن موعدها، ولكنها لا تأتى لتأخذنى من فاطمة، لأننى لم أكن في يوم من الأيام لها. إننا نعيش تحت سقف واحد، وننام في فراش واحد، وتنشأ بيننا إلفة مثل التى تنشأ بين كائنين من كائنات الدنيا يعيشان حياة مشتركة. ولكن المساحة التى تفصل بيننا ظلت باقية. مارسنا حياتنا وكأننا غريبان تحطمت بهما سفينة في عرض البحر،

ووجدا نفسيهما معاً في قارب يرتفع بهما وينخفض، مع ارتفاع الأمواج وانخفاضها. وكانت الأمواج التى تهدر في صدرى، تدعونى لأن استفزها. كانت قد وضعت صحون الخس واللحم والمعكرونة فوق الطاولة ودعتنى إلى الانتقال إليها. قلت بلهجة خالية من الود:

- لا أريد أن أتغدى.
- إذن فقد تناولت غداءك في الجامعة.
- لم أتناول شيئا ولكننى سئمت هذه الوجبة المتكررة.

أسألك دائماً ماذا تريد فلا تبدى اهتماماً.

- لا أجد الآن شهية للطعام.

رأيت الكدر يغطى ملامحها وهى تعود بالصحون إلى المطبخ فأحسست بشىء من الندم. انتظرتها حتى عادت، وقلت بلهجة لينة:

- لماذا لا تتناولين غداءك.
- انطفأت شهيتى أنا أيضاً.

كان هذا أقصى قدر من الاحتجاج تستطيع أن تقوم به. لقد بدأت إضرابها عن الطعام. قلت بلهجة ساخرة:

- ليتنا انتويناه صياماً منذ الفجر، فنابنا بذلك الأجر والثواب.

جاء المساء وصالحتها. جلسنا نتناول الطعام الذى أضربنا عنه في الظهيرة، وأدرنا جهاز التلفاز نحونا، نراقبه ونمضغ طعامنا. كانت مطربة التلفاز تقف وسط غابة من الآلات الموسيقية، تمثالاً للإثارة والرغبات اللذيذة. الشعر كثيف ومصبوغ بصبغة حمراء. والفستان ملتصق بالجسم ومطرز بخيوط تلمع كالفسفور، والنهدان كبيران، منتفخان، كأنها شقت الكرة الأرضية إلى نصفين ووضعت كل نصف على جزء من صدرها. كانت تغنى أغنية بدوية عن حب برىء لا ينسجم مع مظهرها الحسى وإثارة ألوانها وملابسها. وتسأل حبيبها أن يأتى ليخطفها فوق جواده، وينطلق بها في صحراء يضيئها القمر. كنت أتناول طعامى بإبطاء، وأراقب الأغنية دون انتباه، وأفكر فيما إذا كان الوقت مناسباً لأن أناقش مع فاطمة، هذه الحياة الزوجية التى لم تنج هى الأخرى من المتناقضات. مجرد وقفة تأمل وتقييم بعد أكثر من سنوات ثلاث، عشناها معاً. كانت هى تجلس قبالتى في جلبابها الرمادى الفضفاض. تأخذ ملعقة من الطعام ثم تدير

رأسها إلى التلفاز. ماذا لو أننى الآن، وفي حضور هذه المطربة الفاقعة الألوان، اقترحت على فاطمة أن نفترق. هكذا، في هدوء ودونما ضجة. كما يفترق صديقان، سافرا معاً في رحلة واحدة، ثم آن لكل منهما أن يأخذ طريقاً آخر. لا شك أنها ستعتبرنى مجنوناً. وستجن هى الأخرى لجنونى. رجل وامرأة. زوج وزوجة. لا مشاكل بينهما ولا خلافات. تعاشرا على الود والصفاء كل هذه السنوات. ثم هكذا ودونما سبب يفترقان. إن أمراً كهذا يخرج على نطاق المعقول الذى تفهمه فاطمة. كيف أستطيع أن أقول لها أننا نحتاج أحياناً إلى لحظة جنون. وإن العالم كله يحتاج أن يجن أحياناً. لماذا، قلت لنفسى، لماذا لا نتفق على يوم واحد في العام، نسميه اليوم العالمى للجنون. نرتكب فيه كل الحماقات الجميلة اللذيذة، التى يمنعنا الخجل أو الحياء أو العقل أو العرف أو القانون أو التقاليد، من ارتكابها. نصحح فيه الأخطاء التى اقترفناها في لحظة صحو، غاب فيها الخيال والحلم، وصرنا ندفع العمر ثمناً لها. يوم عالمى للجنون. نهدم فيه كل علاقة ظالمة، بنيناها مرغمين، استجابة لتعاليم ربة الحكمة وكبير الآلهة، وننشئ علاقة جديدة يباركها ديونسيوس أو باخوس أو

فينوس أو أى إله من آلهة الحظ والمتعة والمرح والحب والانطلاق والجنون. نحطم القوالب الجاهزة، ونقفز خارج الأطواق والأسوار. نتمرد على دوائر الطباشير التى رسمناها حول مواقع أقدامنا، وقطعنا عهداً للسيد زيوس بأن نبقى مدى العمر في إطارها. نمزق العهد، ونطرد الغبار من فوق وجوهنا وأرواحنا. نعيث فساداً بقواعد اللعبة التى أورثها لنا أسلافنا الموتى، ونمنح أنفسنا أسماء جديدة غير تلك التى اختارها شيوخ وعجائز بالنيابة عنا. اليوم العالمى للجنون، الذى سيكون يوم الاندفاع الحيوى لإحياء العقل الحقيقى الذى تكدس فوقه رماد السنين، وطمسته تقاليد وأعراف خلقت لزمان غير زماننا، ولعصور غير عصرنا، ولأناس تختلف حياتهم عن حياتنا. حتى أصبح ما نسميه حكمة وعقلاً، ليس إلا مزحة كبرى. نعيشها دون أن نعرف ما تحتويه من عبث وسخرية. الزواج ذاته. هذه المؤسسة الاجتماعية المهولة، التى عاشت عبر عشرات آلاف السنين محاطة بالإكبار والإجلال. كيف جاءت؟ ومن أين جاءت؟ وما الذى أوجب ظهورها؟ ولماذا بقيت معنا حتى الآن؟ ليكن ذلك الذى أنشأها في عصور غابرة، أراد أن يحقق بها غرضاً أو غاية. ولكن

أى غرض هذا الذى يبقى ثابتاً لا يلحقه التغيير رغم مرور مئات القرون ؟. إنه العبث في أكثر أشكاله عبثاً. لماذا إذن نمنحها قدسية لا تستحقها ؟. وما الذى سيحدث لو أننا اتفقنا جميعاً على إلغائها ؟. مزقنا كل القوانين الشخصية، وأحرقنا كل عقود الزواج، وأقفلنا مكاتب المأذونين. لكى تنتهى إلى الأبد هذه المؤسسة كما انتهى الرق وأسواق النخاسة والعبيد. ويحيا الناس أحراراً. نساء ورجالاً يختلطون اختلاطاً حراً. يتحابون ويتعشقون، بلا قيود ولا مواثيق إلا المواثيق التى يرتضونها لأنفسهم، ويهتدون إليها بطبيعتهم الحرة. ونتيح للأطفال أن يتربوا مع أقرانهم في رياض نشيدها لهم، بعيداً عن السيطرة الأبوية، العائلية، التى تخنق الروح، وتقتل الإبداع.

اختفت المطربة الملونة، وجاء مذيع النشرة. انتهى التناقض الجميل بين المرأة المثيرة مثل سلة مليئة بتفاح الخطيئة، وبين ضوء القمر الذى تخاطبه الأغنية. وحان موعد الانتقال من كارثة إلى كارثة أخرى كما جاء على لسان المذيع الذى يقرأ الأخبار. عدت أنظر إلى فاطمة. ما ذنب امرأة لم تر حلماً كالذى رأيته، ولم تغتسل عارية في

مياه الينابيع المقدسة. ها أنا أصنع من زواجى منها مشكلة كونية، وأدعو الجنس البشرى كله لأن يبحث معى عن حل لهذا الخطأ الذى ارتكبته في لحظة غاب فيها الجنون. ذهبت فاطمة لإحضار الشاى.

قالت وهى تملأ الطاسة:

- إنك صامت لا تتكلم.

إننى صامت لأننى لا أستطيع أن أفضى إليك بهذا الكلام الذى يملأ فمى. كلام لو قلته لتحركت الزلازل تدك الأرض التى تقفين عليها، ولقامت في وجهك القيامة قبل موعدها. هل أقول لك بأننى أحب امرأة أخرى اسمها سناء، رأيتها في حدائق الحلم قبل أن ألتقى بها في الحياة. وإننى لا أرى لوجودى معنى إلا بوجودها، ولا أفكر في شىء إلا في الكون الجميل الذى يسكن عينيها. ثم ماذا لو أننى استخدمت باباً آخر ينطلق منه الجحيم. وأخبرتها بحقيقة أن العقم الذى أفرغ بيتنا من الأطفال، ليس عقمى أنا، وإنما عقمها هى. ولكن لماذا أبحث عن أسباب لإيذاء امرأة طيبة لم أر منها شراً. لا شك أننى ما كنت سأضيق بحياتى معها، كل هذا الضيق، لو لم تظهر سناء. كنت قد اعتبرت حبها تبخر

وانتهى. وأردت بصدق أن أربى في نفسى شعوراً بالانتماء إلى فاطمة وبيئتها. أدس رأسى بين الرؤوس وأمشى في الطريق كواحد من أفراد القبيلة. يغطينى الغبار الذى يغطيهم، وأشغل نفسى بمشاغلهم، وأدور مع السواقى التى يدورون بها. إلى أن أشرق وجه سناء. يضىء هذا الخواء الذى حولى، ويوقظ في نفسى هذه القوى البركانية التى تريد تحطيم كل الأبنية والأسوار والانطلاق إلى عوالم مسقوفة ببهاء السماء، لا يحدها إلا الأفق المفتوح على آفاق لا حد لها. لا شىء يملأ ذاكرتى سوى سناء. والكلام البذىء الذى قاله عنها الرجل لم يزدنى إلا حباً لها، وإدراكاً لمدى الغربة التى يعانيها هذا الجمال، وسط بيئة قاسية، نذرت نفسها لتقديس القبح، وجعلت من الشراسة عرفاً ودستوراً. ولكى لا أبدو أنا الآخر شرساً في مواجهة المرأة التى تشاركنى العشاء، قلت ألاطفها:

- ما رأيك أن نهجر التدريس ونفتح مطعماً. إن من يذق طعامك مرة، لن يهنأ بأى طعام آخر.

أعرف إلى أى مدى يطربها الثناء على طعامها. إنه في ذات الوقت يعفينى من التورط في الحديث على جوانب أخرى، سيكون التراجع صعباً عندما أمدحها.

- قد لا تصدق أن عاملة التنظيفات التى افتتحت مقصفاً لبيع السندوتشات بالمدرسة، صارت تكسب مالا يساوى ما تتقاضاه كل المدرسات.

ها قد وجدت امرأتى موضوعاً محبباً للحديث. وها هى تواصل إلحاحها بأن أقبل العروض التى تأتينى لترجمة المعاملات التجارية كما يفعل زميلى الدكتور، زوج السيدة أختها. فهى لا تفهم لماذا أعرض عن مصدر سخى من مصادر الرزق.

- لماذا ترفض هذه النعمة ؟. بضعة أوراق تترجمها في يوم واحد، تكسبك مالاً يساوى مرتب الجامعة لشهر كامل. قد لا تعلم أن أختى وزوجها يبحثان عن مزرعة لشرائها، بعد أن أكملا بناء البيت من أموال الترجمة التى يقوم بها محمود.

ها أنذا اتورط في الحديث عن المقاصف والمزارع والأموال التى يتقاضاها المترجمون وعاملات التنظيف. قلت لها وأنا أبحث عن سبيل للنفاذ إلى حديث أقل ثقلاً:

- وماذا نفعل بالنقود؟

تذكرت وأنا أقول هذا السؤال عالماً عشت عاماً بين أهله دون أن أرى نقوداً، أو بشراً يتعاملون بها. اختفي هذا الشىء، وباختفائه اختفت الفوارق بين طبقة الفقراء من مدرسين ومدرسات، وطبقة الأغنياء من عاملات التنظيف وعماله. إننى بحق أريد أن أعرف ماذا يمكن أن تفعل فاطمة بهذه النقود الإضافية التى تريدنى أن أعيش في سبيلها مرتهناً لدى السماسرة وأصحاب الوكالات التجارية. لدينا من النقود أكثر من كفايتنا. والشقة التى نعيش بها تتسع لثلاث عائلات أخرى. وكانت بيوتنا في المدينة القديمة تتسع لعشر عائلات في بيت كهذا، ولم تكن الحياة أكثر بؤساً، أو أقل بهجة مما هى الآن.

- ما أكثر ما نستطيع أن نفعله بالنقود. نشترى نحن أيضاً مزرعة نتنزه بها. إن النقود خير وأمان.

ولكننى أستطيع أن أتنزه كل يوم في حقول ومزارع دون أن اشتريها. قلت:

- وهى أيضاً شر ولعنة. ألا تسمعين بالمثل الذى يحذر الزوجات من ثراء الأزواج. قائلاً بأن الرجل إذا كثر ماله ضاق ببيته ونبذ امرأته.

قالت فاطمة بلهجة ذات معنى:

- الرجال يفعلون ذلك حتى بلا مال.

رمقتنى بنظرة، أحسست معها، أنها تعرف على وجه اليقين ما أضمره لها. وتدرك أن قلبى شرد وراء امرأة أخرى. إنها ليست خاملة الروح كما يوحى مظهرها. أعرف جيداً طبيعة امرأة مثلها، تمثلت ميراث القمع وتقاليده، واستسلمت له، وأعرف أن هذه التقاليد التى منحتها دوراً وأعدتها له، لم تتركها عزلاء بلا سلاح. فهى لديها سلاح يفل الأسلحة الأخرى التى لا تستند إلى ميراث وتاريخ. إنها ما أن ترى خطراً، حتى تجرى هاربة تحتمى بكهوفها. تكبت انفعالها وتمنعه من أن ينطلق، وتتفادى بذلك تفجير صراع تعرف أنه ليس لصالحها. تستخدم لعبة الوقت وتعتمد عليها، تمتص بها التوتر وتتقى بها الخطر، وتنتظر أن يذوب

الصراع ويتلاشى بفعل كيمياء الزمن. لحظات كثيرة تصورت فيها أن كل شىء بيننا قد بدأ ينهار، ولكنها بطريقة ما، وبأسلوب غامض لم أهتد إلى أسراره، أجد أن فاطمة أفلحت في تجاوز الأزمة، وطردت من فوق رأسها العاصفة، وأعادت الحياة إلى روتينها الآمن.

تفاءلت خيراً عندما ذهبت إلى الجامعة ولم أجد الأستاذ شعبان. مضى اليوم دون أن أراه. وجدت فسحة من الوقت وذهبت أثناءها أحوم حول كلية الصيدلة، علنى أرى سناء تدخل الكلية أو تخرج منها، دون أن أجرؤ على الدخول للسؤال عنها. وكان الإحساس بأننى قريب منها، ومع ذلك لا أقدر على رؤيتها، يجعلنى تعيساً. يجب أن أكون عملياً في حديثى معها عندما تأتى، فلا أتركها تمضى قبل أن نهتدى إلى وسيلة نتمكن بها من الالتقاء كل يوم.

مضت ثلاثة أيام دون أن تأتى سناء. كنت أثناءها قد وقفت في الشمس كثيراً. أتمشى وحيداً في ساحات الجامعة. وأعود إلى القسم، وقبل أن أصل غرفة المدرسين، أقف متنصتاً، حتى إذا ما تناهى لى سعال الأستاذ شعبان، امتنعت عن الدخول، متجنباً أى صدام معه.

جئت في اليوم الرابع مبكراً، لأكون في انتظارها إذا ما أكملت قراءة البحث. جلست أشرب قهوتى، وأثرثر في حديث عائلى مع عديلى محمود، أسأله عن أخبار المزرعة التى أبلغتنى فاطمة بأنه عازم على شرائها، وأعاتبه لأنه يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان، وينتقل بشكل سرى من مواقع البؤساء أمثالنا إلى مواقع أصحاب المزارع والقصور. قال بأن الأمر مجرد إشاعة تطلقها زوجته في الأعراس وأمام نساء الرجال الأغنياء، متظاهرة بأنها أصبحت واحدة منهن. وأنه لكى يحقق لزوجته حلم المزرعة سيحتاج إلى أن يترجم أوراقاً بعدد أوراق الموسوعة البريطانية. ثم دخل إذ ذاك الأستاذ شعبان. جاء لاهثاً يسبقه سعاله. تبادل التحية مع محمود وعندما أراد تحيتى وضعت رأسى في الأوراق دون أن التفت إليه.

خاطب محمود قائلاً:

- إنه يخاصمنى لأننى حذرته من الانغماس في علاقة مع امرأة سيئة السمعة، سوف تصنع له أعداء لا يعرف مدى سطوتهم وجبروتهم.

ها قد جاء يصنع لى علاقة لم أذق شيئاً من نعيمها إلا في الأحلام، ويخبر بها رجلاً تربطنى به علاقة المصاهرة، لكى يصبح الموضوع طعاماً لأحاديث نساء العائلة. لعنت في سرى الأرض التى أنبتته، كما لعنت الأعداء الذين لا يعرف سطوتهم إلا هو. تساءل محمود عمن تكون هذه المرأة فذكر له اسمها وعملها بين نوبتين من السعال. وتطوع بإبداء ما يعرفه عن حياتها قائلاً:

- إننى أعرفها جيداً. فهى إحدى بنات الجامعة ممن يعتبرن العهر تحرراً وسلوكاً عصرياً. الفرق الوحيد بينها وبين الأخريات من مثيلاتها، أنهن يكتفين بحالة إجهاض واحدة. .

ثم أكمل بعد أن أفرغ شحنة من الضحك الممزوج بالسعال:

- في حين أنها ضربت الرقم القياسى في حالات الإجهاض التى قامت بها.

عندما وجدت أمعائى تصعد إلى حلقى، ووجدت حلقى يفرز لعاباً مراً يملأ فمى، لم أبحث هذه المرة عن منديل أبصق فيه. تركت مقعدى وذهبت بخطوات ثابتة حتى وصلت

إليه. وقفت أمامه. وبصقت كل ما كان في فمى من لعاب فوق وجهه. تركته يمسح البصاق ويبحث عن شىء يقذفنى به وعدت إلى مكانى. جاء هاجماً فتصدى له محمود ووقف يحول بينه وبينى. تركت الغرفة وذهبت مسرعاً إلى كلية الصيدلة أبحث عن سناء.

قادنى أحد الطلاب عبر الأروقة، حتى أوصلنى إلى المختبر الذى تعمل به. كانت هناك لافتة تمنع الدخول على غير العاملين، فطرقت الباب بإلحاح. جاءت سناء تسألنى بوجه يمتليء دهشة وفضولاً، عما حدث. كانت ترتدى معطفاً طبياً، وتضع في يديها قفازين أبيضين. قلت ورأسى مازال يمتلئ بهدير العواصف:

- لابد أن أراك بضع دقائق على انفراد.

- إننى مشغولة كما ترى.

- بعد انتهاء الشغل سأنتظر في المكتبة. لا. ليس المكتبة جمعية النشاط حال انتهاء الدوام.

تركتها دون أن أسمع ردها. لم أذهب إلى المكتبة أو الجمعية وإنما بقيت أتنقل بين ساحات الجامعة وبقايا الغابة التى تحيط بها. قلقاً، مأزوماً. والوقت يمر بطيئاً، ثقيلاً. لعلها

لن تأتى. وإذا جاءت فما الذى سأقوله لها. إننى لا أدرى لماذا جئت. ولم أفكر وأنا أخرج حانقاً من غرفة المدرسين إلى معملها، ما الذى أريده منها. جئت إليها، لأنه لا أحد يهمه ما حدث سواها. كنت أريد أن أحتمى بها أكثر مما أريد حمايتها. لابد أن تعرف ما يقوله ذلك الرجل عنها. لعل هناك آخرين مثله يقولون الكلام ذاته. ومعنى ذلك أن هناك خطراً يتهددها، وعليها أن تحترس. فالعالم ليس بريئاً مثلها. ومجتمع الغابة لم ينقرض تماماً من الدنيا. إنه مازال يعيش في عقل الأستاذ شعبان، الذى لا أعرف لماذا يسمونه أستاذاً، مع أنه لا يحمل مؤهلاً سوى شهادة خبرة من معسكرات الجيش الإنجليزى. لم أجد ما أفعله بنفسى، فذهبت إلى الغرفة التى اتخذناها مقراً لجمعية النشاط. لا أدرى إذا كان المكان مناسباً لمثل هذا اللقاء. ولكن أين هى الأماكن الأخرى. كل الأماكن فوق أرض هذا المجتمع تصبح مشبوهة متى استقبلت رجلاً وامرأة. لازال المبنى جديداً، ينضح برائحة الطلاء. غرفة مستطيلة، لها ثلاث نوافذ تدير ظهرها للشمس، لم يكن بالغرفة سوى طالب يرسم صحيفته الحائطية. تركته مستغرقاً في عمله، وصرت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، أنظر في

ساعتى فأرى الوقت لا يتحرك. لم أدر ماذا أفعل بيدى. عقدتهما فوق صدرى. وضعتهما خلف ظهرى. جلست. شبكتهما وأسندت فوقهما ذقنى. قمت واقفاً وهما تتدليان بجوارى. تأملت زبد الأمواج في صورة معلقة. استطعت أن أسمع هدير الموج وأشم رائحة البحر. أدرت رأسى إلى حيث يجلس الولد. لم يكن موجوداً. ترك الصحيفة وغادر الغرفة. تنفست بارتياح. ذهبت لأرى الشىء الذى كان يرسمه. وجه امرأة في مقتبل العمر. نصف الوجه يغمره الضوء، والنصف الآخر يغمره الظلام. فكرة غريبة على عقل ولد صغير، مازالت أمامه سنوات كثيرة قبل أن يكتشف المناطق المظلمة في النفوس. جوانب كثيرة في حياة سناء لا أعرفها. مناطق مجهولة يغمرها الظلام. حتى اسمها لا أعرفه كاملاً. لا أعرف سوى سناء. إن هذا كل ما أريده منها. يكفي أننى أحملها هاجساً يملأ ذاكرتى، وغزالة تأكل أعشاب القلب وتركض فوق حقوله. فأية معرفة أريد، بعد أن عشت معها قصة عشق تسبق هذا الزمان بألف عام.

جاءت سناء، تحمل في وجهها سيماء من البراءة والفرح. رفرفت عشرات الأجنحة في جسمى تريد أن تحطم

أقفاصها وتطير إليها. لم تكن تستطيع البقاء طويلاً لكى لا تتأخر عن زميلتها التى تقلها عادة إلى البيت بسيارتها.

- تعرفين الأستاذ شعبان؟

- طبعاً أعرفه، منذ أن كان يأتى إلى كلية الصيدلة لتقديم حصص اللغة الإنجليزية.

- إنه يحقد عليك. يحقد عليك كثيراً. ويقول كلاماً فظيعاً.

- ماذا يقول؟

- ليس المهم ماذا يقول، أو لماذا يقول ما يقول. المهم كيف نجد طريقة لإيقافه عن إطلاق هذه الأكاذيب. إنه حشرة كبيرة تزحف بين حيطان الجامعة. يجب أن يفضح ويطرد.

ولدهشتى الشديدة وجدتها تضحك بنزق واستهتار. يمكنها أن تسخر مما أقوله، وتهزأ به. أما أن تضحك ضحكاً عالياً يندفع من بين أسنانها وشفتيها كرنين أجراس العيد. فهذا ما بدا لى غريباً. إن ما أقوله ليس عيداً، وما يطلقه الرجل من شائعات عنها ليس دعابة، فمن أين جاء هذا الضحك؟

- لو أن كل من قال كلمة عنى طردوه من الجامعة، لما بقى بها أحد.

- إذن فهو ليس وحده من يقول هذا الكلام.

- يجب أن أعرف أولاً ما الذى قاله؟

بقدر ما أغاظنى ضحكها، فقد أغاظنى: أيضاً إصرارها على أن تعرف تفاصيل ما قاله عنها. ما الذى يمكن أن يقوله رجل يريد أن يرمى امرأة بسوء. قررت أن أقول لها كل شىء اندفعت بغيظ أعيد عليها كل ما سمعته من أقوال جارحة عنها، وأعيده بلهجة صارمة قوية. أردت أن أستفزها وأستثير كل مشاعر الغضب لديها لكى تعرف أن للهزل أوقات أخرى غير هذا الوقت.

- إنه يصنع لك علاقات فاجرة مع الرجال النافذين في الحكومة، الذين كانوا وراء نجاحك وتعيينك معيدة في الجامعة. إنه يقول إن هؤلاء الرجال هم الذين أعادوك بعد أن طردتك الجامعة بسبب الفضائح الأخلاقية التى ترتكبينها. ويذهب أبعد من ذلك لينال من شرف أسرتك ويعتبر بيتكم بيت فسق ودعارة، ويقول أنك قمت بحالات إجهاض بلغت رقماً قياسياً.

نظرت إلى بعينين تمتلآن رعباً ووجه انسحبت منه كل الدماء التى كانت تمنحه التوهج والفرح. أبقت بصرها مسمراً

فوقى. كأننى لا أنقل هذا الكلام عن مصدر آخر وإنما أنا الذى اخترعته وجئت أرمى به إليها. ارتعشت ملامح وجهها، دون أن تقوى على الكلام. انهارت فوق المقعد ورمت رأسها فوق الطاولة. أحاطته بذراعيها وأجهشت بالبكاء، وقفت بجوارها ألوم نفسى لأننى كنت غشيماً وقليل الحيلة عندما أفرغت أمامها كل ما سمعته من أقوال كريهة، كمن يفرغ كيساً مليئاً بالفئران الميتة. لاشك أنها لم تتوقع أن تأتى التهم قبيحة، جارحة، لا تبقى على خصلة من خصالها، ولا توفر أحداً من أهلها. ظلت لفترة قصيرة تنتفض باكية. ثم خف بكاؤها حتى صار نشيجاً. لم أكن أعرف ماذا أقول لتهوين الصدمة. كان مشهداً مؤلماً، ولم يزدنى منظر شعرها، متكدساً أمامها فوق الطاولة، إلا مقتاً لهذا الرجل الذى صنع لى ولها هذا الموقف. قلت لها أن رجلاً تافهاً مثله لا يستحق أن تبكى بسببه. ولابد أن نهتدى إلى طريقة لتأديبه. لقد اشتبكت في عراك معه. بصقت في وجهه وتركته ذليلاً مهاناً. رفعت سناء وجهها الذى لم يكن وجهاً، وإنما قطعة من شفق أحمر. بللته الدموع، واكتساه تعبير حزين، وعادت إليه الدماء أكثر وفرة وتدفقاً. أخرجت من حقيبة يدها منديلاً

ورقياً تمسح به الدموع. احتفظت به في يدها وهى تقبض عليه بتشنج وعصبية. إنها تقاوم الآن ضعفها، وتحاول أن تحتويه بين أصابعها كما تحتوى الورقة المبللة بالدمع. نهضت واقفة وهى ترفع رأسها وتمرر أصابعها بخصلات الشعر التى تناثرت، تعيد إليها ترتيبها. أغمضت عينيها وتنفست بعمق كأنها تريد أن تسحب في شهقة واحدة كل ما يملأ الغرفة من هواء.

- شكراً على أية حال.

كان وجهها وهى تقول جملتها، مازالت تغطيه السحب الحمراء. سألتها أن تنتظر ولكنها اندفعت باتجاه الباب. إنها غاضبة منى. لعلها اعتقدت أننى أصدق ما سمعته عنها. إننى لا أصدقه، وكل ما أردته هو أن نهتدى إلى طريقة نواجه بها الحملات السوداء التى تتغذى من لحمها. ذهبت سناء وتركت كلاماً كثيراً يختنق به حلقى.

لم أشأ أن أركض وراءها وأصنع في ساحة الجامعة مشهداً يتحدث به الناس. بقيت واقفاً وسط الغرفة المستطيلة التى تخيلتها قبراً يليق برجل عملاق من عصر الأساطير. وناقماً على نفسى صرت أتطلع إلى وجه الفتاة الذى يغمر

نصفه الظلام. انتشر الظلام يأكل الضوء حتى صار وجه الفتاة كتلة من الظلام. وحانقاً ذهبت إلى سيارتى أحاول إخراجها من بين السيارات التى تحاصرها. اصطدمت بسيارة تقف أمامى. تهشم زجاج المصابيح وتساقط فوق الأرض. أحسست بنشوة غريبة وأنا أرى القطع الحمراء تلمع فوق الأسفلت الأسود المضىء. عدت مسرعاً إلى البيت. افتعلت شجاراً مع فاطمة. بلا سبب ودون مقدمات قلت لها إننى لا أطيق الحياة في هذا البيت. كانت دفقة من الشجاعة لا أدرى كيف وأتتنى. خرجت أطوف بسيارتى شوارع المدينة الفارغة التى تتوهج تحت شمس الظهيرة. أوقفت سيارتى فوق الهضبة التى تطل منها المدينة القديمة على البحر. أحسست بتآلف غريب مع قسوة الشمس. وقفت لحظة أرقب البحر. كان البحر متاهة زرقاء. رقعة لا متناهية من الحزن الأزرق. والبواخر جاثمة وسط الميناء كأنها خيام قبيلة قتل أهلها الطاعون. لا حياة حولها ولا حركة. أدرت ظهرى إلى البحر. وسلكت زقاقاً خالياً مهجوراً يقود إلى ضريح الشيخ الصادق أبى الخيرات.

من كوة صغيرة في أعلى الجدار، كان يأتى بصيص من النور، يضىء عتمة الغرفة ويحيلها إلى رقائق من ضباب شفاف. ومن مجمرة صغيرة كان يتصاعد دخان البخور بأريجه العذب. رأيت وجه الشيخ من خلف الأبخرة، بعيدا وحنوناً، يحمل سيماء رجل جاء من عالم أكثر بهجة من هذا العالم. وبصوت أثقله اليأس قلت له:

- إننى حزين أيها الشيخ القادم من خلف ضباب الزمان.

- الحزن قدر الإنسان في هذه الدنيا الفانية.

ولكن حزنى هذا المساء ينتمى إلى عالمنا لا إلى عوالم ما وراء الغيب. صنعته أحداث دنيوية طالما أشقت الأبرياء بتقلباتها. قلت بذات الصوت الذى أوهنه الانكسار:

- ما أكثر الناس السعداء.

- لا يسعد في هذه الدار إلا الغافلون.

- إننى ناقم على نفسى.

- النقمة على النفس طريق الإنسان إلى الهداية.

إنها نقمة لا تقود إلا إلى مزيد من الضياع. وأنا تائه لا أعرف الطريق، ولا أدرى متى يتحقق لروحى الخلاص.

الشجرة التى فقدت أوراقها، تعرف دائماً أن ربيعاً سوف يأتى، يكسيها بالأوراق والبراعم والزهور. الحقول الظامئة إلى الماء، تدرك أن للغيث مواسمه التى تأتى لتمنحها الخصوبة والارتواء. الطيور التى يسكتها الليل عن الإنشاد، تعرف أن فجراً سوف يأتى، يملأ حناجرها بالغناء. ولكن قلبى مثقل بكآبة لا تنتهى. ظامئ إلى حب لا يجد إليه سبيلاً. والشمعة الوحيدة التى أبهجه سناؤها، جاءت الأفواه تحاصرها وتصنع بأنفاسها عاصفة تطفئ نورها.

- إننى مريض أيها الشيخ القادم من خارج هذا الزمان، مريض بمرض لا اسم له.

جلست جاثياً أمام القبر. والغرفة عامرة بأطياف خفية أحس بها تحف بى وتملأ من حولى المكان. توقعت أن أسمع صوتاً يسألنى أن أغمض عينى لأرى. وما أن تلوح قباب تلك المدينة حتى يسألنى أن أرحل إليها. ولكن صرير الباب، وحفيف ثوب يجتاز العتبة، أخرجانى من حالة الاستغراق. أدرت رأسى فرأيت امرأة ترتدى لحافاً شعبياً، وتقف قريباً من الباب تنتظر أن تألف عيناها عتمة المكان. لم تجفل أو تتراجع عندما التقت نظراتى بنظراتها. ألقت السلام وذهبت

إلى الجهة المقابلة من الضريح تشعل عود ثقاب وتضىء به شمعة. وضعت الشمعة فوق رخام القبر وجلست تتمتم بالأدعية، وترفع اللفائف عن وجه الطفل. توهج لهب الشمعة، ينثر نوراً يمتزج بالعتمة ويضيع فيها. كانت المرأة تضع يدها فوق رخام القبر ثم ترفعها وتمسح بها وجه الطفل الذى يضيئه الوهج. بدا لى كوجه المسيح في لوحات الرسامين الذين صوروه ينام وادعاً في حضن أمه. أيقظ المشهد في ذهنى حنيناً إلى طفلى الذى لم يعد طفلى، لأنه لا يحمل اسمى ولا يعرف له والداً غير والده الوهمى. لابد أنه صار قادراً على المشى والكلام. وانتسب إلى روضة أطفال تعلمه أناشيد الولاء لتلك البلاد. مقطوع الصلة بأى نسب يربطه بى، أو بخط الأسلاف من أهلى الذين أورثوه شيئاً من ضيائهم وظلالهم.

تركت الأم وطفلها بصحبة الشيخ النائم في ضريحه. وخرجت إلى ضوء الشارع. رأيت أنقاض الحجارة تسد مداخل بيتنا القديم، فأدرت ظهرى له، وأسرعت الخطى، خشية أن تهاجمنى الأشباح التى تسكنه. أحسست وأنا أعود إلى سيارتى أننى تحررت من تلك الكآبة القاسية. حل مكانها

حزن خفيف الوطأة، لا يثير فزعى. فقد تآلفت معه وعاشرته طويلاً في الرحلات التى يشرد فيها ذهنى، كما شرد منذ لحظات في حوار مع الشيخ الصادق، متأملاً صيرورة الحياة ودورة الزمن ومصير المخلوقات الفانية.

تساءلت وأنا أدخل البيت وأرى فاطمة وهى تشيح بوجهها عنى، مضربة عن الحديث معى:

- لماذا تزوجت امرأة عقيمة؟

لعلها كانت ستخصب مع رجل آخر، لا يمكن لامرأة مثلها، وهبتها الطبيعة كل هذه الخصال، أن تكون عاطلة عن الإنجاب. إن العقم الذى أدعيه إنما هو عقم حقيقى أصاب روحى قبل أن يصيب الماء اللازج الذى يفرزه الجسد. حتى شهيتى لممارسة الجنس معها، انطفأت منذ أن رأيت سناء وأدركت أنها الجزء الضائع منى.

وجدت وأنا أدخل القسم في الصباح التالى، بلاغاً من عميد الكلية يطالبنى بالحضور إلى مكتبه. كان العميد مدرساً حديث التعيين، جاء إلى هذا المنصب مع المجلس الجديد الذى استلم مسؤولية الجامعة منذ أسابيع قليلة. لم أكن أعرفه، ولم ألتق به من قبل. ما أن دخلت مكتبه حتى وجدت الأستاذ

شعبان قد سبقنى مصطحباً معه محمود كشاهد لما حدث. بادرنى العميد قائلاً:

- تعلم أن ما فعلته كان شيئاً لا يتفق مع مكانة أستاذ في الجامعة.

- لم يكن ما فعلته إلا رداً على فعل أكثر فظاعة وقبحاً.

- هل أساء إليك الأستاذ شعبان بكلمة واحدة؟

- لم يسئ لى شخصياً.

- لعله انتقد طالبة لم يعجبه سلوكها، فما الذى أثار غضبك؟

أدركت أن هناك فخاً ينصبونه لى. تركت الفخ مفتوحاً، وقفزت فوقه قائلاً:

- لست معنياً بأمر أحد سوى الجامعة. كان كلامه إساءة للجامعة، وتحقيراً لكل من ينتسب إليها.

- ما الذى تعنيه؟

- إنه يقول بأن الجامعة أسلمت مقاليدها لأكثر العناصر فساداً في المجتمع، ممن يمارسون عليها نفوذاً من خارجها. يعيدون المطرودين، ويقومون بإنجاح الساقطين،

ويتولون تعيين الفاشلين والمنحرفين أساتذة بها. ويمارسون الدعارة مع العاملات والدارسات بها. فهل يرضيك مثل هذا الكلام؟ هل أصبحنا جميعاً أعضاء في شبكة للدعارة السرية ونحن لا ندرى؟

انتفض الأستاذ شعبان قائلاً من خلال موجة السعال التى هاجمته:

- إنه تحريف واضح لكلامى. وما قلته عن الفتاة لا يحتاج إلا إلى فتح الملفات القديمة، لتعرفوا صدق ما أقول.

ظل محمود صامتاً، ينقل بصره بينى وبين الأستاذ شعبان، الذى مضى هائجاً يطالبه بأن يعيد ما سمعه من حوار بيننا. تدخل العميد لحسم الصراع.

- انتهى زمن العبث بتقاليد الجامعة، ولن يسمح المجلس الجديد لأى إنسان من خارج الجامعة مهما كان شأنه أن يتدخل في أمورها، وسيطرد أى عنصر يثبت انحرافه، طرداً نهائياً منها.

ثم أضاف بلهجة أكثر هدوءاً:

- تقدم الأستاذ شعبان بشكوى إلى الإدارة يطالب فيها بتقديمك إلى المحاكمة التأديبية. وكنت أحاول مع الدكتور

محمود إقناعه بالعدول عنها، والاكتفاء هذه المرة بقبول اعتذارك الواضح عن هذه الإساءة.

ولكن الأستاذ شعبان لم يكن راضياً. إنه يطالب بمحاكمتى ومحاكمة الفتاة التى لم يقل عنها شيئاً يخالف الحقيقة. فهى أول من يجب أن يطرد من الجامعة، تصحيحاً للمسار، وتطهيراً للجامعة من المنحرفين. رد العميد بأنه لا يمكن لأحد أن يطرد معيدة بالجامعة ما لم يتوفر الدليل الذى يدينها. وبادرنى محمود قائلاً:

- هيا قم صافح الأستاذ واطلب منه العفو.

ترددت قليلاً. فقد رأيته منذ لحظات يغطى فمه بكلتا يديه عندما يسعل. ولاشك أن الجراثيم قد انتقلت إلى اليد التى سأصافحها. لكزنى محمود بمرفقه لكى أسرع قبل أن يتراجع الرجل عن قبول المصالحة. مددت له يدى متأسفاً. ثم مسحت بمنديل الورق ما علق بيدى من جراثيم لا تراها العين. قال العميد وهو يقف مودعاً:

- أرجو أن ينتهى الأمر عند هذا الحد.

خرجت من مكتبه مدركاً أن الأمر لن ينتهى عند ذلك الحد. وأن الدليل القاطع الذى تريده الجامعة لإدانة سناء،

سوف يكون منذ اليوم المهمة الأولى التى يكرس لها الأستاذ شعبان جهده ووقته. رجل اشتغل بالمحاكم وعاشر الدجالين والمزورين واللصوص، وسوف لن يعدم وسيلة يزور بها حادثة ضدها، حتى يراها مطرودة من الجامعة. كنت أتساءل وأنا أراه يتحدث عنها هائجاً، يطالب بطردها، من أين تستمد هذه النفوس قدرتها على ممارسة الشر؟ هذا الشر المجانى الذى لا ينتظر صاحبه نفعاً من ورائه. شر لمجرد الشر. وصلاة لإله وثنى. من آلهة الظلام، يقوم بها ناسك في محرابه، وسادن من سدنته.

قال محمود عندما جاء إلى زيارة بيتنا في المساء، مصطحباً أسرته معه:

- هل صحيح ما يقوله الرجل عن علاقتك بهذه المرأة.

كنا نجلس في غرفة مكتبى، التى أقفلنا بابها واحتمينا بها من صخب أطفال ونساء يأتون إلى بيتنا من بيوت الجيران، كلما زارتنا أسرة من أقاربنا.

- أرجو ألا تكون قد نقلت لزوجتك شيئاً من ذلك الحديث.

- إننى أكثر عقلاً من أن أفعل ذلك.

- تعرف أنه رجل لا يقول إلا الأكاذيب.

ارتشف جرعة من طاسة الشاى، ووضع في فمه قطعة من الكعك. وقال بصوت اختلط بصوت ما يمضغه:

- على كل حال فهى امرأة تستحق أن يدخل الرجل المعارك من أجل عينيها.

- ما هذا الذى تقوله؟

- أقول إنها فعلاً امرأة لا مثيل لجمالها.

- وكيف عرفت ذلك وأنت لم ترها؟

- كنت بالصدفة أزور زميلاً في كلية الصيدلة، وما أن رأيتها هناك حتى أدركت أنه لا حورية فوق الأرض غيرها.

قلت غاضباً:

- إذن فقد ذهبت تفتش عن أسرار هذه العلاقة التى سمعت رجلاً أحمق يتحدث عنها.

- اهدأ وسأعترف لك بكل شىء. لنقل أن ذهابى إلى كلية الصيدلة لم يكن صدفة. فقد سعيت بدافع الفضول إلى رؤيتها. ذهبت إلى زميل يعمل رئيساً لقسم المختبرات، والتقيت بها في مكتبه. وما أن رأيت جمالها حتى التمست لك العذر.

- ليس هذا كل شىء.

- لنقل أننى أردت أن أحمى بيتاً ساعدت في إنشائه.

- عن أى بيت تتكلم؟ أنت لم تذهب إلى هناك إلا بقصد أن تبعدها عنى. أليس هذا ما حدث؟

- تعرف أن الكلام الذى قاله الرجل كان كلاماً قاسياً. أدركت معه أن خطراً يتهدد حياتك البيتية والعملية معاً. فهل كنت تريدنى أن أقف مكتوف الأيدى ؟. إنه يقول إن العلاقة نشأت بينكما أثناء الرحلة إلى قورينا. وإن جميع الذين ذهبوا معك يتحدثون عن كيف كنتما تترافقان طوال الرحلة، وتغيبان عنهم وسط الغابة نهاراً كاملاً، وتختليان ببعضكما بين أطلال المعابد القديمة. ولا حاجة بى لأذكر لك ما استنتجه الأستاذ شعبان من ذلك. وما يمكن أن يكتبه في تقاريره. فهو رجل لا يخفي صلته بالأجهزة الأمنية.

- ما هذا؟ هل كنا نتحرك تحت رصد العدسات السرية؟ اتحداهم أن يجدوا في هذه النزهة شيئاً يخرج عن الأدب واللياقة.

- يحملك الأستاذ شعبان مسؤولية الحفل الماجن الذى أقمته لأعضاء الرحلة عندما حولت الغابة إلى ملهى ليلى من

أجل أن تجد فرصة لمراقصة ومعانقة تلك المرأة. أسمح لى بأن أقول لك. أنك كنت غائباً عن المجتمع وبقيت غائباً عنه، حتى بعد أن عدت. ولم أفعل ما فعلت إلا لكى أحاصر الحريق الذى ينشب في ملابسك وأنت غافل عنه.

قلت وأنا أحاول أن أتمالك أعصابى:

- هل يمكن أن أعرف ما الذى قلته لها؟

- جاء اسمك عرضاً أثناء الكلام فأثنى الزميل عليك وسألنى عن صحتك فقلت له انه تعافي من أمراضه، وإنه ينعم بحياة هانئة بفضل الرعاية التى توفرها له زوجته.

قلت مستنكراً، ومسكوناً بغضب لم أعد أعرف كيف أسيطر عليه:

- وكان ذلك في حضور سناء.

- نعم.

- قلت لها بأننى رجل مجنون لكى تنفرها منى.

- لم أقل لها ذلك.

- وإننى رجل له زوجة تحبه وتحملت التضحيات من أجله فابعدى عن طريقها وطريقه.

- لماذا تصر على تحريف أقوالى. إننى محمود، ولست الأستاذ شعبان.

- وما الفرق بينكما. كلاكما يريد إفساد العلاقة الوحيدة المبهجة وسط كل هذا الخراب.

- كنت تنكر منذ دقائق وجود علاقة بينكما.

- إنك لست هنا لتحاكمنى.

- لست إلا صديقاً يريد لك الخير.

- وهذا أيضاً ما يقوله صاحبك شعبان.

- لعله يعنى ما يقول.

- تماماً بمثل ما تعنيه أنت.

أمضيت أياماً كثيرة بعد ذلك انتظرها. أذهب إلى الجامعة وأجلس قبل بدء المحاضرات وبعد انتهائها في غرفة المدرسين أتوقع في كل لحظة أن تأتى وتزيل بظهورها هذا الكدر الذى يلازمنى. ولكن سناء لا تأتى. وأنا لا أجد شيئاً آخر أفعله سوى الانتظار والاحتراق. أتعذب في صمت وأبحث عن تفسير لهذا المنطق العبثى الذى تسير به الحياة عندما تجعل إلهاً مجنوناً من آلهة الأولمب، يضع في طريقى امرأة كنت أراها في الأحلام، يصنع لها وجوداً حقيقياً

ويزرع في قلبى شوقاً باتساع الأفق لرؤية عينيها. ثم يقف في قبته العالية ساخراً، ضاحكاً، يرمى الأشواك في طريقى كى لا أصل إليها، وما أن أتخطى الأشواك حتى ينشئ أخدوداً يشق به الأرض بيننا. وأتساءل لماذا إذن أرسلها من عالم الحلم إلى هذا العالم، ولماذا أنشأ لها في قلبى كل هذا الحب ثم تفنن في تعذيبى؟ إنه العبث أولاً وأخيراً.

تأتى أو لا تأتى. لعلها لن تأتى. ليتنى أستطيع أن أنساها. أن أنشغل بأى شىء آخر يشغلنى عن الانشغال الدائم بها. ولكن كل شىء آخر صار باهتاً، شاحباً، فقد لونه ومذاقه ورائحته. كل شىء أضحى لا معنى له. الأبحاث والمدرجات والكتب. غابت سناء فجاء الفراغ الموحش يفترسنى ويسلمنى لمخاوف المرض الذى سوف يأتى.

لابد أن تظهر سناء. فلا شىء يملأ ذهنى إلا صورتها، ولا اسم يتردد على لسانى ويخفق به صدرى إلا اسمها. أريد في كل لحظة أن أخرج إلى الساحات هاتفاً بهذا الاسم ثم امنع نفسى. إننى لا أخشى كلام أحد ولا أخافه، ولكننى أعرف أن الأستاذ شعبان يبحث الآن عن بذرة يصنع منها الغابة التى سيتحرك بها ضدنا. ولعله اهتدى إلى تهمة يلفقها لسناء، فهو

يطالب هذه الأيام بإعادة فتح التحقيق حول علبة أعشاب مخدرة، اختفت منذ عام مضى من كلية الصيدلة، وأدين أحد العمال بسرقتها.

واخيراً ظهرت سناء.

كنت في تلك اللحظة أتبادل الحديث مع عدد من أساتذة القسم الذين جاءوا يزحمون هذه الغرفة. ذهب الطلاب للمشاركة في اجتماع طلابى وظل الأساتذة يتأبطون حافظات الأوراق وينتظرون الطلاب. وبرغم ما أحسست به من حرج وهى تفاجئنى بالمجىء إلى غرفة اجتمع بها كل هؤلاء الناس، فقد وثبت فرحاً لاستقبالها. لكن سناء تركتنى واقفاً عند الباب، واتجهت مباشرة إلى حيث كان يجلس الأستاذ شعبان. لعلها جاءت غاضبة لكى تصفعه، وتهينه أمام كل هؤلاء الأساتذة، جزاء ما يسوقه من إشاعات عنها. ولكنها بدلاً من ذلك، مدت له يدها تصافحه، وتبتسم له. كنت منذ لقائنا في مكتب العميد لا أتبادل معه الكلام. أدهشنى أن أراها تقبل دعوته للجلوس بمحاذاته، وأنها ما جاءت هذا اليوم إلا لملاقاته. ثم أوضحت لهؤلاء الأساتذة الذين كانوا شهوداً على ما حدث، سبب هذه الزيارة، قائلة:

- إننى أتعاون مع الأستاذ شعبان في ترجمة كتاب أصدرته منظمة الصحة العالمية عن القواعد الدولية الواجب اتباعها في تحضير الأدوية. إن بالكتاب جانباً قانونياً لا أقدر على فهم مصطلحاته، ولا أعرف أحداً في الجامعة أكثر قدرة من الأستاذ شعبان على ترجمته.

ما الذى حدث في الدنيا. وإذا كانت الكرة الأرضية حقاً تدور، فلماذا لم أشعر بدورانها إلا هذه اللحظة. لا أدرى إذا كان أحد الحاضرين قد انتبه إلى ما أصابنى من دوار. استندت بيدى على الطاولة حتى وصلت إلى مقعدى. كانت أنفاسى تخرج لاهثة، والعرق يتفصد من جبينى. تناولت ورقة أختبئ خلفها، وعندما صارت ترتعش في يدى، استبدلتها بقاموس أقل ارتعاشاً، أخفيت به وجهى. كنت مستعداً أن أتصور أى شىء آخر إلا أن أرى سناء تختار هذا الرجل من بين كل الرجال في الدنيا، لتمنحه صحبتها، وتأتى له بكتاب يترجمه معها، ويكون غطاء علمياً لعلاقة تنشئها معه. ما الذى يرغمها على ذلك؟ هل ثمة ما يعجبها في رجل تجاوز سن الكهولة وتدحرجت بطنه منطاداً مملوءاً بالهواء أمامه. ينضح سفالة وحقداً ضدها. هرب الحب من قلبه، وملأ

السعال صدره، فصار منبوذاً من كل الناس. أهكذا تكافئ سناء الرجل الذى لم يترك تهمة رخيصة في الدنيا إلا وألصقها بها. هل تراها أدركت أن الرجل خطر يهدد حياتها. فلم تجد وسيلة أخرى تتقى بها الخطر سوى أن تسترضيه وتهادنه. لعل ما قاله لم يكن إشاعات وأكاذيب، وإنه اهتدى فعلاً إلى أسرار البيت المشبوه الذى تنتمى إليه، وأوجد دليلاً جديداً في قضية المخدرات التى اختفت من كليتها، وجاء مسلحاً بعلاقاته الأمنية، ومستخدماً هذه المعلومات لابتزازها، يطالب مثل تاجر البندقية برطل من لحمها. وخوفاً من المحاكمة والفضيحة، لم تجد خيراً من أن تعطيه حصة من لحمها الذى صار مباحاً لكل طير. كنت أريد أن أهرب من هذا المشهد الكابوسى، ولكننى أرغمت نفسى على البقاء قليلاً، وأنا أستمع إليهما يتحدثان عن أنسب الأماكن للقاء، حيث يمكن أن يتوفر لهما الهدوء والاختلاء ببعضهما لإنجاز الترجمة. هكذا ودونما حرج أعطاهما هذا الكتاب الوهمى، ذريعة لضرب المواعيد والاتفاق على الأماكن الخالية للقاء، على مشهد ومسمع من حراس العفة والفضيلة.

لم أطق صبراً فخرجت. هذه امرأة يجب أن تعافها نفسى. يجب أن أحارب هذه العاطفة التى أحملها لها، وأقتلها في قلبى. ها قد تبينت الآن، وبما لا يقبل الشك، سقوط هذه المرأة التى أوقدت لها ناراً، وصنعت منها آلهة لكل شىء مضىء في الحياة. ها قد أظلم الكون، وتبدد الوهج الذى أضفي على ملامح هذه المرأة بهاء الكائنات التى تنتمى إلى عالم الإشراق والتجليات. وعادت سناء إلى عناصرها الأولى كإحدى المخلوقات الفانية، المصنوعة من طين وتراب وماء مهين. وأسرعت تعلن انتماءها إلى العالم السفلى. عالم الأستاذ شعبان، الملوث بالسقوط البشرى. كنت للحظات قليلة مضت أحسب أننى أعرف هذه المرأة، أكثر مما أعرف نفسى. حتى إذا كانت جذور هذه المعرفة تمتد في زمن الحلم، فإن الحلم أكثر صدقاً من الواقع، وأكثر شفافية وكشفاً. فوق أرضه تسقط الأقنعة وتختفي السياجات التى نقيمها حول أنفسنا ولا يبقى إلا جوهرنا الحقيقى. ولذلك فإن سناء التى عرفتها في الحلم لم تكن مجرد صورة خادعة لامرأة الواقع. وعندما التقيت بها بعد ذلك، لم أحبها لأنها تحمل وجهاً يشبه ملامح تلك المرأة، وإنما أحببتها لأننى كنت أعرفها وأعرف

أن هذا الجمال ليس إلا مرآة لجمال روحها، وأن كل همسة، أو اختلاجة، أو رمشة عين، إنما هى إشارات تنبئ بثراء عوالمها الداخلية. أحببتها لأننى كنت أعرف من هى سناء، ذاتاً وموضوعاً، مظهراً وجوهراً، سناء الرؤيا مسكوبة في سناء الواقع. إذ كيف يأتى الحب، ومن أين يأتى ويغمر طبقات الوعى واللاوعى، إن لم يكن هذه القدرة على استكناه عوالم الإنسان الذى نحبه، ونحمله كالروح التى تدور مع النسغ فتمنح الأغصان خضرتها، وتدور مع الشمس فتمنح الكون ضياءه، وتدور مع الدم فيتأجج المحبوب لظى في العروق، ويمتزج كيانه بكياننا، ويذوب فيه، ويصير جزءاً منه. كيف خذلتنى حواسى، كل هذا الخذلان؟ كيف تصورت أننى تجاوزت في علاقتى بها العتبات التى تفصل بين الأنا والآخر، وحققت معها هذا التلاحم الذى لا يتحقق إلا لاثنين أحبهما ا ، وحباهما بكل هذا الخير. هل كان ذلك كله باطلاً من أباطيل الدنيا؟ إنه لم يكن باطلاً. لأنه وسط هذه الأعرام من القبح والأكاذيب كان حبى لسناء هو الشيء الوحيد الصادق والحقيقى. ليس هناك إلا تفسيراً واحداً، وهو إننى عندما التقيت بها فوق مشارف الجبل الأخضر، لم تكن سناء

قد سقطت بعد. كانت ما تزال تحتفظ بنقائها. ولكن بيئة من حولها. بيئة لا تستطيع أن تهرب منها. أو تتنفس هواء غير هوائها، أو تأكل من صحاف غير صحافها. بيئة قاسية تشبه مستوطنة للجراثيم والمستنقعات والحشرات الزاحفة، هى التى تسللت بهوائها الملوث إلى روحها، وحققت انتصارها عليها. لابد إنها قاومت طويلاً من أجل الاحتفاظ بالسماء والنجوم والحقول التى تسكن عينيها، ولكنها أخيراً ومع شدة الحملة التى يقودها الأستاذ شعبان مستخدماً مثل ملك الكهوف حشراته الخسيسة ضدها، هزمت سناء. وجاء سقوطها مثل سقوط إنسان من أحد الأبراج العالية، مؤلماً وفاجعاً.

وجدت طريقاً رئيسياً فقدت السيارة بأقصى ما يتيحه محركها من سرعة. تفر الأشياء هاربة إلى الخلف. الناس والأشجار والأبنية، المثل والعواطف والنواميس التى تحكم الكون، حطام الذكريات وأطياف البشر الذين عرفتهم، الأحداث والأحلام والكوابيس والأعوام التى مضت من العمر. كل شىء يفر هارباً، متراجعاً إلى الوراء، تاركاً في نفسى فراغاً باتساع الفضاء الذى يغلف الكون. أحس معه. وكأن الأسباب التى تصل بينى وبين كائنات هذا العالم

وأشيائه الأخرى، قد تقطعت. جميعها تمزقت ولم أعد أستطيع أن أهتدى إلى سبب واحد يمكن أن يجدد صلتى بهذا الواقع الذى يشبه حلقات الجحيم السفلى. فمدينة الحلم لم تكن إلا هذياناً، وسناء لم تكن إلا خداعاً وسقوطاً. وبأصابع تشنجت على عجلة القيادة، وقدم تضغط على الوقود بأقصى قوتها، قدت السيارة. كنت أريد أن أحقق تجانساً بين سرعتها وبين قوة الدماء التى تندفع في الرأس. لم أعبأ بالسيارة الأخرى التى تلاحقنى. تشعل أضواءها، وتطلق بوقها خلفي. ولم أنتبه إلى أننى كنت أتسابق مع سيارة الشرطة إلا عندما أفلح الشرطى في محاذاتى بسيارته وأخرج ذراعه يطلب منى الوقوف. فتشت عن عذر أقوله له وأبرر به هذه السرعة التى حطمت قوانين المرور، فلم أجد. اكتشفت وأنا أبحث للشرطى عن رخصة القيادة، أننى أصبحت فجأة مريضاً. عاد الدوار إلى رأسى، وتفصد العرق غزيراً من جبينى، وصار بدنى كله يختلج اختلاجة الحمى، والشرطى الذى أراد مصادرة الرخصة، أعادها لى بعد أن رأى حالتى، وهو يتساءل مندهشاً كيف أمكننى أن أقود السيارة وأنا على هذه الحالة، ويقترح أن أترك السيارة حيث هى لكى يأخذنى إلى

المستشفي. كنت كمثل إنسان أصابته رصاصة أثناء إحدى المطاردات؛ وناجياً بعمره نسى الجرح وواصل ركضه. حتى إذا ما توقف قليلاً اكتشف الرصاصة التى اخترقت قلبه، وسقط في مكانه. هكذا كان إحساسى وأنا أحاول أن أقود السيارة مرة أخرى، عائداً إلى البيت. مؤكداً للشرطى أنها حالة طارئة سرعان ما تختفي. انتظرت قليلاً كى أستعيد أنفاسى الهاربة. ومنهكاً، مريضاً، اتكأت على عجلة القيادة. كانت السيارة تمضى ببطء شديد، ومن خلفها سيارة الشرطة.

مر أسبوع وأنا ملازم الفراش. جاء الطبيب وجاءت الأدوية. اعتدلت درجة الحرارة، وغادرنى الكابوس الذى ظل كل ليلة يجثم على صدرى. كنت أرى نفسى خلاله، أقود سيارة تعطلت فراملها، تهبط بسرعة طريقاً جبلياً. يجتاحنى الرعب وأنا أرى الهوة المظلمة التى تتجه إليها السيارة. أصحو وأقوم من نومى مذعوراً، أبحث عن ماء أبلل به حلقى. توقف الحلم وانتهت الحمى واستعدت عافيتى. ولكننى مع ذلك بقيت ملازماً السرير. لأمر ما أحسست بأنه ما أن أغادره حتى يعاودنى المرض. كنت احتمى به من غدر العالم الخارجى. لقد ظل حنين العودة إلى رحم الأم الذى نحمله في

طبقات عقلنا الباطن، موضوعاً مغرياً لدارسى علم النفس، ولكننى لأول مرة أحس بهذا الحنين ينتقل من عقلى الباطن إلى عقلى الواعى. وأرى أن تشبثى بالسرير معادلاً رمزياً لهذه الرغبة. فما الذى ينتظرنى خارج هذا السرير غير الخواء والفراغ. حتى إذا كان البقاء في السرير خواء وفراغاً، فهو أكثر أمناً، وأقل وطأة وثقلاً من فراغ الحياة بالخارج. هكذا كنت أخاطب نفسى، باحثاً عن تبرير لهذه الرغبة. ليكن عجزاً عن مواجهة العالم. أو موقفاً لا أعرف موقفاً غيره، أعبر به عن احتجاجى عما يحدث في الدنيا. إننى هنا في مأمن من أن أرى الوجوه التى يصيبنى منظرها بالدوار. الوجه الوحيد الذى يصاحبنى في هذا المخبأ هو وجه فاطمة. وجه تآلفت معه، وتعودت على رؤيته مطروحاً فوق الوسادة بجوار وجهى، غارقاً في النوم. فالنوم يأتى سريعاً إلى فاطمة. كأن في كيمياء بدنها حبوباً منومة لا تحتاج معها إلى انتظار أو قلق أو تقلب في السرير لكى تنام. ما أن تضع رأسها فوق الوسادة حتى تدخل في نوم ثقيل كأنه الموت. وما أن تنام حتى تفر الدماء من وجهها، ويصبح الوجه قطعة من القماش الأصفر، وتظل العينان نصف مغمضتين وقد غاب

الجزء الحى منهما، فلم يبق إلا البياض. ويأخذ الفم شكلاً منحرفاً، ويغطى سحنتها شحوب الموت. أتساءل بينى وبين نفسى إن كان هذا ما يحدث أثناء النوم لكل الناس. ولكننى عاشرت بعض النساء وشاركتهن النوم في فراش واحد، وكان النظر إليهن وهن نائمات قراءة في كتاب الفتنة التى لعن الأنبياء من يوقظها. فلماذا يختلف نوم فاطمة عن بقية النساء؟ ولماذا تطرأ على وجهها كل هذه التحولات ؟. كنت أظن أن ذلك يحدث لأنها ترى أحلاماً مزعجة أثناء النوم. وعندما سألتها إن كانت ترى تلك الأحلام، أجابت باستنكار أنها لا ترى أحلاماً كالأحلام التى أتحدث عنها، لأنها منذ سنوات طويلة لاتتذكر أنها شاهدت في نومها حلماً. لعل نومها الذى خلا من الأحلام هو الذى يمنحها هذه الصورة. صرت أتجنب النظر إلى وجهها وهى نائمة. أدير وجهى عنها أغلب الأحيان. وإذا أدرته نحوها أسرع وأسدل فوق وجهها الغطاء، متجهاً باللوم كله إلى ذلك الصانع الذى اخترع للزوجين سريراً كبيراً واحداً ينامان عليه. كأنه لا يكفي أن يأتى عبقرى قبله ويبتدع للإنسان أغلالاً اسمها الزواج، حتى يأتى هو ويضيف إلى الأغلال سريراً مزدوجاً يربط إليه

الزوجين، بحجة تسهيل اللقاء بينهما لحظة المعاشرة الجنسية. وكأن تلك اللحظة ليست إلا لحظة عابرة، سرعان ما تتحول إلى لحظة نادرة، بعد أن يتآخى اللحم ويطرد التكرار عناصر الرغبة والإثارة. لا أدرى ماذا سيكون رد فاطمة لو أفصحت لها عن رغبتى في أن أستقل بالنوم عنها. انتقل منذ الآن إلى غرفة أخرى، أو أتخذ سريراً فردياً لنومى. سوف تعتبر ذلك انفصالاً أو طلاقاً، بعد أن أصبح هذا السرير شرطاً لا يكتمل الزواج إلا به. لقد غادرتنى منذ مدة الرغبة في الاتصال الجنسى بها. ومع ذلك واصلت معاشرتها بشكل وظيفي، روتينى. على عجل ودون متعة حقيقية إلا المتعة التى تشبه الاستمناء. أما الآن وبعد عودتى مريضاً إلى البيت فقد تحولت هذه الرغبة الغائبة، إلى عجز كامل. اكتشفت ذلك عندما تعافيت وأردت الاتصال بها. حاولت مرة دون جدوى. ومدفوعاً بالرغبة في إرضائها كررت المحاولة ليلتين متتاليتين فلم أستطع. لم يكن ما أصابنى مرضاً أو عنة. كنت سليماً أستجيب للاستثارة وما أن أقترب منها ويلامس جسمى جسمها حتى تنطفئ الرغبة ويسكت اصطخاب الدم. لم أتبادل

كلمة واحدة معها، حول هذا الموضوع. تركته عند هذا الحد وتوقفت عن المحاولة.

الرجل الوحيد من بين زملاء العمل، الذى كان يزورنى هو محمود. ينقل لى نتفاً مما يدور في الوسط الجامعى، وما يحدث بين سناء وصديقها الجديد. وبرغم ما يحدثه ذلك من ضيق لى. فقد كنت متلهفاً لسماع أى خبر عنها. حتى لو كان موجعاً مثل هذه الأخبار التى يسوقها. كان يبدو متحرجاً من هذا الحديث، نادماً لأنه ارتكب خطأ في حقى عندما سعى للتفريق بينى وبينها، ليفوز بها هذا الرجل الذى لم يكن يهاجمها إلا نفاقاً وابتزازاً. وكنت ألح عليه بالسؤال حتى يتكلم. تطورت العلاقة بينهما، وصار أهل الجامعة لا يرونهما إلا معاً. يدخلان إلى الجامعة معاً، ويغادرانها معاً، ويبحثان عن غرفة خالية يجتمعان بها لترجمة الكتاب. لم أكن أظن أن الجامعة قادرة على أن تتيح كل هذه الحرية لرجل وامرأة من أوساطها، ولكن لأنها علاقة مشوهة، ذميمة، تقوم على التهديد والابتزاز، والتقاء المتناقضات، فإن الجميع يرحبون بها. إنها علاقة تنسجم وتتجانس مع كل مظاهر القبح الأخرى فلا يرى فيها الناس

نشازاً، أو خروجاً على مألوفهم. صار الأستاذ شعبان هو الذى ينقلها بسيارته إلى بيتها، ويأتى بها صباحاً إلى الجامعة. ويمشى بها مختالاً كأنه وضع السماء بكل نجومها في جيبه. وكان هذا الكلام الذى أسمعه من محمود، يزيدنى إحساساً بالفجيعة، ويقيناً بأن الثور الأسطورى الذى يحمل الكرة الأرضية فوق قرنيه قد شرب من نهر الجنون. وإن زمن إقامتى في السرير سوف يمتد بى إلى آخر العمر. كان عديلى يلح إلحاحاً شديداً، على ضرورة أن أعود إلى العمل بعد أن شفيت من مرضى، ويرى أن غيابى خلال هذه الأسابيع الحاسمة، التى تسبق الامتحانات ليس عدلاً في حق الطلاب. كيف يريدنى هذا الرجل أن أعود لأرى مشهداً كهذا المشهد؟ وعن أى عدل يتكلم؟ هل كان عدلاً ما حدث لى؟ وهل سقوط سناء كالذبابة في شباك رتيلاء كبيرة اسمها الأستاذ شعبان، هو العدل؟ ليرسب الطلاب جميعاً، ولتتقوض الجامعة على رؤوس من فيها، وليلحق الدمار مكتباتها ومدرجاتها ومعاملها. فذلك أكثر عدلاً من بقائها رمزاً كاذباً لتقدم الإنسان وتدرجه الحضارى.

ولا أدرى لماذا، برغم هذا الأسى وما أصابنى من عناء، بسبب سقوطها، ظلت عاطفتى نحو سناء، متوهجة، حارقة لا يلحقها التبدل، وظلت لهفتى لتسقّط أخبارها لا تزداد إلا قوة واشتعالاً. أردت بعزيمة صادقة أن أطردها من ذاكرتى، وأن أحرر جسدى وعقلى من هيمنة صوتها وصورتها، ولكن دون فائدة. ظلت هاجساً يسكننى ويعذبنى. طيفاً يطاردنى. ظلاً يتسكع في حدائق ليلى ونهارى. إننى برغم سقوطها أحبها. داعرة ملوثة بأصباغ الغدر والخيانة أحبها. امرأة منحت نفسها عطاء سمحاً لجراثيم الفسق والفساد أحبها، عارضة جسمها في أسواق اللحم البشرى أحبها. ليكن حبها مذلة ومهانة وسبباً لأمراضى وتشردى في الشوارع بلا عمل ولا رزق، أحبها. أبحث عن صكوك الغفران وأمنحها لها. أصدر حكماً ببراءتها وأضع اللوم كله على البيئة التى أفسدتها. فهى ليست إلا ضحية لا تستحق العقاب القاسى الذى يريده لها الرجل الآخر في نفسى، والذى يقف شاهراً سيفه مطالباً برأسها. لأنه يرى أن النتيجة واحدة في كلا الحالتين. وإذا كنت قد أحببت سناء التى تنتمى إلى زمن الحلم والبراءة، فإننى يجب أن أكره سناء الأخرى، سناء السقوط

والتلوث والأستاذ شعبان. يجب أن أعتصر جراحى وأنزفها دماً. أمرض بالحمى وأرشحها عرقاً. أبكى كبكاء النائحات في المآتم وأسكبها دمعاً حامضاً مراً. أنبذها وأعافها، وأوصد أبواب القلب في وجهها. ولكن قلبى احتفظ بإرادة مستقلة عن إرادتى، ورفض أن يكون سبورة أكتب فوقها ما أشاء، متى أشاء، وأمسح ما أريد، متى أريد. ظل يعمل بمعزل عن إرادتى، يواصل حبه، متناقضاً مع رغبتى الواعية. عميل مستقل. لا يعمل إلا لنفسه، ولا يبحر إلا تحت رايته، ولا يتلقى أوامره إلا من عزف أوتاره.

كانت قد مرت أيام كثيرة على احتجابى في البيت، لعلها عشرون يوماً، عندما جاء محمود يحمل أخباراً جديدة، قائلاً وهو يحاول أن يضفي على أخباره شيئاً من الإثارة:

- حزر ما الذى حدث في الجامعة؟

ما الذى يمكن أن يحدث أكثر مما حدث. لم تعد أخبار الجامعة تعنينى، أو أنتظر منها خيراً. وأحاديث فاطمة عن المقاصف تغرينى بأن أترك الحياة الجامعية وأفتح دكاناً لبيع الساندويتشات. قلت في لا مبالاة:

- ما الذى حدث؟ هل تحول كل الأساتذة إلى سناجب؟

- إننى أتحدث جاداً، وأنقل أخباراً سوف تبهجك.

- وهل تظننى أتحدث هازلاً. إننى فعلاً أستغرب كيف لا يتحول الناس إلى سناجب وقطط وفئران لكى ينسجم سلوكهم مع ذيولهم وأنوفهم وأنيابهم.

- سوف لن تصدق إذا عرفت أن الأستاذ شعبان قد فصل من الجامعة.

- إنك أنت الذى يتحدث هازلاً.

- إنها الحقيقة. فقد صدر اليوم قرار رئيس الجامعة بطرده من العمل

ماذا يقول هذا الرجل؟ إن الأستاذ شعبان هو الجامعة. هو وجهها الحقيقى الخالى من الطلاء وخداع الواجهات. فهل انقلبت الجامعة على نفسها، وأدارت ظهرها لتقاليد الرياء التى صار هذا الرجل تجسيداً عملياً لها ؟. هل تراه بالغ في تمثيل هذه الخصال والتقاليد حتى صار سلوكه يهدد الأسس المغشوشة التى تقوم عليها الجامعة فقررت أن تتخلص منه، وتستبدله بمندوب جديد أكثر قدرة على التمويه والخداع؟ إنه رجل عاش على الكذب والوشاية، وكتابة التقارير المغشوشة ضد الزملاء، فهل جاء اليوم من يطعمه من ذات الصحون

التى يقدمها للآخرين؟ لن أستغرب إذا كان هذا الطرد يتعلق بفضيحة جمعته مع سناء، فقد كنت شاهداً على تأسيسهما لهذه الشركة، التى أنشئت من أجل استثمار التلوث الذى ينتشر في الهواء، ولابد أن خطأ يشبه الخطأ الذى يحدث في معامل الأسلحة الجرثومية، ويصيب أصحابه قبل أن يصيب الآخرين هو الذى أدى إلى هذه النتيجة. ولكن ماذا بشأن سناء. إنه لا يذكر شيئاً عنها. فما الذى تراه حدث لها ؟.

- ولعلك لن تصدق أيضاً، أن سناء هى التى أرغمت الجامعة على طرده.

لم أستطع أن أستوعب المفارقة، فضحكت.

- لماذا؟ هل تخاصم الشركاء عند تقاسم الأرباح فتحولوا إلى أعداء ؟.

- هذا ما يسمونه بالإنجليزية سؤال المليون دولار.

اكتشفت بعد دهشة اللحظات الأولى، إنه لم يعد يعنينى أن يطرد الأستاذ شعبان أو لا يطرد. وسواء كانت سناء هى السبب أو لم تكن، فهى قد سقطت وانتهى الأمر، وخصامها معه، لن يعيدها نقية، بريئة، كما كانت.

- سأعفيك من هذا المبلغ تصفية للدين الذى لك عندى، يوم أن حاولت إبعادها عنك.

لم أقل له أنه يبالغ في تقدير ما حدث، لأنه حتى لو لم يحاول التفريق بيننا، فإن زمناً مدبوغ الجلد بكيمياء القبح والسقوط، كان سيأتى ويأخذها منى.

أضاف وهو يرى يداً تضع صحناً مليئاً بالكعك مع طاستى الشاى:

- نشرب الشاى أولاً.

سمعته يوجه الشكر لفاطمة على إحضارها الشاى، فاستغربت لأننى لم أنتبه لوجودها، ولم أرها عندما دخلت وعندما خرجت. تساءلت إن كان ذلك يعنى أن حضورها بالنسبة لى صار مساوياً لغيابها. أدركت أن شيئاً في نفسى صار يتعامل معها باعتبارها كائناً لا وجود له. جاء صوت محمود يعيدنى إلى الموضوع الذى أراد أن يدهشنى به، فلم يجد عندى سوى البرود. كان حماسه هو الذى جعلنى أنصت إليه وهو يسرد الأحداث التى أدت إلى طرد الأستاذ شعبان. بفتور استمعت إليه. ثم شيئاً فشيئاً صرت أنتبه إلى الحقائق الجديدة التى لم أكن أتوقعها. كان قرار الفصل مفاجأة أثارت

فضول محمود وشكوكه، فذهب إلى مكتب رئيس الجامعة يبحث عن السبب، مدركاً أن لسناء التى لم تكن تفارق الأستاذ، علاقة بهذا القرار، مدعياً أمام رئيس الجامعة أنه يعرف الدوافع التى أدت إليه.

- لم أكن أعرف شيئاً، ولكنى لم أشأ أن أترك له مجالاً للتكتم.

- ما أفلحك. ولماذا هذا العناء؟

- لم أفعل ذلك إلا خدمة لك.

لم يعبأ بضحكتى التى تسخر من أسلوبه في تقديم الخدمات، ومضى يشرح بذات الحماس كيف عرف أن سناء جاءت إليه منذ ثلاثة أسابيع تطالبه بإنصافها من هذا الرجل الذى صبرت على مطارداته منذ أن كانت طالبة. رفضت ملاحقاته وابتزازه فأسرف في ترويج الإشاعات التى تستهدف سمعتها وسمعة عائلتها. وذكرت لرئيس الجامعة كل ما يقوله عنها. وعندما سمعته يتحدث عن البراهين التى يحتاجها قبل أن يدين أستاذاً مثله، تركته غاضبة، قائلة بأنها ستأتى إليه بالدليل. ولم ينته الأسبوع الثالث حتى جاءت تحمل إليه جهاز تسجيل وتسأله أن يتفضل بالاستماع إليه.

لم أشأ أن أقاطع محمود وأنا أستمع إلى هذه التفاصيل التى لم اتكهن بها. جلست صامتاً. ألتقط كل كلمة يقولها. كان الشريط يحتوى على تسجيل لما حدث بين سناء والأستاذ شعبان في جلسة من جلسات العمل لترجمة الكتاب. حيث استغل الرجل وجوده مع سناء بغرفة خلف كواليس المسرح الجامعى. كان البناء المسرحى مهجوراً، وكان المسجل الذى أعدته وخبأته بدرج المكتب الذى يجلسان إليه، جاهزاً للتسجيل، وما أن ضمتهما الغرفة، حتى أبدى الأستاذ إعجابه بهذا المكان الآمن، الذى يتيح لهما فرصة الاستمتاع بحبهما بعيداً عن الرقباء. ويبدو من وقائع التسجيل أنه أحاطها بذراعيه محاولاً تقبيلها، لأنها سألته أن يرفع يده عنها وأن يحترم علاقة العمل التى تجمع بينهما. أغاظه امتناعها فصار يهددها بأنه سيتدبر مكيدة لتدمير حياتها إذا لم تستجب هذه المرة لرغباته، قائلاً بأنه انتظر طويلاً هذه الفرصة وصبر عليها كل هذه المدة، ولن يدع لها مجالاً للهروب. جاء يهاجمها فدفعته بقوة وهى ترميه بشتائمها. خرجت هاربة وما أن رأته يغادر المكان، حتى عادت لأخذ جهاز التسجيل الذى وضعته بعد ذلك فوق مكتب رئيس الجامعة. لم يكن بإمكان

الأستاذ شعبان أن ينكر فعلته. كان خائفاً من المحاكمة والسجن والفضيحة. استعطف واسترحم طالباً التستر عليه. وبدلاً من المحاكمة اكتفت الجامعة بإعفائه من عمله. وتم كل شىء بتكتم شديد لكى لا يصبح حديث الناس في الجامعة.

بانبهار تابعته وهو يروى القصة. أكملها فبقيت صامتاً. أنظر إليه وكأننى عاجز عن تصديق ما قاله. غير قادر على استيعابه دفعة واحدة. كانت كلماته تفتح أفقاً مغلقاً، وكانت سناء تشرق من جديد نجمة تضىء سماء القلب. كيف أستطيع أن أغفر لنفسى ما ارتكبته من إثم في حقها عندما تصورتها امرأة ساقطة ملوثة. إنه أنا الذى كان ضعيفاً وهشاً، قابلاً للعطب والانكسار، وليست سناء التى تجلت قوية، قادرة على مواجهة الغيلان التى تطلع من قلب الظلام. انتزعت نفسى من حالة الذهول. وقلت كلاماً أعبر به عن امتنانى لمحمود، وامتنانى لسناء، وامتنانى أيضاً للأستاذ شعبان الذى كان سبباً في إظهار معدنها النادر الذى ينتمى إلى أكثر عناصر الكون بهاء وشرفاً.

قال محمود مبتسماً:

- ما أن سمعت طالباً يسأل عنك، حتى قلت بأنك ستعود منذ الغد لإلقاء محاضراتك. فهل أخطأت فيما قلت؟

- أبداً. كأنك تقرأ الغيب.

- سألنى رئيس الجامعة أن أتولى ترجمة الكتاب الذى اعتذرت سناء عن إتمامه. شرحت له ارتباطاتى ورشحتك أنت.

- تعلم أننى لا أحب مثل هذا العمل.

- قلت له بأنك ستوافق. خاصة بعد أن أقنعنا سناء بأن تعينك فيما يخص المصطلحات الطبية. فلا تقل أننى لا أتنبأ بالغيب هذه المرة.

ظل صامتاً للحظة، ثم سألنى سؤالاً مفاجئاً، وكأن ضميره الذى ارتاح لأنه سعى لإصلاح ما ارتكبه من خطأ في حقى، قد استفزه لأن هذه العلاقة، إنما تنشأ على حساب علاقة أخرى لا تزال قائمة.

- ولكن ماذا بشأن فاطمة؟

صرت أنا أيضاً أقلب السؤال في ذهنى. ماذا بشأن فاطمة؟ سألت نفسى هذا السؤال كثيراً فيما مضى. وكنت أراه قضية محسومة. ولكن هل حقاً جاء الوقت الذى أضع

فيه فاطمة مقابل سناء. وكأن الطريق إلى سناء أصبح سالكاً. قررت أن أطرد هذه المشكلة من ذهنى. فهى لحظة للاحتفال وليست لحظة للتأسى. مرت دقيقة صمت قبل أن أقول:

- دعك من هذا الآن. إن زمناً طويلاً سوف يمضى قبل أن تحتاج إلى أن تسألنى مثل هذا السؤال.

لأمر ما لم يكن فرحى كاملاً وأنا أقود السيارة في الطريق إلى الجامعة بعد هذه الفترة من الغياب. كان المذياع يترنم بأغنية مرحة من أغانى الصباح. وكنت أحس بشىء من الإثارة، يبعثه في نفسى الذهاب إلى جامعة خلت من ذلك الرجل. ولكن شيئاً في سلوك سناء ظل يقلقنى. إننى أفهم دوافعها، وأعرف أنه لم يكن هناك طريق آخر تسلكه معه غير استدراجه إلى الكمين الذى نصبته له. ولكننى الآن وأنا أتأمل ما حدث، وحيداً في سيارتى التى أوقفتها الإشارة الحمراء. أحس بأن شيئاً في ذلك السلوك لم يكن يتفق مع الصورة التى أحملها لها. فلقد تعاملت مع الرجل بمنطقه، وحاربته بسلاح يشبه أسلحته واقتحمت عليه أرضه ومتاريسه المصنوعة من وحل السنين، حتى انتصرت عليه. من أين جاءت سناء بكل هذه الشراسة التى تبدو غريبة على طبعها

ورقة ملامحها. لا أدرى إذا كان ذلك الجزء من نفسى الذى مازال لم يتحرر تحرراً كاملاً من ميراث قديم يفرق بين النساء والرجال، ويرسم للمرأة دائرة لا يجب أن يراها تخرج عنها، قد أزعجه الآن أن يرى سناء تتمرد على تلك الدائرة. تخلع ملابس أميرة الحلم وترتدى دروع الفرسان الذين يذهبون إلى الحرب.

ما أن أكملت الإجراءات الإدارية وتقديم الأوراق التى تبرر غيابى، حتى استعدت جدول المحاضرات وذهبت إلى غرفة المدرسين. وجدت شبابيكها لا تزال مغلقة، فاكتفيت بفتح نافذة واحدة خلف مكتبى. وقبل أن أبدأ فتح أظرف النشرات والدوريات التى وصلت أثناء غيابى، جاءت سناء. بدا واضحاً أنها كانت تنتظرنى وما أن رأتنى أدخل القسم حتى جاءت. لا أدرى بالضبط ما الذى يحدث في البدن من تفاعلات أثناء هذه اللحظة. إن عملية كبيرة، بالغة التعقيد تتم خلال الثانية التى تمد فيها يدها للمصافحة. دم متخثر قديم يتم إفراغه، ودم طازج جديد يزرع في الشرايين ويندفع متدفقاً بشحناته القوية، الحارة، اللاسعة فيتوهج البدن وتسرع خفقات القلب، ويتلون الصوت كما تتلون الملامح بلون الانفعال

الساخن الطازج. ويغمر الدنيا التى كانت ساكنة، إيقاع راقص مبهج. أجلستها أمامى، احتضنها بقلبى، وألثم بنظراتى كل جزء من جسمها، الشعر والجبين والخدين والعينين والفم والعنق والصدر. وأبحث في ملامحها عن آثار المعاناة التى عاشتها، فلا أجد غير وجه مترع بالصفاء، يشرق بابتسامة تغمر الوجه كله. وضعت سناء البحث فوق المكتب قائلة:

- لم تكن قراءته مهمة سهلة. إنك تستعمل لغة أكثر تعقيداً مما كنت أتوقع. فاعذرنى إن تأخرت في قراءته.

قلت وأنا مازلت مأخوذاً بحضورها السخى. أحاول أن أسيطر على رقصة الأعصاب التى أطربها هذا الحضور:

- موضوع البحث أكثر تعقيداً من لغته. إنه أيضاً يحتاج إلى قوة احتمال لقراءته. فلعله لم يضجرك.

لم يكن يهمنى البحث، بقدر ما يهمنى أنها جاءت الآن. وصلتها أخبار المرض الذى أصابنى، وعرفت أسبابه، فبادرت تفاجئنى بهذه الزيارة وتصنع لى عيداً.

- ما أن قرأته حتى تجلت لى شهرزاد في ضوء جديد. توقفت كثيراً عند تلك الصفحات التى تشرح فيها كيف أن شهريار بدأ مع بداية القصة كبيراً شامخاً له حضوره

الطاغى، بينما بدأت شهرزاد صغيرة، ضئيلة، تساق ضعيفة، ومسكينة إلى عرس موتها. ثم سرعان ما صرنا نشاهد تبادل المواقع بينهما إذ بدأت شهرزاد تكبر وتتسامق، بينما يتضاءل شهريار ويتلاشى إلى أن يصير مجرد نقطة ضائعة في هذا الفضاء الذى سيطرت عليه شهرزاد.

بعث حديثها في نفسى شيئاً من الزهو لم يبعثه أى ثناء سمعته قبل اليوم. لعل هذه الصفحات التى قرأتها قد أسهمت في دفعها إلى اقتحام ميادين الصراع كما فعلت شهرزاد. فقد تحقق معها شىء يشبه ما تتحدث عنه الآن.

كان الشعر المربوط بمشبك ذهبى، يتهدل في حزمة واحدة مغطياً نهدها الذى يجاورنى، في حين ظل النهد الآخر قديساً يبنى قبته الصغيرة في بياض الرداء. كان المشبك على شكل فراشة من ذهب. تأملت الفراشة وهى تسطع تحت الضوء القادم من الشباك، وتمنيت لو أن للبشر أجنحة الطيور، لكى أفرد لهذه المرأة أجنحتى وأنطلق بها بعيداً عن هذا المكان الذى شهد معاناتها. لاشك أنها تحملت كثيراً من العناء حتى جاءت بذلك البرهان الذى طلبته الجامعة. وكان

لابد أن يأتى في حديثنا ذكر الأستاذ شعبان وما ناله من عقاب. أخبرتها بأننى عرفت كل شىء، فاكتفت بأن قالت:

- ولكن الكتاب مازال بحاجة إلى ترجمة.

كان واضحاً أنها قررت أن تطرد هذه الحادثة من ذهنها. أضافت قائلة:

- وقد اختارتك الإدارة لأن تتولى أنت هذه المهمة.

- أنت من بدأ هذا العمل، وأنت من يصلح لإتمامه.

- لم أكن أريد أن أرى هذا الكتاب مرة أخرى. ولكن الجامعة التى اشترت حقوقه وتعهدت بنشره، تريد إنجازه في الأيام القادمة وتطالبنى بأن أفي بالتزامات المساهمة في الترجمة.

لم أكن واثقاً مما قاله محمود عن ترشيحى لهذا العمل. لكن سناء جاءت تضع أمامى تكليفاً رسمياً من رئيس الجامعة يطالبنى أن أترجم الكتاب بمساعدة المعيدة سناء عامر. عجزت عن وجود كلمات تفصح عن مشاعرى فلجأت إلى الضحك، أطرد به كل الترسبات العالقة بنفسى من آثار الأسابيع الثلاثة الماضية. قلت لسناء أفسر هذا الضحك الذى جاء في غير وقته:

- لا أدرى لماذا أضحك. ربما حدث ذلك لأننى لم أضحك منذ زمن طويل.

كانت رسالة رئيس الجامعة، تطلب إنجاز الكتاب قبل حلول عطلة الصيف، وتضع تحت تصرفنا غرفة بالمكتبة المركزية مكاناً للعمل. اتفقنا أن نبدأ العمل منذ الغد، وفي وقت مبكر لا يتعارض مع محاضراتى التى يأتى موعدها فيما بعد.

كانت الغرفة التى خصصوها لنا بالطابق الثالث من مبنى المكتبة، غرفة صغيرة، بها طاولة تحتل المساحة كلها ونافذة كبيرة بحجم نصف الجدار. أبقينا باب الغرفة مفتوحاً كما وجدناه، وجلسنا متقابلين حول الطاولة، بيننا الكتاب والأوراق البيضاء ومعاجم اللغة، وبدأنا العمل بمراجعة وصياغة ما تم إنجازه من الترجمة.

- ها أنت تنتقل من عوالم الأدب وخيالاته، إلى جفاف العلم ومعادلاته.

قلت وأنا أتناول الأوراق وأراجع معها الترجمة:

- سيكون هذا الكتاب هو أجمل كتاب أقرأه في حياتى.

ولا أدرى لماذا قلت لها أثناء استراحة أخذناها لتناول القهوة:

- كان غناؤك جميلاً عندما رأيتك في مدينة أخرى وزمن آخر.

لم أكن قد قررت أن أكاشفها بقصة لقائى معها في زمن الرؤيا. أو أخبرها بحقيقة أن لقاءنا اليوم ليس إلا استئنافاً للقاء بدأناه منذ أكثر من تسعة قرون مضت. كانت هذه هى أول مرة أشير فيها إلى ذلك الحلم. رأيت للحظة كأن هذا القول فاجأها، فرمقتنى باندهاش، ثم اختفي الاندهاش عندما قالت:

- لعلك عرفت أننى غنيت ذات مرة في إحدى حفلات الجامعة.

كانت هذه أول مرة أعرف فيها أن سناء تغنى أيضاً بمثل ما كانت تغنى امرأة الحلم. أكدت لها أن كل ما أقوله من معلومات إنما استقيتها من سفر روحى قمت به إلى مدينة تأخرت عن هذا العصر قرابة ألف عام، حيث التقيت بها هناك. وسأعتبر كلامها الآن دليلاً على أن الأحلام لا تكذب أبداً. ظنت سناء بأنه حلم رأيته في الأيام الأخيرة بعد أن

خرجت مريضاً من غرفة المدرسين. لقد لاحظت أثناء تلك الزيارة ما اعترانى من اضطراب، وما عانيته بعد ذلك من مرض، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً. كانت تخشى أن تفشل في مهمة فضح وتأديب الرجل الذى عذبها بمطارداته. وتهديداته، واثقة من أننى سأعرف الحقيقة في وقت قريب. قلت لها بأن هذه الأسابيع لم تجلب لى سوى الكوابيس والحمى. وأن الحلم الذى رأيتها فيه، حدث قبل أن ألتقى بها في قورينا، ولعل هذا يفسر لها الذهول الذى أصابنى عندما رأيتها. لم أشرح لها تفاصيل الحلم. اكتفيت بأن قلت أننى فعلاً عرفتها هناك، وأنه تهيأ لى أننى عشت أياماً معها. ونشأت أثناء ذلك علاقة حميمة بيننا واستمعت منها إلى غناء لم أسمع له مثيلاً في جماله وعذوبته. قلت لها أيضاً أننى قرأت قصة لبورجيس الأرجنتينى، يتحدث فيها عن رجل رأى طيف إنسان في الحلم ثم اكتشف بعد ذلك أنه هو أيضاً كان ضيفاً في حلم ذلك الشخص. لم تكن سناء قد رأت الحلم الذى رأيته. واعتبرت أن هذا المقدار من البوح يكفي لجلسة عمل واحدة، فنحن لدينا عمل آخر يجب أن ننتبه إليه قبل أن يسرقنا الوقت. عدنا إلى الكتاب. كانت هى تقرأ

الترجمة في حين أمسكت أنا بالنص الأصلى لأقارن بينه وبين ما أسمع. سرحت قليلاً فوجدتها ترفع عينيها الواسعتين الباسمتين قائلة:

- هل أنت تقرأ الكتاب، أم تقرأ وجهى ؟.

فاجأتنى أعلق بصرى بها. هذا الصفاء في بشرة الوجه، بهو يضج بالمرايا والقناديل. فما حيلتى إذا أغفلت لحظة عن المطهرات الطبية الواجب استخدامها عند تعبئة وتعليب الحقن.

كانت سناء تأخذ مجلسها أمامى. من خلفها النافذة، كبيرة ومضيئة، كأنها بحيرة ضوء معلقة في الفضاء. وذوائب الأشجار، تصل من خلف النافذة، أذرع خضراء ترفع صلاتها لإله الشمس. في حين ترامت السماء، فسيحة زرقاء. في هذا الإطار كنت أتأملها، يملأنى احساس بأننى أدخل الآن كهفاً مسحوراً، أجمل ما فيه أنه ليس حلماً، أو وهماً، وإنما واقع انفصل عن الواقع وأعلن القطيعة معه. فما عادت تعنينى في شيء هذه الأصوات التى أسمعها خارج الغرفة. الأقدام التى تصعد السلالم، الأحاديث التى تتناهى من داخل المكتبة، السيارات التى تمرق وتحدث ضجيجاً. الحشود

التى تملأ ساحات الجامعة ومدرجاتها ومعاملها ومكاتبها. كل هذا صار شيئاً فائضاً، وزائداً عن الحاجة، لا يعنينى ولا أنصت أو أنتبه إليه. ما يعنينى الآن هو هذا المدى من الزرقة والضياء. وهذا الوجه المثقل بالوعد والبشارة، وهذه المرأة التى جاءت من زمن الإشراق والرؤيا، لتضىء بحضورها عوالم داخل نفسى، فأراها زاخرة باحتمالات الفرح والانعتاق.

قالت سناء وهى تضم أوراقها:

- لنكتف اليوم بهذا القدر من تعذيبك.

رأتنى أعترض على هذا الوصف فأضافت:

- كيف لا يكون هذا تعذيباً، لمن تعود أن يعيش محلقاً في أجواء ألف ليلة وليلة.

عندما انتهت حصة العمل الأولى وفارقت سناء عائداً إلى قاعة الدرس، كنت كمن عاد لتوه من جولة فوق قارب مصنوع من السحب. كان كل همى بعد ذلك هو أن أنتظر الحصة التالية، وأستبق الزمن نحو تلك اللحظة التى ألتقى فيها بسناء، وسط غرفة تضيئها نافذة كبيرة. ومع كل لقاء كنت أزداد اقتراباً منها، واقتراباً من نفسى. كنت أجد راحة

في أن أخبرها بهمومى وذكرياتى، وأفتح في حضورها عقلى وقلبى وذاكرتى. أفضى لها بأشياء ما كنت أظن أنها تهم أحداً غيرى. بل ما كنت أظن أننى قادر على استحضارها إلا الآن وأنا أذكرها لها. أخبرتنى في إحدى هذه اللقاءات بأنها عرفت أننى أملك حظوة لدى الطلاب الذين يدرسون معى، تؤهلنى لتحقيق زعامة في الأوساط الطلابية، وهو هدف يسعى إليه أساتذة كثيرون، بعد أن صار الطلاب يتولون تعيين اللجان التى تدير الجامعة. لعلها حظوة جاءت نتيجة غيابى المتكرر عنهم، قلت لها، فلا شك أنهم يكرهون الأساتذة الذين يرهقونهم بالدروس. لم أكن أعرف ما يقوله عنى الطلاب. كل ما أعرفه أننى لا ألتزم بروتين معين في أسلوب التدريس. وإننى بخلاف الأساتذة الآخرين الذين يتعاملون مع المحاضرات بمثل ما يتعامل الإنسان مع مأكولات معلبة يشتريها جاهزة من السوق. كنت أجعل الدرس شبيهاً بالمغامرة، وأجعل الطلاب شركاء في هذه المغامرة. كانت مهمتى أن أقدم اللغة من خلال الأدب، فكنت أترك الطلاب يقترحون النماذج التى يدرسونها. وبقدر ما أبهجنى الثناء، فقد أفزعنى أن أرى نفسى زعيماً. ذكرت لها كيف وجدت نفسى

زعيماً ذات يوم بعيد من أيام الطفولة. وكيف أننى عشت منذ ذلك التاريخ أمقت هذه الصفة. أحمل خوفاً منها وكراهية لها ولا أثق مطلقاً في صحتها. بدأت القصة بمواجهة بينى وبين صبى كان يفزع الأولاد الأصغر منه سناً، من أبناء شارعنا. رآنى أخرج من بيتنا وفي يدى قطعة نقود أرسلونى بها إلى الدكان، فجاء يريد أن ينتزعها منى. حاولت الهروب عائداً للاحتماء بسقيفة البيت، فلحق بى وأمسك بقميصى عند الباب. كنت خائفاً منه، وخائفاً من العقاب الذى ينتظرنى لو تنازلت له عن النقود. دفعته عنى. دفعته بيأس ورعب، دفعة قوية أسقطته فوق العتبة حتى أدمت رأسه. انسحب ذلك الصبى من شارعنا وأصبحت في نظر بقية الأطفال بطلاً. لم يكن أحد منهم قد رأى هروبى، ولا كيف دفعته عنى وأنا أرتعش. لم أستطع أن أعترف أمامهم بحقيقة ما حدث، ولم أكن أقوى على تحمل مسؤولية الزعامة التى جاءوا يلبسونها لى. فاعتزلت اللعب، محتمياً بالبيت، خوف أن يرمى بى هذا الوهم في مغامرة جديدة، تتكشف فيها حقيقتى. ومنذ ذلك اليوم صار كل شىء له علاقة بالبطولة والزعامة يثير في نفسى مشاعر الشك والخوف.

لم يكن الحديث مع سناء مجرد سفر إلى الماضى. كنت أيضاً أحاول أن ألملم الأشياء المبعثرة من نفسى وأعيد تركيبها وترتيبها مرة أخرى. وكأننى أهتدى، بصحبة هذه المرأة، إلى معرفة نفسى، وأعيد، بفضلها، اكتشاف العناصر التى أسهمت في تكوينى. وعندما كنت أقدم لها نفسى من خلال هذه التداعيات، كنت كثيراً ما أفاجأ بظهور تلك الدوافع القديمة، لأفعال أقوم بها الآن وأحسب أنها جاءت نتيجة قناعات جديدة تولد مع النضج والتجربة، بينما هى تستمد حياتها من تلك الجذور المدفونة في أرض الطفولة وسديمها. حتى هذه العاطفة التى تجعلنى أسهد وأمرض، إنما هى داء قديم نشأ معى منذ سنوات العمر الأولى. ذكرت لها وهى تستعيد معى ذكريات المدينة القديمة التى شهدت جزءاً من طفولتها، كيف أننى وأنا في العاشرة من عمرى تقريباً، تعشقت امرأة من نساء البحارة اليونان. الذين كانوا يسكنون منطقة تجاورنا هى باب البحر. كنت أجلس بالساعات أمام بيتها من أجل أن أراها لحظة أن تطل من خلف الباب، تبحث عن صبى يجلب لها شيئاً من السوق. لم أكن أعرف كنه العاطفة التى أحملها لها. كنت منجذباً إليها بقوة سحرية لا

أستطيع تفسيرها، وكنت أرتعش سعادة وأنا أتلقى ابتسامة منها مكافأة خدمتى لها. وعندما رحلت مع أهلها بكيت. لم أبك فقط، وإنما رقدت في الفراش مريضاً، دون أن يعثر أهلى على علة تستوجب رقادى في الفراش، وامتناعى عن الأكل، وبكائى الصامت دونما سبب. كنت أطوى هذا العشق الساذج في صدرى، دون أن أخبر به أحداً. وأجلس حزيناً أمام بيتها المغلق، أنتظر أن أراها تفتح الباب وتسألنى أن أشترى لها ملحاً أو خبزاً أو كبريتاً أو صابونة من السوق. وصرت كلما سمعت نداء باخرة في الميناء اعترتنى رعشة، ورغبت في البكاء.

كانت المدينة القديمة بالنسبة لسناء مجرد ذكرى غامضة، وصدى لأحاديث الأهل عن حياتهم بها قبل انتقالهم منها وهى في عامها الثالث أو الرابع، إلى منطقة المنشية التى تحولت من مزارع إلى بنايات، عدا مناطق قليلة خضراء، لا تزال تحيط بالبيت الذى تسكنه سناء الآن بصحبة أمها، وأخ صغير أكمل الدراسة الإعدادية وانتسب إلى معهد الموسيقى. توفي والدها قبل أن تدخل الجامعة وترك لأمها عقاراً يدر بعض المال. كنت أصغى بانتباه إلى حديثها،

محاولاً أن ألتقط أية إشارة تنبئ بوجود رجل في حياتها. لم يكن هذا الخوف مبرراً. فما رأيته منها حتى الآن يجزم بأن لى حظاً معها أكثر من غيرى. ما كان يقلقنى هو أننى لا أستطيع أن أتصور أن تبقى امرأة، أكملت تعليمها الجامعى، وامتلكت كل هذا الجمال، دون ارتباط وكأنها لم تخلق إلا لكى تنتظرنى. ثم أطرد هذا القلق قائلاً أن رجلاً مثلى، يعرفها منذ ألف عام، حرى بأن يحظى بهذه المعاملة الخاصة.

ولا أدرى كيف وصلت أخبار علاقتى بسناء إلى زوجتى. كانت حياتنا الجنسية قد توقفت تماماً بعد المحاولات الكثيرة التى باءت بالفشل. وكنت أدرك أن ارتباطى بها قد وصل إلى نقطة النهاية. وأن الأمر لم يعد يحتاج إلا إلى كلمة صغيرة أقولها لتفهم فاطمة أن طريقى بات يختلف عن طريقها. ولكننى كلما فكرت كيف أقولها ومتى أقولها اعترتنى حالة من الإحساس بالحرج، فأرجئ قولها إلى وقت آخر. متمنياً أن أصحو ذات يوم فأجد أنها أخذت حوائجها وغادرت البيت. هجرتنى وأعفتنى من عبء هذا القرار. كانت حالة التبرم والضيق قد أصبحت حالة دائمة تلازم

فاطمة خلال الأيام الأخيرة. فهى مكتئبة، صامتة، تؤدى عمل البيت بطريقة آلية، فاترة. وكنت أقابل صمتها بصمت مثله. غير قادر على أن أنظر في عينيها أو أجد كلاماً أقوله لها. كنت أعرف أن هذا الشيء الذى يأبى أن يحدث في الفراش هو الذى يصيبها بالاكتئاب. وإذا كان الموضوع لا يزعجنى كثيراً لأننى أعرف أسبابه وأدرك أنه عجز لا ينتابنى إلا معها، فهو بالنسبة لها كارثة. إنه إهانة لأنوثتها، وإشارة أكيدة إلى تبدل مشاعر الزوج نحوها. وهو بعد كل شىء يهدد الوظيفة التى نذرت نفسها لها كزوجة وربة بيت. إن هذا الشىء الذى لا يحدث في الفراش، هو بذاته ما سيكون حجتى لحظة أن تجىء الفرصة لإقناعها باستحالة حياتنا الزوجية. لابد أن تأتى هذه الفرصة سريعاً، لأن حسم علاقتى بسناء يتوقف أيضاً على حسم علاقتى مع هذه المرأة أولاً. وإذا كانت سناء قد وجدت هذه الأيام عذراً للقاءاتنا، فإنه ما أن ينتهى الكتاب حتى ينتهى العذر ويصبح مستحيلاً أن تحافظ على علاقتها برجل متزوج لا تربطها به أمام المجتمع أية رابطة. الوقت يمضى، وواجبى أن أقدم لسناء هذه الرابطة التى يريدها المجتمع قبل أن يفوت الأوان. لا أدرى إذا كان

ذلك الإحساس الشخصى بالعدل هو الذى يجعلنى أحجم عن الإساءة لامرأة لم أر منها خلال هذه السنين إلا الطاعة والإذعان. أو لعل شخصيتها المهادنة، اللينة، الضعيفة، المسالمة، هى التى تملأنى إشفاقاً عليها، وخوفاً من أن أواجهها بقرار يحمل هذا المقدار من القسوة. ووجدت أننى لن أستطيع أن أفاتحها في موضوع كهذا إلا في حالة واحدة، وهى أن أنتظر نزاعاً ينشب بيننا تكون هى التى بدأته، لأتخذه مبرراً لطرح فكرة الطلاق. ولم أنتظر زمناً طويلاً حتى جاء هذا النزاع. كنت قد عدت لتوى من الجامعة. أوصلت سناء إلى بيتها وجئت لأجد فاطمة تستقبلنى بوجه تمكن منه الغضب.

- إذا عرف السبب. ..

أدركت من لهجتها العدائية أن ما تقوله يتصل بذلك الشيء الذى لا يحدث في الفراش. والذى لم نتبادل حوله كلمة واحدة حتى الآن. برغم أن وجوده الثقيل يملأ فضاءات البيت، ويتكدس فوق الكراسى وطاولة الطعام وسرير النوم. كنت أعرف أن لحظة مثل هذه سوف تأتى، وأن فاطمة لن

تصبر طويلاً على السكوت. قلت محاولاً أن أعرف إن كان هذا ما تعنيه:

- أى سبب تقصدين؟

وبدلاً من أن تكمل جملتها الناقصة، قالت بلهجة أكثر انفعالاً:

- لا تدع البراءة الكاذبة. فلقد عرفت كل شىء.

- إننى لا أدرى عن أى شيء تتحدثين.

- لعلك تظننى عمياء، بلهاء، لا تسمع ولا ترى ولا تعرف ما يحدث في الدنيا، وما يجرى بينك وبين سليلة الحسب والنسب وبيوت الدعارة السرية.

ثم لأول مرة خلال هذه السنين التى عشناها معاً، أفاجأ بفاطمة أخرى، تخرج من خلف أقنعة المسكنة والمذلة والضعف. فاطمة جديدة لا أعرفها، تتفجر غضباً وحقداً على المرأة التى اعتبرتها غريمة لها، قائلة بأنها لن تسمح لامرأة من الشارع أن تهدم بيتها وتعبث بحياتها، وإنها تعرف كيف تنتقم لنفسها، وتريها كيف أن خطف الأزواج ليس سهلاً كما تظن. سوف تفضحها وتفضحنى معها. كانت تتكلم بوجه احتقنت فيه الدماء وتحول بياضه إلى سواد. وصوت استعار

حنجرة جديدة فبدا قوياً لاذعاً كفرقعة السياط. قائلة بأنه لم يكن يخطر على بالها أن أكافئها بمثل هذا الأسلوب بعد أن صبرت طويلاً على أمراضى، وتحملت ضنك الحياة معى، خادمة وممرضة، تعانى وتتعذب من أجل السهر على راحتى، وأنها لن تسكت على هذه الإهانة، ولن تسمح لأحد أن يرمى بها كحطام الأشياء المستعملة.

تلبستها حالة من التشنج فصارت تكز على أسنانها، وتكور قبضة يدها، وتنظر بعينين جاحظتين إلى الفراغ الذى أمامها، وصدرها ينتفض شهيقاً وزفيراً، وهى تنعت سناء بألفاظ بشعة وتهددها بالسجن والقتل. كنت مستغرقاً في ذهولى، مندهشاً لظهور هذه المرأة التى لم أرها من قبل، أشاهدها كمن يشاهد في يده مسدس ماء، يتحول ماؤه فجأة إلى بارود. كنت أرتعش وأنا أسمعها تنعت سناء بذات النعوت التى استعملها الأستاذ شعبان، ولكن بطريقة أكثر فحشاً، قائلة بأن أمها ليست إلا مومساً التقطها والدها من بيوت الدعارة لأنه كان أكثر سقوطاً منها، وما الابنة إلا سليلة هذه المخازى. أردت أن أفعل شيئاً لإسكاتها، فتقدمت نحوها مهدداً، وقبل أن أقول شيئاً، تهاوت باكية فوق

الكرسى. تركتها وذهبت إلى باب البيت. ضربته بعنف وخرجت.

كنت عاجزاً عن تفسير هذا التحول الغريب الذى طرأ عليها. كيف لم أستطع، وخلال ثلاث سنوات ونصف، عشتها معها، أن أرى أى بصيص لهذه المرأة الأخرى التى ظهرت اليوم دفعة واحدة. كتلة من الهيجان والتنمر والغضب. أحسست وأنا أنظر إليها مأخوذاً أن هذه المرأة قادرة على ارتكاب أفظع جرائم القتل وأكثرها بشاعة ورعباً. من أى كهف من كهوف الظلام خرجت هذه المرأة التى تحول كل شىء في ملامحها إلى مخالب وأنياب وعقارب. لم يكن يعنينى كيف وصل إلى علمها خبر علاقتى بسناء، فهى علاقة عمل علنية، حتى لو فسرتها هذا التفسير ورأت فيها سبباً للداء الذى أصاب فراشنا. كما لم تكن تعنينى التهم التى رمتها بها، فهى إشاعات قديمة وضعت لها صياغات جديدة بسبب الحقد والانتقام. ولم يكن غريباً أن ترى في هذه العلاقة شيئاً ينبئ بتقويض بيت الزوجية، فهى فعلاً كذلك، ولعلها عرفت بحدس المرأة هذه الحقيقة فاستنجدت بشخصيتها الأخرى التى كانت تخبئها في أكثر الكهوف سرية وعمقاً. ما

صار يعنينى الآن هو أن فاطمة أصبحت مشكلة أكثر تعقيداً مما كنت أظن. ما حسبته أمراً سهلاً لن يقتضى سوى كلمة منعنى الإشفاق من قولها، بات ينبئ بأن صراعاً ضارياً سوف ينشب بينى وبينها، ومسدس الماء لم يكن كله ماء، كان هناك بارود خلف خدعة الماء. وبرغم أن الإشفاق انتهى الآن، وتحول إلى استنفار لكل ما أملك من قدرة على المقاومة، فإننى لم أعد إلى البيت إلا ليلاً. تغيبت كل هذه الساعات بأمل أن تكون قد أفرغت شحنات الغضب والبكاء، وأخلدت إلى النوم، فأتجنب الاصطدام بها، وأنتظر الصباح لأفوز بحديث هادئ معها.

رجعت إلى البيت فوجدت أنها أعلنت حالة استنفار في صفوف العائلة. امتلأ البيت أطفالاً ونساء، وجلست في غرفة المكتب بين أخى وعديلى، أستمع إلى صوت الحكمة يطالبنى بالتعقل والابتعاد عن التهور ومصالحة فاطمة، وإنهاء أى علاقة لى بالمرأة الأخرى. كان أخى هو الذى يتكلم في حين جلس محمود صامتاً. طمأنت أخى قائلاً بأن المسألة ليست كما تظن فاطمة. وأن ما يجمعنى بسناء ليست إلا علاقة عمل يحدث مثلها بين العاملين في مكان واحد، دون أن يثير ذلك

حقد الأزواج أو الزوجات. فاجأنى أخى عندما فتح مجموعة من الرسائل كان ممسكاً بها، قائلاً بأنه يجب أن أنفض يدى من هذه العلاقة حتى لو كانت علاقة عمل، وأنه اتفق مع فاطمة على أن أقطع صلتى بتلك المرأة مقابل أن تتنازل عن إرسال هذه الرسائل.

لا أدرى متى وجدت فاطمة الوقت لكتابة هذه الرسائل التى يصل عددها إلى تسع أو عشر. كلها تظلم وشكوى، ومطالبة بإنصافها من هذه المرأة التى اعتدت على حرمة بيتها، وأرادت أن تسرق زوجها. إحداها إلى رئيس الجامعة تستنكر أن يحدث هذا في الحرم الجامعى، وأخرى إلى شرطة المحافظة على الآداب تستعديها على سناء لمسلكها المشين، وثالثة إلى سناء تهددها وتطالبها بأن تبتعد عن طريقى، ورابعة وخامسة إلى قياديين سياسيين تطالبهم لا أدرى بماذا، لأننى لم أستطع أن أواصل القراءة أو أعرف لمن وجهت بقية الرسائل فلعلها وجهتها إلى مصلحة السجون أو المطافئ أو مكافحة الآفات الزراعية، لأنها رسائل مكتوبة بحبر الجنون والهلوسة. بقيت لحظة أقلب النظر بين الرسائل وأحملق في الرجلين أسألهما عن رأيهما في هذا العبث

والهذيان. ثم هائجاً اتجهت إلى الباب أريد أن أخرج إليها وأطلب تفسيراً منها لهذا المسلك الذى لا تسلكه إلا امرأة فقدت عقلها. وقف الرجلان يمنعاننى من الخروج وأنا أدفعهما غاضباً قائلاً، لا يمكن أن أعيش مع امرأة تستعدى أجهزة الدولة ضدى وتستخدم أساليب التهديد لإرغامى على الحياة معها.

حاول أخى تهدئتى قائلاً بأنها امرأة مجروحة، وهى لم تكتب هذه الرسائل إلا تنفيساً عن الغضب، وإلا ما كانت احتفظت بها وأطلعتنا عليها. ثم مزق الرسائل ورمى بها.

أفلح التجمع العائلى في إسكات العاصفة، ولكنه لم يفلح في تصفية الخواطر، فقد جلست صامتاً بعد أن ضمتنا غرفة الصالون، رجالاً ونساء في حين ظلت فاطمة تحمل منديلاً في يدها تجفف به عبراتها. وكان فألاً طيباً عندما حان موعد النوم، واستبقت أختها لتنام معها. فهذه أول مرة نتواجد فيها معاً تحت سقف هذا البيت دون أن يجمعنا فراش واحد.

عندما لاقيت سناء لم أستطع أن أنفض عن وجهى وصوتى آثار ما حدث في الليلة السابقة. لاحظت سناء ما يعترينى من ضيق فأحجمت عن إخبارها بالسبب. افتعلت

ضحكة واهية مدعياً أن ما يضايقنى هو هذه الموجة من الحر التى داهمتنا منذ بدء الصباح برياحها الساخنة. اقترحت أن أذهب لإحضار مشروب بارد، وقررت وأنا أناقش الأمور مع نفسى، خلال مشوار الذهاب والرجوع من المقصف، أن أمضى خطوة أخرى باتجاه توثيق علاقتى بسناء. لم أكن حتى الآن قد دخلت إلى بيتها رغم أننى أوصلها إلى هناك كل يوم. فأردت أن اتعرف اليوم على أسرتها، وأن أجعل هذا التعارف يأتى عفوياً كأنه تم بالصدفة. انتهى الدوام وأخذتها في سيارتى إلى بيتها. اجتزنا طريقاً ترابياً يمضى بمحاذاة بستان تحاصره الأبنية وتلمع ثمار التين والرمان والبرقوق في أشجاره، متوهجة تحت شمس الظهيرة. وعلى طرف البستان كان يقع البيت الذى تسكنه سناء وقد انتصبت في فنائه شجرة نخل واحدة، مثقلة بعراجين البلح الذى لم ينضج بعد. ما أن وصلت حتى أطفأت محرك السيارة وأنا اتبادل معها حديثاً قصيراً عن برنامج العمل ليوم الغد، ومستجيباً لقانون الصدفة، الذى لم يكن إلا قانوناً من صنعى، امتنع المحرك عن العمل عندما أردت تشغيله، متأثراً بارتفاع درجة الحرارة. سألتها أن تدخل وتتركنى أنتظر، حتى تبرد

حرارة المحرك. كنت أعرف أنها ستدعونى إلى الانتظار داخل البيت، ولذلك فإننى لم أتردد لحظة واحدة عندما جاءت هذه الدعوة.

كان البيت شقة أرضية في بناية من طابقين، تحيط بها حديقة صغيرة. استقبلتنى رائحة منعشة تشبه رائحة الحقول بعد هطول الأمطار. لم أعرف السبب إلا عندما اجتزت ممراً صغيراً إلى ردهة البيت الواسعة التى يستعملونها مكاناً للجلوس، فوجدتها تمتلئ بأحواض تعرش فوقها النباتات. إحدى هذه النباتات كانت قد نمت حتى أصبحت شجرة صغيرة. جلست بجوار الشجرة، أجيل بصرى في الردهة التى ازدحمت ازدحاماً أنيقاً بالأثاث والنباتات، الضوء يأتى من نافذة الأولومونيوم الأصفر، التى تطل على جانب من الحديقة، وفي الجانب المقابل للشباك كانت أسماك ملونة كثيرة تسبح حول نبتة ذات ساق طويلة، داخل الأكوريوم الملاصق للحائط. بينما وقفت خزانة عريضة مليئة بالمجلدات وأجهزة التلفاز والفيديو والمسجل، تفصل بين الردهة وبين الرواق الذى يفضى إلى الغرف الأخرى. كانت ستائر القطيفة وكراسى الجلد والسجاد السميك الكثير النمنمات، كلها

ذات ألوان غامقة لا تتناسب مع قيظ هذه الظهيرة، ولكن النباتات الكثيرة، أضفت على البيت طراوة وانتعاشاً. أحسست بألفة مع المكان، ومددت يدى أتحسس أوراق الشجرة القريبة منى، وكأنى أريد أن أصافحها وأتعرف عليها. كانت أوراقها غزيرة، داكنة الخضرة، والتربة في حوضها مبللة سوداء. رأتنى سناء مهتماً بها، فقالت بأنها تسمى البانيوم، وأن موطنها الأصلى إفريقيا الاستوائية، ولكنها تتآلف بسرعة مع الأماكن التى تنتقل إليها، عندما تجد من يعاملها معاملة حنونة، وإلا فإنها تنطوى على نفسها وتظهر على أغصانها علامات الاكتئاب. قلت لها وأنا أرى عرفين من أعراف الشجرة يتسلقان الحائط:

- إنها سعيدة هنا ولذلك فهى ترسم إشارة النصر.

ابتسمت سناء وغابت داخل البيت. تنبهت وأنا أتتبع إشارة النصر التى ترسمها الشجرة، إلى أن هناك صورة معلقة على الجدار في نهاية الإشارة. أدرت جسمى بكامله لكى أتفحصها، فوجدتها صورة رجل يرتدى ملابس ضباط الشرطة، له سحنة قاسية وشارب كثيف داكن السواد. تهيأ لى أننى رأيت صورة هذا الرجل من قبل. فتشت في ذاكرتى

عن ضباط الشرطة الذين ترسخت صورتهم في ذهني منذ المراحل الدراسية الأولى، أيام الاشتباك مع أجهزة الأمن أثناء المظاهرات. أيكون هو عامر عبد الجبار رجل السلطة القوى، وقبضتها الحديدية في مراحل الاضطرابات التى كانت تواجهها الحكومة في الخمسينات. إنه هو بهذه الندبة التى فوق جبينه. كانوا يسمونه »المطرقة«، لقدرته على الفتك بالمشاغبين وأعداء الحكومة. كان زواجه مثار تعليقات الصحف الوطنية، لأنه اقترن بامرأة عائدة من المهجر، اكتشفت هذه الصحف بعد سنوات من زواجه بها، أنها كانت تشتغل بالرقص، في ملاهى تونس الليلية، ونشرت صورة إعلان لأحد الملاهى يحمل صورتها، إحراجاً للحكومة ومهاجمة لرمزها القوى عامر عبد الجبار، خبا بعد ذلك نجمه، وتحمل قطيعة أهله، وتنحى قبل سنوات وفاته عن وظيفته، وافتتح متجراً لبيع الحبوب بسوق الثلاثاء. أتكون سناء هى ثمرة ذلك الزواج العاصف بين رجل السلطة وامرأة الملاهى الليلية؟ إن جمالها النادر، ينبئ بأنها بذرة صنعها حب عظيم. أدركت لماذا اتخذ منها الأستاذ شعبان هدفاً لمطارداته. إن أحداً لا يريد أن يغفر أو ينسى، ولم أكن

شخصياً لأتذكر هذه المعلومات إلا لأننى قرأتها أكثر من مرة عندما كانت الصحف تنشر وثائق العهد المباد التى تكشف فساده وتدين عناصره. ولكن من قال أن مسألة الرقص والملهى الليلى لم تكن سوى مكيدة دبرها خصوم هذا الرجل الذى كان يعيش في قلب الصراعات.

لم تمض سوى لحظات قصيرة حتى جاءت الأم. ترتدى قفطاناً طويلاً امتزج بياضه بدوائر زرقاء، وتضع منديلاً فوق رأسها. امرأة ممتلئة الجسم إلى حد البدانة، غادرها الشباب وإن لم تغادرها آثار ذلك الجمال الذى ألهب قلب رجل الشرطة القوى. ثمة شبه بين الأم وابنتها لم أستطع تحديده. فتشت وأنا أراها مقبلة نحوى عن راقصة الملاهى في ملامح وجهها، فلم أجد سوى وجهاً يطفح بالطيبة والأمومة والانكسار. أصدرت لها منذ اللحظة الأولى شهادة براءة، واعتبرت أن التجاعيد القليلة التى تحيط بمناطق الفم والعينين، إنما تنتمى إلى جلال الأمهات. قالت بين عبارات الترحيب إن سناء أخبرتها عن العمل المشترك الذى كلفتنا به الجامعة. كانت عبارة أهلاً وسهلاً التى تقولها بعد كل جملة، تمنح حديثها إيقاعاً محبباً. اعتذرت لها عن هذه الزيارة

المباغتة، واضعاً اللوم كله على موجة الحر. أردت أن استأذن وأنصرف فاستبقتنى لتناول القهوة، التى جاءت بها سناء. جلست على الكرسى المحاذى لى، وامتد غصن الشجرة يفصل بينى وبينها ويغطى ملامح وجهها، عدا العينين. أدركت في تلك اللحظة أن العينين هما منطقة التشابه بينها وبين أمها، خاصة استدارة الحاجبين وبهاء تلك المنطقة التى تقع تحتهما حيث غاصت الأهداب السوداء في ذلك الجزء بنقائه ودسامته.

لم أقل للأم أن العلاقة التى تربطنى بابنتها ليست علاقة العمل، وإنما علاقة أكثر نبلاً وجلالاً، وأعمق اتصالاً بأسرار الطبيعة، والنواميس الغامضة التى تنقل دورة الأفلاك ونبض النجوم إلى شرايين الدم. إن لها قلباً أحب، وعانى مواجع العشق، وأدرك ما يحدثه في الناس من تحولات. لاشك أنها سوف تتعاطف معى وتدرك نبل دوافعى عندما أزورها في يوم قريب طالباً يد ابنتها. وما هذه الزيارة الأولى إلا مناسبة لفتح باب الألفة بينى وبين أهل هذا البيت من بشر ونبات وأسماك وملائكة.

كان جسمى يرشح عرقاً وأنا أقف أنتظر المصعد الذى تأخر عن المجىء. صعدت السلالم ووقفت بالطابق الثانى أستلقط أنفاسى. كنت قد غادرت بيت سناء واتجهت مباشرة إلى بيتى. لم أتوقف لحظة، لأسأل نفسى إن كنت فعلاً أرغب في العودة إليه، جئت بحكم العادة التى لا يصحبها وعى أو تفكير. وإلا فما هى الرابطة التى مازالت تربطنى حتى الآن، بهذا البيت؟ ولماذا أعود كل يوم إليه وكأن هذا العالم الفسيح، يضيق عن توفير شبر من الأرض أقف عليه غير هذا المكان؟

لم يكن ما أحسست به ارتياحاً عميقاً فقط، وإنما نشوة جعلتنى أهبط السلالم راكضاً، وأعود إلى سيارتى أنطلق بها عبر الطريق المحاذى للبحر. تركت الطريق يقودنى حيث يشاء. لم يكن في ذهنى مكان محدد يمكن أن أذهب إليه. لم أشغل نفسى بالتفكير في شىء كهذا. كنت كمن باغته الزلزال داخل بيته الذى صار يتقوض فوق رأسه حجراً حجراً، وغادر البيت هارباً دون أن يكون بحاجة إلى أن يسأل نفسه أين سيذهب. استسلمت لرغبة تجتاحنى وتأمرنى بأن ابتعد

عن هذا البيت قدر ما أستطيع، وأن أمزق الخيوط التى شدتنى إليه كل هذه المدة.

منحت نفسى للطريق الذى أفرغته القيلولة من زحامه. تضرب وجهى أنسام قادمة من البحر، تزداد قوتها مع ازدياد سرعة السيارة. عبرت فنادق ومصائف قبل أن أصل مركز المدينة ومع ذلك لم أتوقف. مازلت قريباً من البيت ويجب أن أبتعد أكثر وأكثر. وصلت إلى أقصى الطرف الغربى من المدينة. وجدت نفسى أجتاز منطقة، قرب الشاطئ عامرة بالبشر والسيارات. حال الزحام بينى وبين الانطلاق. رأيت السيارات تدخل منتجعاً سياحياً حديث البناء، فذهبت أتبعها، وأوقفت سيارتى حيث أوقف الناس سياراتهم. ظننى موظف الاستقبال أريد تذكرة لقضاء اليوم، ولكننى طلبت داراً للإقامة. أرسل معى عاملاً يرينى الدار، ويعيننى في حمل الأمتعة. أعفيت العامل من نقل أمتعة لا أملكها، وسرت خلفه أتأمل الموطن الجديد لإقامتى. كانت قرية الشاطئ السياحى، تقع فوق مرتفع من الأرض يشرف على البحر. زرعت أرضها بالنجيل وامتلأت بأشجار الورد والنخيل وامتدت خراطيم الماء ترويها بإسراف فحافظت، رغم القيظ، على

اخضرارها ونضارتها. أشار العامل إلى شرفة صغيرة فيها طاولة وأربعة كراس من البلاستيك، قائلاً بأن هذا هو مدخل الغرفة. صعدت بضع درجات، ووقفت في الشرفة اتأمل المشهد الذى حولها. كانت غرفتى هى الأخيرة في صف من الأبنية ذات الطابق الواحد والتى تطل على مساحة خضراء تفضى إلى البحر. وقريباً منها كانت تنتصب شجرة نخل، يتسلق جذعها الطويل السخارس وأغصان اللبلاب. أخرج العامل قطعة قماش يمسح بها الغبار الذى يغطى الطاولة والكراسى، وفتح باب الغرفة المقسومة بحاجز خشبى، إلى صالون صغير وغرفة نوم يحتل السرير الزوجى كل مساحتها. كانت قطع الأثاث مفصلة تفصيلاً دقيقاً بحيث تلائم ضيق المكان. الصالون وغرفة النوم والمطبخ والحمام. أحسست منذ اللحظة الأولى بارتياح لهذه الغرفة، التى لم تكن غرفة وإنما شقة صغيرة، ستكون منذ اليوم البيت الذى لا بيت لى سواه. ما أن ذهب العامل حتى تحررت من ملابسى. ملأت حوض الحمام بالماء الفاتر واستلقيت وسط الماء مغمض العينين. أردت أن أفرغ ذهنى من كل شىء، وأنسى كل شىء. أريد أن أستمتع بلحظة صغيرة يكون فيها رأسى

فارغاً. مساحة بيضاء لا أثر فيها لكل ما يملأ الدنيا من صخب. أريده أن يكون مثل رأس طفل يستقبل الحياة هذه اللحظة. طردت من ذهنى صورة فاطمة التى تنتظر الآن عودتى وفي يدها مجموعة من الرسائل. ما أن ترمى بها في الهواء حتى تتحول إلى خفافيش تهاجمنى. لتذهب إلى الجحيم هى وخفافيشها. لقد انتهت فاطمة وخرجت من حياتى إلى يوم الدين.

فكرت في أغنية أغنيها لنفسى. أغنية لا معنى لها، ولاتعرف لعبة التداعى واستحضار الذكريات. تتيح لى متعة الكسل الذهنى الذى لا يرافقه أى جهد، دوناً، دوناً، دوناً، دوناً. تنويع لحنى جميل على الاسم المطلق للمرأة. لا ترافقه كلمات ولا ذكريات. دونّا، دونّا، دونّا. أحسست بجسمى خفيفاً، يطفو فوق الماء. ومستسلماً لبهاء هذه اللحظة، ودفء هذا الماء، ورائحة الصابون المنعشة، مضيت أدندن باللحن وأعبث بفقاقيع الصابون. صنعت من الرغوة ذقناً وشارباً مثل بابا نويل، وضحكت وأنا أرى وجهى في المرآة التى يغطيها الغبش. استغربت كيف أن خلاص الروح وانعتاقها، لم يكن يحتاج إلا إلى هذا القدر البسيط من الفعل الإنسانى. ما أعظم

سذاجتى عندما كنت أعانى وأتألم، عاجزاً عن اتخاذ أى قرار. في حين أن الأمر لم يكن يحتاج إلا إلى مفتاح غرفة في الشاطئ السياحى وينتهى العناء. قد يكون المبلغ الذى يؤجرون به هذه الدار يعادل مرتبى كله، ولكنه لا يساوى شيئاً بحسابات الربح والخسارة. واحتفالاً بهذا اليوم ذهبت لتناول الغداء بمطعم القرية. قلت في نفسى وهم يضعون أمامى طبق اللحوم المشوية:

- لا أفتقد الآن شيئاً سوى النبيذ.

كنت قد تآلفت مع الحياة بلا شراب. وتجنبت الانضمام إلى الحلقات التى يعقدها الشاربون في تكتم وخوف. أقنعت نفسى بأنه لا معنى للشراب إن لم يكن متعة وانطلاقاً وتحرراً من الخوف والكتمان. ولكننى الآن اشتاق إلى الشراب كطقس يكمل شروط الاحتفال. أردت أن أتمشى قليلاً على الشاطئ ولكن حرارة الشمس أعادتنى مسرعاً إلى غرفتى. ارتميت فوق السرير لأرتاح. أحسست بخدر النوم فلم أقاومه. صحوت بعد إغفاءه قصيرة وطلبت شاياً. جلست أفكر فيما يجب أن أفعله الآن. اتصلت هاتفياً بمحمود. لم أخبره بشىء مما حدث، مؤجلاً ذلك إلى حين مجيئه. تنبهت إلى أننى بهذه

المكالمة، أقفل دائرة من الدوائر التى تمضى عبرها حياتنا. كان محمود هو واسطتى في الزواج من هذه المرأة، وها أنا اليوم اتصل به لكى يعيننى على إبطال هذا الزواج. جاء محمود وما أن رآنى جالساً في الشرفة حتى أبدى إعجابه بفكرة الانتقال لقضاء الصيف بهذا المنتجع الذى سيكون مكاناً مناسباً لعلاج التوتر الذى طرأ على العلاقة بينى وبين فاطمة. ثم مد بصره يبحث عنها داخل الغرفة. وقبل أن يمضى بعيداً مع هذا الوهم، أخبرته بأننى لا أكترى هذه الغرفة إلا من أجل الابتعاد عن فاطمة.

- تركت لها البيت تفعل به ما تشاء، أما أنا فهذا هو بيتى.

لم أعبأ باندهاشه، ولم أدع له فرصة إكمال الحديث الذى جاء يعترض به على هذا القرار. قلت بلهجة حاسمة وأنا املأ له فنجاناً من إبريق الشاى:

- رفعت الأقلام وجفت الصحف ولا مجال للتراجع عن هذا القرار. كل ما أطلبه منك هو أن تخبرها بأنها حرة تفعل بحياتها ما تشاء، وتترك لى حياتى أفعل بها ما أشاء.

ولا تنس أن تحضر لى بعض الأغراض التى سأكتب لك قائمة بها.

- هل معنى ذلك أنه الطلاق.

- رحم ا زماناً كان فيه الرجل يكتفي بأن يقول لامرأته أنت طالق وينتهى ارتباطه بها. أما الآن فأنا بحاجة لأن أقدم منذ الغد طلباً رسميا إلى المحكمة بهذا الشأن أن أقول لها شيئاً كهذا.

إننى لا أستطيع.

قلت له إن ما حدث كان يجب أن يحدث منذ وقت طويل مضى، وأنه لا داعى للتكلف والكذب والتظاهر بالحياة الزوجية السعيدة التى لا وجود لها.

- ليس هناك في الدنيا حياة زوجية سعيدة. إنها عشرة وألفة. غضب ورضا، توتر وانفراج، ككل علاقة أخرى في الحياة. ولتعلم جيداً أن فاطمة لن تتركك.

- ماذا بإمكانها أن تفعل؟

- لا أدرى. أشياء كثيرة. أولها أن تأتى لتقيم لك مناحة في هذا المكان.

- سأعتمد عليك في إقناعها بأنه لا جدوى من هذا الجنون.

قال قبل أن ينصرف:

- ما أشد جهلك بالنساء.

أخبرنى عندما عاد يحمل لى حقيبة بها ملابس وكتب وأغراض أخرى مثل المذياع وأشرطة وجهاز التسجيل، أنه لم يذكر لها شيئاً مما قلته له. اكتفي بأن دعاها لتقيم مع أختها بضعة أيام بحجة أننى انتدبت لعمل عاجل خارج المدينة اقتضته ظروف الامتحانات.

- ليتك أخبرتها بالحقيقة.

- أردت أن أمنحك وقتاً للمراجعة.

لم أقل له أن قانون الدوائر، التى نتحرك مع حركتها، أوصل هذه الدائرة إلى ختامها، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة. تركت ذلك لتقوله الأيام القادمات.

بدأ يغمر الجامعة جو التوتر الذى يرافق موسم الامتحانات. كان الكتاب الذى نترجمه قد انتهى عندما قلت لسناء، بعد أول يوم هجرت فيه البيت:

- ما الذى بإمكاننا أن نفعله بعد أن انتهى الكتاب؟

- المراجعة أيضاً تقتضى وقتاً.

- يجب أن نبحث بسرعة عن كتاب جديد.

- هل صرت شغوفاً بترجمة الكتب إلى هذا الحد؟

- ولماذا الترجمة؟ لماذا لا نشترك، أنت وأنا، في تأليف كتاب يتألق بقوة الخلق والإبداع؟

- هكذا في مرة واحدة. وكيف تريد أن نحقق هذا اللقاء المستحيل بين الصيدلة والأدب. هل نؤلف كتاباً عنوانه الشعر الحديث والمستحضرات الطبية لعلاج الحروق؟

- دعينى أشرح لك فكرة الكتاب. إنه يتعلق برجل وامرأة. بهما تبدأ الحياة الإنسانية ولا تنتهى. أى أننا سنضع أنفسنا في الجانب المتفائل الذى يقول بأن الحياة ستستمر برغم نبوءة نوستراداموس. وسنعتبر أنفسنا نحن الاثنين ممثلين للجنس البشرى. وبهذا الوعى وهذا التمثل، تحاولين التعبير عن مشاعر امرأة تنتمى إلى كل العصور. طموحها، آمالها، هواجسها، مخاوفها، نظرتها إلى التاريخ، رؤيتها للمستقبل. وبمثل ذلك أكتب أنا تصوراتى، من وجهة نظر الرجل. سوف نستعير أسلوب نوستراداموس في كتابة نبوءاته. فقرات قصيرة. أسلوب ملىء بالتعقيد والغموض.

يمنح الكتاب رهبة وخطورة، ويعكس شيئاً من الغموض الذى يغلف الكون. وسيفتح هذا الغموض الذى يشبه الطلاسم شهية النقاد للاهتمام بالكتاب وشرحه وتفسيره. سنتناوب على كتابة الفقرات. وما أن ننتهى من هذا الكتاب حتى نكون قد وضعنا البشرية على طريق جديد.

- يا له من طموح عظيم. وسوف لن تحتاج إلا إلى أن تقفل عينيك كما كان يفعل نوستراداموس لكى يأتيك الإلهام.

- هذا ما ستفعلينه أنت. أما أنا فأحتاج إلى أن أفتح عينى وأنظر في وجه المرأة التى سأتلقى منها إلهامى.

- ما هذه الروح الجديدة التى تتكلم بها. كأنك لم تكن بالأمس مليئاً بالأحزان والهموم.

- لم يكن ذلك إلا بسبب الحر.

- لم يزدد الحر إلا ضراوة. فما الجديد الذى حدث؟

- سأقول لك سراً، وأطلب منك أن تتكتمى عليه جداً. ان لك أمّا رائعة. ما أن رأيتها حتى قلت في نفسى بأننى لن أجد حماة أفضل منها. ولهذا أريد أن يبقى الموضوع سرّا لكى لا يسبقنى إليها رجل آخر.

- عدت إلى الهزل مرة أخرى.

- إننى أعنى كل كلمة قلتها. وأبلغك أننى بدأت منذ الأمس، وفور خروجى من بيتكم حياة جديدة. طويت صفحة مليئة بخربشات ركيكة غشيمة، وفتحت صفحة بيضاء بلون الحليب.

- هل بدأت تؤلف الأحاجى؟

- هجرت البيت واكتريت بمفردى داراً بقرية الشاطئ السياحى، انتقلت للإقامة بها.

رفعت نحوى وجهاً غادره الصفاء.

- هكذا دون سبب.

- لم أعد أطيق الحياة معها في بيت واحد. واعتبرت هذا، سبباً كافياً للانفصال.

لم أكن قد نقلت لسناء شيئاً مما كان يدور بينى وبين فاطمة خلف أبواب شقتنا. كل ما قلته لها في وقت مضى، هو أن زواجى كان خطأ منذ البداية، وإننى عازم على تصحيح هذا الخطأ. رأيتها متحرجة من هذا الحديث فلم أعد إليه بعد ذلك. وبرغم أنه كان يشكل ضغطاً على ذهنى وأعصابى منذ أول يوم قابلت فيه سناء، إلا أننى تصرفت في حضورها وكأن هذا الزواج ليس له وجود. كان ذلك نوعاً من الخداع

فرضته على نفسى، لكى لا تفسد حقائق الواقع، أوهام اللحظات العذبة. ولكن هذا الزواج كان يلقى بظله على علاقتنا، ويهددها بالاختناق. إنه يسد أمامنا الآفاق، ويملأ لقاءاتنا بذلك التساؤل الصامت عن مصير هذه العلاقة. كنت أخشى أن يأتى يوم قريب وألتفت فأجد أن سناء قد اختفت من حياتى.

لم أكن واثقاً من رد فعلها وأنا أنقل إليها خبر انفصالى عن فاطمة. أعرف أن الطلاق ليس بالضرورة مناسبة للابتهاج، وأعرف أن سناء لن تقوم وتعانقنى تهنئة بهذا القرار. ولذلك أحطت حديثى عن الطلاق بغلاف من الدعابة والحديث العابث عن كتاب وهمى. تهويناً لما حدث، وتخليصاً لها من حرج الموقف. كيف أستطيع أن أفهمها أن هذا الطلاق كان سيحدث حتى لو لم تقتحم هى حياتى كشهاب النور. رأيت أن الحرج مازال يغطى ملامحها فقررت أن ينتهى لقاؤنا عند هذا الحد. إن مقداراً من اللياقة يصبح واجباً في مثل هذه اللحظات. سوف لن ألتقى بها غداً، فهو يوم جمعة، وسيكون ذلك وقتاً كافياً لاستيعاب هذه التحولات.

وفي المساء جاء محمود يحمل مجموعة أخرى من الكتب ويقول أن فاطمة تشك في الحكاية التى رواها عن غيابى، وتتهمه بالتواطؤ معى، وتهدد بإثارة الأعاصير. قلت له:

- ما أكثر الرجال الذين يتمنون الزواج بامرأة مثلها، ولها شقة تشرف على البحر مثل شقتها، فلماذا الجزع؟

- حتى لو تركت لها الشقة فهى لن تتركك.

- أعرف أنها امرأة لم تخلق إلا للزواج وسنتعاون معاً في البحث عن زوج لها.

- فاطمة جوهرة لم تعرف قيمتها. وسوف تندم ذات يوم.

كانت غبشة المساء قد بدأت تذر رمادها فوق البحر، ونحن نتمشى بمحاذاة الشاطئ، بعد أن هدأ سعير النهار. عرفت ونحن نقترب من حوض السباحة، ونرى المناضد التى كانت تصف حوله، أن هذه المنطقة ستكون مكاناً لسهرة غنائية تقام هذه الليلة لسكان القرية، احتفالاً بافتتاح موسم الصيف. لم يكن لدى ما أفعله بعد أن ذهب محمود. فاخترت طاولة بأحد الأطراف وجلست إليها. طلبت عشاء خفيفاً من

الجبن والفاكهة، ومنحت نفسى لرنات الأوتار وحناجر المطربين. التقيت أثناء الحفل بواحد من رفاق السكن واللعب في المدينة القديمة، فأسعدنى كثيراً أن أعثر عليه الآن. لم أكن قد عرفت شيئاً عنه أكثر من أنه سافر إلى الأزهر لاستكمال دراسته الدينية التى بدأها في جامع الباشا. ومضى زمن طويل قبل أن أعرف أن المغنى والملحن المعروف أنور جلال هو ذاته جمعة أبو خطوة الذى انتظرت أن أراه أحد المراجع الدينية في البلاد. شاهدته يتنقل بين الموائد ومنصة العرض، وانتظرته حتى اقترب منى، فناديته مستخدماً اسمه القديم. قال ضاحكاً بعد أن تفحصنى وأدرك من أكون:

- كيف استطعت أن تتذكر هذا الاسم الذى ما عدت أنا شخصياً أذكره.

قلت وأنا أتأمل هذا الشاهد الحى من أيام الطفولة:

- ما أسعدكم يا أهل الفن. تختارون أسماءكم كما تشتهون، في حين نبقى نحن سجناء أسماء لا فضل لنا في اختيارها.

- ولكنكم كثيراً ما ترفضون الاعتراف بأسمائنا الجديدة.

- إننى لا أعرف منك إلا جمعة القديم.

- ألم تصنع لنفسك أنت أيضاً اسماً جديداً، وجعلت الناس يخاطبونك به هو »الدكتور« ؟.

- إنه مجرد عنوان يسرق الاسم القديم ولا يضع مكانه شيئاً.

رآنى أجلس وحيداً، فدعانى لكى انضم إلى مائدته.

- أريد أن أعرف أولاً، كيف تأتى لك أن تتخرج بعد الدراسة الأزهرية محترفاً للغناء والموسيقي ؟.

- وهل تظن ذلك شيئاً غريباً. إننى لم أقم إلا بواجب الوفاء لمدرسة الفنانين العظماء من أمثال الشيخ سلامة والشيخ سيد والشيخ زكريا. كلهم بدءوا بارتداء العمامة وانتهوا إلى صناعة الفن.

كان يتناوب على الجلوس معه عدد من الموسيقيين والمطربين ممن يشاركون في إحياء الحفل. قال لى إنه يتولى الإشراف على الحفلات الفنية التى تقيمها القرية أحياناً، مقابل منحه داراً يقضى بها أيام الصيف.

تناول إبريقاً مليئاً بعصير البرتقال، وسكب لى منه كأساً، قائلاً:

- اشرب واحفظ السر.

لم أنتبه إلى ما كان يقصده بهذا القول، فارتشفت جرعة كبيرة أرسلت في حلقى شظايا من نار. اكتشفت أن عصير البرتقال ليس إلا غلافاً قشرياً للسائل الكحولى الذى ملئوا به الإبريق.

- إن لم تكن تريده فسنأمر لك بكأس برىء.

في حين تمتلئ الدنيا بالكؤوس البريئة فإن كأساً خالياً من البراءة، يصبح مطلباً عزيزاً في هذه المدينة. فكيف يريدنى أن أرفضه. أشرت برأسى موافقاً، راضياً.

- إذن اشرب ولا تخشى الرائحة إن كنت ستقود السيارة. إنها فودكا ولأنها لا تترك رائحة قوية في الفم، صارت أغلى المشروبات الكحولية في السوق السوداء.

أخبرته بأننى أقيم مثله في هذه القرية، فضحك قائلاً:

- إنها فرصة إذن لكى نعيد إحياء دولتنا الوهمية.

كنا قد أنشأنا في حينا ذات مرة دولة وهمية يتناوب على رئاستها عدد من الأولاد، وكان هو أكثرهم معاندة في التنازل عن رئاسته لمن يليه في الدور.

- سقى ا تلك الأيام. كنا نستكثر عليك البقاء زعيماً لدولتنا الوهمية يوماً واحداً إضافياً، فانظر ما يفعله زعماء الدول الوهمية هذه الأيام.

جاءت مطربة جديدة من اكتشاف أنور جلال، تقدم أغنية من ألحانه. تركنا الحديث وانصرفنا لمتابعة الغناء. أعقبها مذيع الحفلة، الذى استهل حديثه بتقديم التحية للفنان أنور جلال باعتباره صاحب الفضل في تنظيم هذا الحفل. صفق له الجمهور فوقف يرد التحية بطريقة مسرحية. ثم رحب المذيع بالضيوف الكبار الذين يحضرون الحفل. رأيت أنور جلال منذ لحظات يهمس له باسمى، فلم أفاجأ عندما أعدنى المذيع من كبار الضيوف.

انتهى الحفل فدعانى لإكمال السهرة في شقته. نظرت إلى الساعة فإذا بها تتجاوز الواحدة. هل ثمة سهر فوق هذا السهر. كانت شهيتى قد تفتحت لمزيد من الشراب. ولكننى لم أشأ أن أكون ضيفاً ثقيلاً. اعتذرت قائلاً بأن المدرسين من

أمثالى عادة ما ينامون قبل الساعة العاشرة. لم يأبه الرجل بما قلت. شبك ذراعه بذراعى وسار بى إلى شقته، في زحمة من أصحابه الفنانين. كان لشقته صالة واسعة تمتلئ بقطع الأثاث، الصالون وطاولة الأكل وأرفف كثيرة عامرة بالأشرطة والأسطوانات وبعض آلات الموسيقى علاوة على أجهزة التلفاز والفيديو. بدا واضحاً أن أهل القرية يكرمون الفن ويمنحون المشرف عليه داراً تشبه بيتاً للإقامة الدائمة. انصرف الفنانون الذين جاءوا لأخذ أغراضهم التى تركوها بالشقة، وبقى ثلاثة رجال وثلاث نساء لإتمام السهرة. لا أعرف منهم سوى رشيد غانم، الصحفي وصاحب البرامج الإذاعية، الذى سبق أن رأيت صورته على شاشة التلفاز. ظننت في البداية أن هؤلاء النسوة هن زوجات الحاضرين. وتنبهت إلى أن إحداهن وهى التى تجلس بجوار صاحب الدار، قد شاركت في الغناء أثناء الحفل. دارت الكؤوس فرأيتهن يشاركن في الشراب وأدركت أنهن لسن زوجات لأحد وإنما رفيقات لعب وسهر. بدأ الحديث بالتعليق على أغنيات الحفلة، ثم تدريجياً وصل إلى المحطة التى توقف عندها، ولم يغادرها حتى نهاية السهرة، وهى النكت الجنسية.

لأول مرة أحضر جلسة تضم رجالاً ونساء، ويقال فيها هذا العدد الذى لا يحصى من النكات والتعليقات الفاحشة. لا أدرى إن كنت قد أبديت ملاحظة تحمل اندهاشاً لما حدث من انفتاح اجتماعى لم أكن واعياً به، إذ سمعت أحد الحاضرين يلقى بتعليقه وهو ينظر نحوى قائلاً:

- إن التقدم يحفر أنفاقه تحت الأرض يا دكتور خليل، أراد من أراد وكره من كره.

قلت مكرراً قوله، كما هى عادتى عندما ينتابنى هذا الكسل العقلى الذى لا أستطيع معه التفكير في شىء جديد أضيفه:

- نعم، نعم. إن التقدم يحفر أنفاقه تحت الأرض.

وها نحن نلتقى وسط هذا النفق الذى تضيئه ثلاث نساء. أدركت أننى الآن أعايش شيئاً من التاريخ السرى للمجتمع. هذا التاريخ الذى لا نسمعه في الإذاعات، ولا نقرأه في الصحف، ولا نشاهده يمشى في الطرقات أو يتجول في الأسواق. إنه تاريخ لا يظهر إلا في الجزء الأخير من الليل. وازددت يقيناً بأننى أشهد هذا التاريخ السرى، عندما بدأ الحاضرون يلحون على أنور جلال أن يغنى لهم تلك الأغنية

السرية التى لا يمكن أن تذيعها الإذاعات أو تلقى تحت أضواء المسارح لأنها لم تؤلف إلا لقاطنى هذه الأنفاق التى يحفرها التقدم. تصف الأغنية رجلاً وامرأة يمارسان الحب أثناء السباحة في مياه البحر. يفترشان الماء ويلتحفان الموج ويحيلان هدير البحر إلى شهقات شبق ولذة. ومزهواً بنفسه أخبرنا رشيد غانم بعد استماعنا إلى الأغنية، أنه هو صاحب الفكرة التى استعان بكاتب أغنيات على صياغتها. وقال تعليقاً على هذا الإنجاز:

- ما هى إلا بذرة خصب صغيرة نزرعها في رحم العقم.

وأمسك الحاضرون بتعبير الرحم والبذرة الصغيرة التى يزرعها فيه رشيد غانم، وجعلوهما موضوعاً لعدد آخر من النكت والتعليقات الجنسية.

وعندما التفت نحوى أحد الحاضرين متسائلاً:

- ألا تقول لنا نكتة يا دكتور خليل؟

أوقعنى في حرج لم ينقذنى منه إلا أنور جلال الذى قال:

- سوف نحتاج إلى بعض الوقت حتى نخرجه من أغلفته الجامعية.

ماذا لو عرفوا أننى كتبت أطروحة جامعية تتصل بالجنس. سأقع عندئذ في مأزق لن ينجينى منه إلا الهروب من هذه السهرة. أراد أحدهم أن يقول شيئاً ولكن صوت المؤذن تدفق من خلال النافذة مجلجلاً يدعو لصلاة الفجر.

نهضت واقفاً، طالباً الإذن بالذهاب. أراد الرجل الذى بجوارى أن يبقينى، ولكن أنور جلال أحاط بذراعه خصر المطربة يسحبها معه إلى غرفة نومه. أنهى السهرة قائلاً:

- وأدرك شهر زاد الصباح.

أيقظنى من نومى جرس ملحاح يأبى أن يتوقف. كان أخى عثمان قد جاء غاضباً لأننى أخفيت عنه ما حدث. لم تكن دوخة النوم والشراب قد تركت لى مزاجاً للنقاش. ولذلك قررت أن استعمل الورقة التى احتفظت بها في كم قميصى طوال هذا الوقت. قلت له أن المرأة عاقر، لأننى فحصت نفسى لدى الأطباء، وعرفت أننى لا أشكو مرضاً. وإن من حقى في هذا العمر أن أحظى بذرية كغيرى من الرجال الأسوياء. كان هذا هو المنطق الوحيد الذى يمكن أن يفهمه،

ولذلك فهو لم يعد يناقشنى في قرار الانفصال بقدر ما صار يطالبنى أن أتريث قليلاً لأتأكد من صحة عقمها. قلت له إننى عاشرتها ثلاث سنوات ونصف، وهى فترة تكفي لإنجاب أكثر مما أريد من أطفال. ولن أحتاج لاختبار بعد هذا الاختبار. ثم أرسلته لمتابعة قضية الطلاق في المحكمة، والدفع بهذه الحجة إذا عاندت فاطمة ورفضت الموافقة على الطلاق.

انتهت الامتحانات كما انتهت مراجعة الكتاب الى سلمناه إلى إدارة الجامعة. لم يعد يهمنى الآن البحث عن ذريعة جديدة للقائها. بات الطريق سانحاً لأن تنمو علاقتنا وتتطور باتجاه الهدف الذى رسمناه لها. سنلتقى منذ الآن لقاء رجل وامرأة يسعيان لبناء حياة مشتركة. هذا ما أقنعت به سناء. ولكن كل شىء يبقى معلقاً بتلك الورقة التى تأذن بإنهاء إجراءات الطلاق، لن أستطيع أن أذهب إليها، أو ألتقى بها، إلا وأنا مسلح بتلك الورقة التى لا أدرى متى تأتى.

- امتى الزمان يسمح يا جميل.

يرن الوتر، ويدور الكأس، وتصنع الأغنية زمناً بديلاً للزمن الذى لا يجىء. صرت عضواً من أعضاء النادى

الفاخر الذى يديره أنور جلال. أمنح نفسى كل ليلة لدوامة السهر الذى يستمر حتى الفجر. وعندما أتأخر قليلاً أجد أنهم قد أرسلوا ورائى، قائلين عندما أحضر:

- لا أحد يستطيع أن يستغنى عن الدكتور.

كان يتناوب على حضور السهرة بعض أصدقاء أنور جلال من أصحاب المراكز الإدارية، أو من رجال الأعمال الذين أممت الدولة شركاتهم، ولكنهم احتفظوا بقصورهم ومزارعهم، كما احتفظوا بنشاط تجارى يقومون به من وراء القانون. مثل تمثيل الشركات الأجنبية التى يقدمون لها الخدمات دون أن تظهر أسماؤهم على الورق. وكان المال يجرى بين أيديهم كما كان قبل التأميم. ولكل واحد منهم مصادره التى يأتى منها بشراب تعددت أنواعه، من الفودكا الروسية إلى النبيذ الاسبانى والويسكى اليابانى. كنت أتردد أحياناً في المجىء إلى السهرة لأننى لم أكن أستطيع أن أنفق مثلهم، ولم أكن أريد أن أبقى عالة عليهم. وكل ما كنت أستطيع تقديمه هو جاب كيس من اللحوم بين الحين والآخر، تتولى إحدى نساء الجلسة تقديمه مشوياً مع الشراب، وهو دور غالباً ما تقوم به سعاد التى ترافق أنور جلال وتقيم معه

في شقته، فهى أكثر نساء السهرة ملاحة، وأقربهن إلى الفن باعتبارها غنت منذ أيام أولى أغانيها. أما الأخريات فقد كن يأتين ويذهبن، ولم يكن رواد السهرة يجدون حرجاً في التناوب على مصاحبتهن. كان متيسراً لى أن أحظى بليلة مع إحداهن، بعد أن صرت شريكاً أصيلاً في ولائم الضحك واللعب والطرب. ولكن قلبى كان منذوراً لامرأة أخرى، فعزفت عن مزاحمة الآخرين في نساء السهرة. ورأت إحدى هؤلاء النسوة أن عضويتى في هذا النادى ستبقى ناقصة ما لم أتم هذا الشرط، فجاءت تساعدنى على إنجاز الورقة الناقصة في ملف العضوية. كانت النتيجة مواجهة محرجة، خرجت منها هارباً مهزوماً. حدث ذلك عندما جئت مبكراً إلى شقة أنور جلال. ظننت أننى سألقاه بمفرده لكى نتحدث عن ذكرياتنا، قبل أن يغمرنا صخب الساهرين. كنت لأمر ما أحس أنه يعانى شعوراً بالوحدة، وإنه ما أصر على بقائى معه إلا لأنه يرانى أمثل شيئاً ينتمى إلى عصر البراءة القديمة التى ضاعت مع ضياع أزمنة الطفولة. كنت أدرك أن ما أراه لم يكن إلا القشرة، وإنه خلف قشرة أنور جلال، يختفي جمعة أبو خطوة الذى أريد أن أتواصل معه،

وأستحضر بهذا التواصل عالماً قديماً يختفي خلف دخان الزمان. كنت قد عرفت أن له زوجة وأطفالاً. لم أره يذهب إليهم ولم أستطع أثناء السهرة أن أسأله عنهم، أو عن أهله الذين عرفتهم، أو رفاق الطفولة الذين يذكرهم، فجئت مبكراً لأراه.

لم أجد أنور جلال، وإنما وجدت رفيقته سعاد تجلس بمفردها، تشاهد شريطاً في جهاز الفيديو، وتضع أمامها كأساً من الشراب. وما إن رأتنى حتى أطفأت الجهاز قائلة:

- هذا ثالث فيلم أشاهده ومع ذلك فإن السأم يقتلنى.

- هذا دليل الموهبة، فالفن لا يسكن عادة إلا الأرواح القلقة. أين أنور جلال؟

- ذهب لتسجيل لحنه الجديد، وسيعود متأخراً هذه الليلة، ولكن السهرة سوف تستمر كالعادة.

جلسنا صامتين. لم أجد ما أقوله سوى كلمات ثناء على أسلوب تصفيفها لشعرها، الذى لم تتركه هذه المرة منكوشاً كعادتها. ثم أضفت بعض الثناء على البنطلون الذى كان يلتصق بجسمها. ضحكت باستهتار قائلة بأنها على استعداد لأن تخلعه الآن وتقدمه هدية لى، طالما أنه أعجبنى إلى هذا

الحد. ثم اقتربت منى ورفعت ذراعاً عارياً، أحاطت به عنقى قائلة بجرأة فاجأتنى:

- ما رأيك لو قلت لك أن بنطلونك أيضا يعجبنى.

كانت أنفاسها الممزوجة برائحة الخمر تلفح وجهى، وأصابعها التى تتحسس البنطلون، تصنع توتراً يهز بدنى. وبصوت هامس كالفحيح قالت:

- لماذا لا تكن كريماً وتخلعه الآن من أجلى.

كنت مرتبكاً. لا أدرى ماذا أقول أو أفعل. ومهما كانت امرأة عامة تبيع الهوى لزبائن البحر، فهى تصاحب الرجل وتقيم في شقته. واصلت فحيحها المهلك وهى تلصق جسمها بجسمى وتمنح أصابعها حرية الانتقال فوق قماش البنطلون كما تشاء:

- ماذا؟ هل صعد مع جسمك تيار الكهرباء.

وبرغم تيار الكهرباء الذى يصعقنى، فإننى لم أشأ أن أخذل الرجل الذى استضافنى وأكرم وفادتى. انتشلت جسمى من أحضانها واندفعت خارج الشقة. لم أعد ليلاً لحضور السهرة. هربت من مواجهة المرأة، وخشيت أن يفضحنى ارتباكى عندما ألتقى بها. نمت مبكراً، وصحوت مبكراً

لأذهب إلى السوق أشترى هدية لسناء وأمها. سأذهب هذه المرة إلى بيت سناء خاطباً. لم تكن ورقة الطلاق قد جاءت، ولكن فاطمة أرسلت تطلب أن أتنازل لها عن ملكية الشقة. كان هذا هو شرطها الأخير. كنت أعرف أن قضيتها خاسرة دون التفريط في هذه الشقة، ولكننى رغبة في الإسراع بإجراءات الطلاق، أرسلت لها وثيقة التنازل وذهبت إلى مبنى المحاكم أستعجل الانتهاء من هذه القضية. كنت قد اتفقت مع سناء بأن زيارتى القادمة إلى بيتها ستكون من أجل هدف واحد هو أن نقدم للمجتمع الرابطة التى يريدها والتى تتيح لنا أن نلتقى دون حرج أو عناء. طلبت منها أن تمهد لى الطريق إلى قلب أمها وتزكينى لديها فأنا أريد أن أكسبها أماً لى بمثل ما هى أمها. حمدت ا أنه لم يعد لديها أعمام يهمهم أمرها بعد أن قاطعوا والدها. أعفانى ذلك من الدخول في شبكة من التعقيدات والاعتبارات العائلية، لا أحد يتنبأ بنتائجها. كان كل ما قالته الأم عندما وصلت إلى البيت أحمل صندوق الهدايا الذى يحتوى رداء حرير لها وفساتين لابنتها، وأسألها أن تعتبرنى ابنها وتضمنى إلى عائلتها وترضى بى خطيباً لابنتها، هو أنه لا رأى لها مع رأى سناء في اختيار

الرجل الذى يشاركها حياتها، وأكثرت من كلمات الترحيب التى أبهجتنى. اتفقنا على الخطوبة التى سنبدأ نهيئ لحفل إعلانها، ولم أجد حرجاً في أن أسأل الأم أن توافق على خروج ابنتها معى إلى الشاطئ. أبدت الأم تحفظاً على هذه الفكرة، لأنها لا تريد أن تفتح باباً لكلام الناس، ولكن سناء التى ضاقت بقضاء أيام الصيف داخل جدران البيت اقترحت أن نذهب بصحبة أخيها خالد، توسلت لأمها كثيراً حتى وافقت بشرط أن تعود إلى البيت قبل غروب الشمس. سعيد بالنتيجة التى وصلت إليها، وبالعلاقة التى تباركها الشمس حتى موعد غروبها، أخذت سناء وخالد في سيارتى وانطلقت بهما إلى قرية الشاطئ السياحى. ومشتاقة إلى البحر الذى طال غيابها عنه، أبدلت بسرعة ملابسها، فـ ـأضاف لباس البحر إلى جمالها المصنوع من مادة الأحلام والأساطير، طابعاً أيروسياً يقدح شرارات الغواية والفتنة. لم تشأ أن تذهب إلى حوض السباحة الذى سبقنا إليه أخوها، والذى تزاحم حوله الناس الهاربون من الشاطئ الصخرى، وإنما ركضت باتجاه البحر ودخلت مباشرة إلى مياهه العميقة. بقيت أنا أسبح في المياه الآمنة التى لا تتجاوز مستوى العنق.

ووجدت كرة طافية فوق الماء، سهى عنها الولد الذى كان يلعب بها، فتناولتها عابثاً ورميت بها إلى سناء. جاءت تركب موجة عالية لتتلقاها، هربت الكرة فركبت موجة أخرى إليها. ذهبت أنا أيضاً أخوض الماء باتجاه الكرة، حتى وصلنا إليها في وقت واحد. صرنا نتعارك حول من يفوز بها. والأمواج تتدافع من حولنا وترمى بنا الواحد في حضن الآخر. غمرت جسمى نشوة الالتصاق بجسمها. أطلت معها العراك فلم أجد منها نفوراً، ولم أسمع إلا رنين الضحكات. كلانا كان متواطئاً مع الآخر، مستمتعاً بهذا الاشتباك اللذيذ الذى تمنحه براءة اللعب، غطاء يمنع الحرج والخجل. ولكن الحرج جاء عندما استيقظت في ذهنى أغنية أنور جلال عن ممارسة الحب فوق سرير البحر. أغمضت عينى أحارب الأغنية وأطردها من رأسى. فازت سناء بالكرة وذهبت بها بعيداً عنى. ولكن جياد الرغبة في دمى ظلت تواصل صهيلها، وأنا أرى سناء تدفع الماء بصدرها، وأتابع نهديها يركضان فوق الماء. انتهى اللعب واستعاد الطفل الكرة. خرجت معها إلى الشاطئ وارتميت معها فوق الرمل. طرحت هى منديلاً وتمددت فوقه تمنح جسمها طعاماً للشمس. والرجال الذين

يمرون بجوارنا يقفون لحظة يتطلعون إليها باندهاش ثم يمضون. كانت هى تسبل رموش عينيها ولا ترى أحداً. بينما كنت أدير نظرى إليهم دون أن أحس بأى ضيق منهم، يكفي أننى فزت بها دونهم، ولم تبق لهم إلا هذه النظرات المصحوبة بالحسرة والألم.

كنت قد أخبرت محمود بعزمى على أن أذهب طالباً يدها، فجاء منذ يومين يسحب معه أخى الذى تكلم بصوت السلطة العائلية، واستعار حنجرة أب مات منذ خمسة أعوام، قائلاً:

- لعلك غافل عن الدنيا، ولكننا سمعنا عن الفتاة وأهلها ما يؤكد أنها زيجة لا تنفع لنا.

قلت ساخراً من منطقه:

- ولكنها تنفع لى.

- ألا تهمك سمعتك وسمعة العائلة؟

- ما الذى يضير العائلة عندما أتزوج أستاذة جامعية؟

- وهل يمحو الذهاب إلى الجامعة سمعة أم اشتغلت راقصة بالملاهى الليلية.

تعلمت منذ أمد مضى، أن أضبط أعصابى في مواجهة المتحدثين بلسان المجتمع وطقوسه.

- دعك من أمها. هل وصلك أى شىء يمس سلوك سناء؟

- قل له يا دكتور محمود.

تدخل محمود قائلاً:

- إنه أدرى بالشائعات التى يروجونها عنها، فلا دخان بلا نار.

- ليس هناك دخان ولا نار. إن هى إلا أقوال رجال موتورين، أرادوا نيلها فلم يجدوا لذلك سبيلاً.

ضحك أخى هازئاً قبل أن يقول:

- ومن أدراك أنهم لم يجدوا إلى نيلها سبيلاً.

- إنك أكثر عقلاً ونبلاً من أن تقول كلاماً كهذا عنها.

- ألم تسأل نفسك لماذا، وبرغم جمالها، لم يتقدم أحد للزواج منها رغم اقترابها من سن الثلاثين.

- انتهى الزمان الذى يزوجون فيه البنات قبل سن البلوغ. ثم أنك لا تريد لرجل مثلى أن يبحث عن فتاة في نصف عمره يتزوجها. إن عمرها يناسبنى.

تعمدت أن أتحدث بانفعال عن قضية السن، رغبة في إهمال وتتفية القضية الأساسية التى جاءا لزيارتى من أجلها. لا أدرى إن كانا سيقاطعاننى كما حدث لوالدها عندما تعرض لقطيعة أهله. سوف لن أشغل نفسى بأقوالهما. ولن أسمح لأحد في الدنيا أن يتخدل للتفريق بينى وبينها، وها هى الآن تتمدد بجوارى، وقد أغمضت، كالبهجة النائمة، عينيها، ونشرت فوق الرمل ذراعيها، ووضعت رأسها فوق منديل يغطى مساحة صغيرة لا تتسع لغير الشعر الذى طوت حوله أطراف المنديل، في حين منحت جسمها لنعومة الرمل وسخونته، اكتشفت أن يدى تتحرك فوق الرمل سائرة إليها. سأمررها فوق مخمل ساقها العارى، وسيطفئ ذلك حرقة هذه الأصابع التى تمد أعناقها عطشاً إليها. قمعت يدى وأرجعتها إلى مكانها. جلست أتأمل الجسد الذي ينفث في صمت سحره القاتل. تناثرت حبات الرمل فوق فخذيها، وارتطمت ليونة الجسم بليونة الرمل تصنع مشهداً يحفل بالبذخ والثراء. مائدة من موائد الجنة ألقت بها الملائكة في هذا المكان. كان لباس البحر الذى ترتديه، داكن السواد، فظهر التباين بينه وبين لون البشرة التى انعكست عليها أشعة الشمس وتوهج من حولها

الرمل الأحمر، موحياً بأفكار تنبت أشجار النار في القلب. تحول الرمل إلى سحابة حمراء منسوجة بخيوط اللوعة والأسى. من قال أننى حقاً فزت بهذا كله. إننى مازلت أراها حلماً، وأمنية فوق مستوى التحقيق.

- إننى إنسان هالك لا محالة.

لا أدرى إن كنت قد قلت هذه الكلمات بصوت عال وصل إلى مسامعها، أو أن ما سمعته هو الآهة التى رافقت هذه الجملة، فقد رفعت رأسها، وبعينين يمتلآن بخدر النعاس، نظرت نحوى تسألنى إن كنت قد قلت لها شيئاً.

قلت بسرعة أدارى بها خجلى:

- أخشى عليك حرارة الشمس.

لم يكن هذا الخوف مبرراً، فقد بدأت الشمس انحدارها البطىء نحو البحر. وانتصبت سناء واقفة، تنفض عن جسمها حبات الرمل. انتهى النهار، وحان موعد عودتها إلى البيت. أوصلتها ورجعت إلى دارى أقضى بها الليل أقرأ كتبى دون أن أفكر في الذهاب إلى سهرة أنور جلال. كنت أملك فائضاً من الفرح يجعلنى زاهداً في أية متعة أخرى. إننى كمن تناول فاكهة نادرة في غير موسمها، ولم يشأ أن يتناول شيئاً آخر

يفسد مذاقها في فمه. كان أنور جلال قد أرسل في طلبى، وأبلغت رسوله بأننى سأكون مشغولاً بتصحيح الامتحانات. قلت له ذلك لكى أمنح نفسى لهذه الساعات التى أقضيها بصحبة سناء، فلا أنشغل بشىء آخر سواها.

أدخلت سناء لمسة أناقة وأنوثة إلى هذه الإقامة السياحية. وضعت نبتة خضراء بأحد أركان الصالون، وجاءت بتمثال صغير لراقصة هندية من راقصات المعابد، تحمل مظلة تحتها مصباح كهربائى، وضعته في ركن آخر. ووضعت فوق كراسى الصالون وسائد صغيرة مزينة بأسماك حريرية من شغل أمها، ووجدت ركناً لأرفف مصنوعة من سعف النخيل وضعت فوقها الكتب والمجلات وأشرطة الأغانى التى تحبها. ملأت كل الفراغات وصنعت غلافاً دافئاً وحنوناً يغطى الجدران العارية، بما في ذلك مرآة مزينة بإطار خشبى يحمل نقوشاً شعبية يتفاءل بها الناس، مثل الأسماك والأهلة وأصابع اليد المفتوحة. وصارت تتعهد الدار برعايتها، تسقى شجيرتها، وتملأ الطبق الذى يتوسط الصالون بكل ما يتيحه الصيف من أنواع الفاكهة، عنب وتين وبرقوق ومشمش وخوخ وشمام، فاكتسبت الشقة طابعاً جديداً

ونكهة جديدة. وانتزعنا لأنفسنا أرضاً فوق الجزء الرملى من الشاطئ، جعلناها مكاناً لنا، وغرسنا بها شمسية أبقيناها طوال الوقت هناك. نأخذ عندما نذهب إليها مسجلة، وتُرمساً مليئا بالقهوة، ونستريح بين حصص السباحة في ظلها. وكانت سناء تضيف فتنة جديدة إلى فتنتها مع كل يوم يمر. ارتوت بشرتها برحيق الشمس فاكتست بلون خمرى يصدر وهجاً، ويتوغل بإحساساته الموجعة في شرايينى، فأحزن كل يوم لفراقها الذى ارتبط بمغيب الشمس، وكأن بينها وبين الشمس اتفاقاً سرياً يجعل الشمس تسرع إلى مغيبها. أنظر بانكسار إليها وهى تختفي وراء البحر، وأنتظر بقلق شروقها في اليوم التالى وكأن بى خوفاً أن تمتنع ذات يوم عن الشروق.

حان في نهاية الأسبوع موعد لحفل آخر تقيمه القرية لقاطنيها. سيكون هذه المرة سهرة مع الفنون الشعبية. أردت من سناء أن تحضر الحفل معى، وطلبت منها أن تأخذ إذناً من أمها. عادت في اليوم التالى لتقول بأن أمها أيضاً سوف تحضر الحفل معنا. جاءت ليلة السهرة واجتمعنا نحن الأربعة حول مائدة في المنطقة المحاذية لحوض السباحة. كان الحفل مصحوباً بعشاء من السمك. جاءوا بالمواقد ووضعوا بقربها

أحواضاً، يحتوى كل منها على نوع من أنواع السمك. بعضه مازال حياً يتحرك في مياه الأحواض، ونصبوا شبكة من شباك الصيادين علقوا بها أسماكاً أخرى من ذوات الأصداف، بحيث يتولى الزبائن اختيار ما يريدونه منها ليطهى أو يشوى أو يقلى أمامهم. ومدوا فوق المكان أسلاكاً تتدلى منها المصابيح الملونة. كان جواً احتفالياً عامراً بالزخارف والألوان. امتلأ حوض السباحة بالماء فانعكست فوقه أضواء المصابيح تضيف ألواناً مضيئة تنبعث من صفاء الحجر والماء. وارتدت سناء قفطاناً صيفياً له حزام يضغط على ضمور الخصر، وردى اللون، مزداناً بأزرار كبيرة بيضاء. وأرخت شعرها فوق كتفيها، أسود، ناعماً، يلمع تحت الأضواء. رآنى أنور جلال أجلس بصحبة العائلة بانتظار أن ينتهى الطهاة من إعداد طعامنا، فجاء للتحية. دعوته أن يجلس قليلاً معنا، وقدمته إلى سناء وأمها وأخيها، فأبدوا جميعهم اهتماماً به، وعبروا عن إعجابهم بألحانه وأغانيه وسألوه عن برنامج السهرة الفنية، فأجاب باقتضاب:

- انتظروا مفاجأة هذه الليلة.

قال جملته الغامضة، واستأذن عائداً للاهتمام بإعداد الحفل. وجاء الطعام فأسرفت في تناول جراد البحر، الذى لم أكن ألقاه عندما أبحث عنه في الأسواق والمطاعم، واعتبرتها ليلة استثنائية بكل المقاييس. لم تكن الفرقة التى جاءت لإحياء الحفل هى فرقة الفنون الشعبية التى توقعناها، وإنما فرقة من فرق العيساوية ودراويش الزوايا والموالد. يرتدون الجلاليب الخضراء، ولا يستعملون من آلات الموسيقى سوى الدفوف والصاجات. بدءوا بالتواشيح والتسابيح والمدائح والابتهالات الدينية، وواصلوا ترديدها دون تنويع. وضعوا بجوارهم مجمرة صغيرة لتسخين الدفوف، ثم أحرقوا بها بخوراً صار يتصاعد عبيره مختلطاً برائحة الأسماك، يمنح المكان نكهة غريبة مدوخة. وبدا لى المشهد كأنه جزء من طقوس عبادة بدائية.

مضى الوقت بطيئاً وأعضاء الفرقة يتمايلون مع إيقاع الدفوف، ويتطوحون شمالاً ويميناً برؤوس أثقلها الخدر. أحسست بالضجر وأنا أستمع إلى هذه النغمات التى تتواتر في رتابة وتكرار. بدأ النعاس يراودنى، ولم أجد صيغة أنقل بها إلى سناء وأسرتها، اقتراحاً بأن ننصرف، فالحفل مازال

في بدايته والليل في أوله. بقيت محرجاً أقاوم النعاس وأنظر إلى ساعتى، ولكن الإيقاع فجأة تحول إلى النقيض. انهمرت الأكف تضرب الدفوف بعنف وقوة. اختفت المدائح والابتهالات الممطوطة البطيئة التى لم تكن إلا مراوغة وتحايلاً على أعصابنا حتى تركن إلى سباتها ليمكن بعد ذلك مباغتتها بهذه العاصفة القوية من الإيقاعات التى انهالت تضرب الذاكرة وتطرد النعاس وتصيب المراكز العصبية بحالة من التوتر والانفعال، ومعها كانت ترتفع آهات ملتاعة تقول:

- ا حى، ا حى.

خرج من بينهم رجل صنعوا من حوله نصف دائرة وصاروا يرقصون رقصاً سريعاً يتفق مع سرعة الإيقاع، والرجل الذى انفصل عنهم تحول إلى كائن هستيرى يقفز في الهواء ويطلق صرخات كالعواء وينطح الدف برأسه كالمجنون. تزحزحت الموائد تفسح مكاناً للمشاركين في حلقة الذكر من زبائن السهرة الذين أصابهم الرجل الراقص بالعدوى. كان الرجل قد خلع جبته وبقى في سروال أبيض فضفاض وقد تعرى نصفه الأعلى. اختفي الدف الذى كان في

يده وحلت مكانه سكينة كبيرة تشبه سيفاً، تلمع تحت ضوء المصابيح. الرغوة تغطى فمه والعرق ينز لامعاً فوق جسمه العارى. أمسك السكينة بكلتا يديه وقفز في الهواء قفزة عالية، ورشق السكينة بقوة في بطنه وهو يصرخ:

- حى.

تعالت الصرخات والشهقات ممن ظنوا أن الرجل يقدم مشهداً انتحارياً، ولكنه واصل الرقص، والسكينة مغروسة في بطنه. ثم انضم إليه رجال آخرون يقومون بمثل ما قام به. يصرخون يقفزون في الهواء ويرشقون السكاكين في بطونهم وخاصراتهم، والعزف يتدفق بذات العنف والقوة والجو تغمره كهرباء تجعل أغلب الحاضرين يناسقون وراء الجنون الذى يضج به المكان ويشاركون أهل الفرقة الرقص والصراخ.

- ا حى.

ومسحوباً بقوة لم أستطع لها ردعاً وجدت نفسى أترك الكرسى وأنضم إلى الرقص مع المجاذيب، تداهمنى إيقاعات الدفوف بأمواجها العالية، فأرتفع وأهبط مع ارتفاعها وهبوطها، غارقاً في دوامة الهوس والدوار، أرمى بجسمى شمالاً ويميناً وأقذف برأسى في الهواء هاتفاً مع الهاتفين:

- ا حى.

رأيت حوض السباحة مقلوباً ومعلقاً في السماء. تداخلت مصابيح الكهرباء مع رؤوس الرجال والنساء فرأيتهم جميعاً يتحولون إلى كرات مضيئة تطفو في الهواء. والقوة الغريبة التى تشدنى وتطوف بى لا تترك لى سبيلاً للوقوف. لا أملك إلا أن أدور وأدور، ومعى تدور الأرض والسماء والأبنية والبشر والموائد والأسماك والدفوف والأشجار السوداء. يد خفية تشدنى وتأبى أن تتركنى أعود إلى الجلوس في مكانى. تحولت الأشياء التى حولى إلى كتلة معجونة بالدخان ورائحة البخور والأسماك. أغمض عينى بأمل أن تتوقف كرة الأشياء المعجونة عن الدوران، وأفتحهما لأتفادى الارتطام بالموائد أو السقوط في حوض السباحة، فأجد أن الكرة ما تزال تدور وأنا أدور مشدوداً إليها. كنت أريد أن أستنجد بأحد الحاضرين كى يأتى لإنقاذى، ولكن صوتى لا يسعفنى وما عدت أملك سيطرة على نفسى. أحسست بأقدامى تتداعى، وأنا أترنح أحاول أن أمنع نفسى من الارتطام بالأشياء التى حولى. شحبت الأضواء، تلاشت الوجوه، أطلقت صرخة رعب وأنا أرى كرة الأشياء المعجونة

تضربنى وترمى بى إلى الأرض. ركض نحوى الشيخ الصادق أبو الخيرات منزعجاً. كان يرتدى برنساً أخضر يغطى رأسه ويفيض على جسده، في يده مسبحة الكهرمان وعلى لسانه كلمات المواساة. انحنى يرفعنى من فوق الأرض ويقودنى عبر طريق تفرشه الأعشاب إلى حانة واسعة تضج بالطرب والرقص وتمتلئ برجال أثملهم الشراب فصاروا يصفقون ويطلقون صيحات الإعجاب. استغربت وجود هذه الحانة في مدينة تمنع الخمور وتحظر فتح الخانات. وقف بى الشيخ وسط فرقة الراقصات اللاتى يرتدين حلل الرقص الشرقى التى تكشف عن سيقانهن وأفخاذهن. ومن حولهن بعض زبائن الحانة يشاركونهن الرقص ويطالبون الشيخ الصادق بالانضمام إليهم. تركنى واقفاً وانبرى للرقص مظهراً براعة فائقة وإتقاناً لأساليب الرقص الحديث. جذب إليه إحدى الراقصات، يشبك يده في يدها ويرقص معها. اكتشفت وأنا أراقب رقصها أنها ليست إلا سناء جاءت ترتدى هذه البذلة وتحترف هذه المهنة. حاولت أن أكلمها لأعرف سبب وجودها في هذا المكان. فأنكرتنى ورفضت التعرف إلى. أردت أن أصرخ في وجهها محتجاً غاضباً، ولكن الشيخ

الصادق أشار بأن أنخرط مثله في الرقص دون كلام. حاولت أن أرقص فتعثرت وانهرت فوق الأرض. جاء الراقصون يدقون بأقدامهم فوق جسمى. صرخت وضاع صراخى في ضجة الطبول والتصفيق وصيحات السكارى. وزاحفاً فوق الأرض وصلت إلى باب الحانة وخرجت هارباً. خرج ورائى زبائن الحانة وجرسوناتها وراقصاتها، يطاردوننى وأنا أعدو وسط أرض خلاء. لحقوا بى فصاروا يمزقوننى ويتناهبون أطرافي، وكلما أخذوا جزءاً من جسمى صرخت:

- أعيدوا لى يدى.

- أعيدوا لى ذراعى.

- أعيدوا لى قدمى.

- أعيدوا لى رأسى.

ولكن الأجزاء المنهوبة من جسدى لاتعود. كانوا يقذفون بها في الهواء فتظل طافية هناك لا تسقط ولا تختفي ولا أجد سبيلاً للحاق بها.

رأيت دخاناً أبيض يحيط بى، كأننى ملقى في جوف سحابة. كانت أطرافي قد عادت إلى جسمى والتأمت ببعضها البعض. رأيت من خلال الدخان الذى صار يتبدد شيئاً فشيئاً،

مصباحاً معلقاً فوق رأسى. انتبهت إلى أن المصباح يتدلى من سقف ناصع البياض، وأن امرأة بثياب بيضاء تقف مباشرة أمام وجهى، تلتقط القطن من كيس الورق وتضعه فوق رأسى، ثم تأخذ لفافة الشاش الأبيض تغطيه بها. حاولت أن أقبض على شتات هذه الصور والأفكار التى تأبى أن تنتظم في نسق مفهوم. كان رأسى قد امتلأ بضجيج الدفوف فبدا السكون في هذه الغرفة غريباً. لصبغة اليود رائحة ثقيلة تأكل الهواء النظيف الذى حولى. أتنفس بقوة، فيوقظ الشهيق والزفير وجعاً في رأسى. أنتبه إلى خيط الدم الذى يلوث قميصى. ومفزوعاً أنظر إلى الوجوه التى أحاطت بى. رأيت سناء وأمها وأخيها، وأنور جلال وأحد أعوانه، يعلقون أبصارهم بى. حاولت أن أقف فمنعتنى الممرضة ذات الملامح الصينية قائلة:

- ستذهب بعد قليل. انتظر لحظة واحدة.

قالتها بلغة انجليزية فصيحة بدت لى غير متوافقة مع ضيق عينيها. تقدم أنور جلال يضع رأسه قريباً منى، وعلى وجهه ابتسامة أزالت شيئاً من فزعى، يقول لى هامساً بأنها مجرد كدمة بسيطة، وأن ما حدث لى حدث لآخرين غيرى

وقعوا مغمياً عليهم أثناء حفلة الأذكار. ولكن كيف لم أرهم يزورون معى تلك الحانة ويقعون مثلى ضحية جمهور يطاردهم ويتخاطف أطرافهم، يقذف بها في الهواء؟ ومتكئاً عليهم غادرت العيادة عائداً إلى غرفتى. ابتلعت حبتى دواء أعطتهما لى سناء فنمت نوماً عميقاً بلا كوابيس ولا أوجاع.

لم أفق حتى الضحى عندما جاء أنور جلال يوقظنى. يطمئن على حالتى ويمضى. عرفت منه أنه أوصل سناء وأهلها إلى بيتهم بعد أن سهروا قليلاً بجوارى حتى أخذنى النوم. تركت السرير وحاولت أن أطرد التعب الذى أحس به، بالماء البارد أرشه على وجهى وأطرافي. رأيت في المرآة أن العصابة التى تلف رأسى ملوثة بقطرات من الدم. ووجهى شاحب تغطيه كآبة المرض. كان مشهد الليلة الماضية مازال يملأ رأسى، ومازلت لا أجد تفسيراً لهذا العطب الذى لحق بإرادتى فتعطلت عن العمل وأسلمتنى إلى هذه القوة الغريبة القادمة من فرقة الأذكار وعوالمها السحرية. تأخذنى وتدور بى في دوامتها، عاجزاً على التحكم في أطرافي وكأننى في حالة انفلات من قوانين الجاذبية. كنت ساخطاً على نفسى. خائفاً من أن تكون الأمراض التى ابتليت بها في زمن مضى

قد جاءت تطالب بأخذى إلى أرضها الموحشة. أفكر في سناء وفيما إذا كان هذا الحادث قد أفزعها وأفزع أهلها فصاروا لا يطمئنون إلى سلامة عقلى. وقفت في الشرفة أتطلع إلى خيط الأفق الذى يربط السماء بالبحر. إلى الأبنية الغارقة في الصمت وضوء الشمس، وتصورت الخواء الذى سيعم الكون لو أن حياتى خلت من سناء. سوف لن يحدث هذا. يجب أن أعمل بقوة لكى لا يحدث. إن الخطوبة التى اتفقنا عليها ولم نعلنها يجب أن نعلنها الآن. سأضع الخاتم الذى يحمل الحرف الأول من اسمها في إصبعى، ليكون تحصيناً لى من المرض، ورابطة تمنحنى قدراً من الأمان الذى احتاجه قبل أن يأتى موعد الزفاف.

أكملت حلاقة وجهى، وغسلته بماء الكولونيا توسلاً لتحقيق شىء من الانتعاش. أبدلت ملابسى وأخذت سيارتى وذهبت إلى بيت سناء. رأيت القلق في عينيها فطمأنتها إلى أننى تعافيت تماماً من آثار الليلة الماضية. وجلست معها في الصالون قبل أن تأتى أمها أخبرها بما جئت من أجله. إنها وحدها من سيطرد المرض من حياتى ويعيد أجزائى المبعثرة إلى بعضها البعض. لو فقدتها لتمكنت منى أمراض الروح،

ولجاء زبائن وجرسونات الحانات يطاردوننى ويتخاطفون أطرافي. لم أخرج من بيتها حتى اتفقنا على إعلان الخطوبة فور الانتهاء من الإعداد لها. وفي نهاية الأسبوع أقمنا حفلاً صغيراً في بيتها، وجلست في كرسى الفوتيل بجوارها، أضع في إصبعها خاتم الخطوبة وتلبسنى خاتمى. تجلت سناء في أبهى زينتها. الكحل في عينيها وقلادة الذهب فوق صدرها والثوب الموشاة حواشيه بخيوط فضية، يصنع دائرة مشعة حولها. دعت إلى الحفل بعض صاحباتها، ودعت الأم جيرانها، واصطحبت معى أنور جلال الذى جاء بعوده وزميل من أصحابه المطربين يقومان بإحياء الحفل.

في اليوم التالى لإعلان الخطوبة أمسكت بيدها ألثمها، ثم رفعت رأسى أسألها أن تمنح الإذن لخطيبها بأن يقبلها.

كانت قد ارتدت المايوه، ووقفت وسط الصالون تعلق المنشفة على كتفها، استعداداً للنزول إلى البحر. رأيتها أمامى تمثالاً من البهجة والأنوثة، فأردت أن أحتويها بين ذراعى، أقبلها وأمرغ وجهى في بهاء شعرها ولكننى تهيبت أن أفعل ذلك قبل أن أستأذنها.

- ألا تصبر حتى يتم الزواج.

كنت في تلك اللحظة أتساءل كيف تستطيع المرأة التى تحب أن تقمع عواطفها بكل هذه القوة. هل تكذب علوم البيولوجيا التى تقول بأن الرغبة الجسدية لدى الذكر لا تختلف عن رغبة الأنثى. لماذا لا يحرقها الشوق لمثل هذا العناق كما يحرقنى؟ ولماذا لا ترتعش رغبة كارتعاشى؟ ومن أين تأتى بهذه القوة، للسيطرة على انفعالاتها، والامتناع عن الاستجابة لنداء الدم في عروقها ؟. رأتنى مهموماً فاستسلمت قائلة:

- ولكن ليس أكثر من ذلك.

منحتنى شفتيها. قبلتها لأول مرة منذ أن التقيت بها خارج مدينة الحلم. دخلت قصراً مسحوراً، مبنياً فوق سحابة تطوف بين النجوم، وشربت من خمرة لا تسكبها في كأس الجسد إلا آلهة العشق. تفجرت غريزتها الأنثوية وهى تمنحنى شفتيها، حارقتين لاذعتين مليئتين بشهوة الحياة وصبوتها. قابلت سناء الشوق الذى جئت أحمله لها بشوق أكثر سخونة ولهفة، وبدا لى غريباً كيف كانت تتردد وتمتنع وهى تحمل في شفتيها كل هذا العنف.

وضعت يدى في يدها وركضنا إلى البحر نعانق موجة ضاحكة جاءت تركض نحونا.

- هل هذه أول قبلة تتبادلها سناء مع رجل؟

لا أدرى لماذا سألت نفسى هذا السؤال فور انحسار الموجة، وانتهاء السحر الذى أشاعته في بدنى لحظة العناق. لقد دخلت معى سناء طقوس هذه القبلة بكل ما رافقها من قوة العاطفة وتوهجها. ولكن السؤال كان خالياً من كرم المشاعر وسخائها. سؤال بائس، لا حاجة بى لأن أقوله الآن بعد أن وضعت في إصبعها خاتم الخطوبة، تدشينا لعصر جديد بدأناه منذ نهار الأمس.

تذكرت أن كلمة »حب« لم ترد أبداً في حديثها. أنا الذى أقول هذه الكلمة أحياناً، بمثل ما فعلت منذ لحظات عندما عانقتها. في حين تتوارى هى خلف غلالة الخجل الذى يغطى ملامحها في لحظات البوح والمكاشفة، تاركة الحديث عن الحب لتلك الإشارات الأنثوية الخفية التى أتلقاها كأنها رسالة مكتوبة بشفرة سرية لا يستطيع تفسيرها إلا القلب.

وحاملاً لهفتى معى كنت أذهب كل صباح لإحضارها. انتهت التعليمات التى تقضى بأن يرافقها مندوب العائلة، أو

الأخرى التى تحدد ساعات الخروج والعودة. اتسع المدى، يصنع زمناً جديداً طازجاً لا علاقة له بالزمن الذى يستهلك نفسه خارجنا.

لم أكن قد دعوت أخى إلى حفلة الخطوبة، كما أننى لم أبحث عنه بعدها لأخبره بها. قررت أن الرجل الوحيد الذى تعنيه هذه الخطوبة هو الشيخ الصادق أبو الخيرات، فهو صاحب الفضل في اهتدائى إلى هذه المرأة. تأخرت كثيراً عن زيارته، ولا أجد تفسيراً لذلك الحلم الذى قادنى فيه إلى حانة الراقصين، إلا أنه غاضب منى. أخذت سناء معى وذهبت إليه، أتبرك به وأطلب منه الصفح. أفهمت سناء بأننى سأريها بيتنا القديم. لا أب لى ولا أم، أقدمها إليهما، ولم تبق سوى تلك الأنقاض المعجونة بأنفاس الأهل الراحلين. وقفت بجوارها أجيل البصر في أطلال البيت. وسناء تغمرنى بأسئلة كثيرة عن كيف كانت حياتى فيه، وعن البشر الذين كانوا يسكنونه معى. بدأت أعيد بالكلمات بناء البيت المتهدم. أرجعت الخشب إلى شبابيكه وأبوابه، ونقشت فوقها الزينات والزخارف، رفعت الأنقاض وصنعت منها حيطاناً يكسوها الطلاء، وغرفاً ملأتها بالمواقد والمراتب والصناديق والأكلمة

وسجادات الصلاة. استوى الركام بيتاً كما كان منذ ثلاثين عاماً. استدعيت بعد ذلك الأب والأم والجيران يصنعون شبكة من العلاقات التى كانت قماطاً يمنحنى الدفء والأمان. انتهت الكلمات وبقيت صامتاً للحظات قصيرة. عاد البيت أنقاضاً كما كان، وقفز جرذ كبير الحجم من بين الحجارة، فالتصقت بسناء، أحتمى بها من هول المصير الذى يؤول إليه البشر وتؤول إليه الأشياء. وصامتاً سحبت سناء من يدها، ودخلت بها إلى ضريح الشيخ الصادق. أخرجت من جيبى شمعة أضأتها له، وقرأنا معا سورة الفاتحة. سألتنى سناء عن صاحب الضريح، فأخبرتها لأول مرة بتفاصيل رحلتى إلى مدينة »عقد المرجان«، قائلاً بأن هذا الشيخ هو صاحب المعجزة التى نفذت بى إلى تلك المدينة حيث التقيت بها لقاء العشاق. لم أكن قد قلت لها شيئاً غير جملة عابرة تشير إلى هذا الحلم، ولكننى هذه المرة أخبرتها بالقصة كلها، منذ اللحظات التى زرت فيها هذا الشيخ فوجدته جالساً بانتظارى لكى يرسلنى في رحلة علاج الى تلك الأرض المباركة. وشرحت لها كيف التقيت بها عندما كانت تشترك في لعبة الأقنعة بساحة المدينة وكيف ذهبت وراءها مسحوراً بجمالها.

هجرت من أجلها منصب الأمير وقصره وذهبت لأقيم معها في مسكنها بين المزارع. ثم لقاءاتنا في استراحة الصيد، وبراعتها في العزف على العود، وغنائها لقصائد الشاعر ياقوت، وعن ليالى الحب التى قضيناها مرة فوق شراشف الحرير ومرة فوق حشية القش، ثم ظروف اختفائها وكيف ذهبت أبحث عنها داخل الغرفة السرية بالقصر، حيث انتهى الحلم وغاصت تلك المدينة الأسطورية في أمواج الهواء الأصفر.

وباندهاش كانت سناء تتابع كلماتى. لم تصدق أن تلك المرأة كانت تشبهها إلى ذلك الحد. قلت لها إنها هى التى كانت معى، كما أراها الآن أمامى وأسمع صوتها. سألتنى عما إذا كنت أملك تفسيراً لهذا التماثل بينها وبين امرأة الحلم، فقلت لها، إن هى إلا حياة عشناها في تاريخ سابق لوجودنا، وما علاقتنا اليوم إلا استئناف لتلك العلاقة القديمة، التى لو فتشت عميقاً في نفسها لأدركت أنها عاشتها كما عشتها.

كانت تلك هى المرة الأولى التى أكاشف فيها إنساناً بأسرار تلك الرحلة. كنت قد أطبقت صدرى على أحداثها، ومنعت نفسى من ذكرها لكائن من كان، مهما كان قريباً، إلى

أن جئت اليوم أكاشف بها سناء. إنها شريكتى في الحلم بمثل ما هى شريكتى في الحياة، وما بوحى لها بهذه الأسرار إلا إسهاماً في تأسيس هذه الرابطة الجديدة التى تجمعنا. قالت تعليقاً على ما سمعت :

- ما أصعب أن يتكيف مع الواقع إنسان شاهد هذه الرؤيا.

قلت مسرعاً:

- وما حاجة هذا الإنسان إلى الحلم إذا كان يعيش واقعاً يساويه بهجة وجمالاً.

قلت لها فيما بعد:

- كان قد أصابنى اليأس وأنا أبحث عنك، فلماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

كنت أقولها مسفوعاً بذكرى المرارات القديمة، أيام المراهقة والصبا، وأطياف نساء تنوس خلف الشبابيك، يرحل إليها البصر حالماً، عامراً بالأمنيات العذاب. كنت أتصور في تلك المرحلة من العمر إن امرأة ما، خلف هذه الأبواب والشبابيك والحيطان، امرأة ذات جمال أخاد، تحبنى، وتطل من شرفتها كل عشية تنتظر مجيئى، تحمل في يدها وردة، ما

أن تراني حتى ترشقني بها. وكنت كلما نشر المساء ظلاله، أضع في قلبي قيثارة، تسيل أوتارها شوقاً، أطوف بها الشوارع وأنا أعلق بصري بالشبابيك والشرفات أنتظر أن تشرق في وجهي ابتسامتها، وترف ضفائر شعرها وهي تناديني وترشقني بوردتها. أسير في دروب المدينة، أبحث عنها، يوماً وراء يوم، وعاماً وراء عام. ولكن الشرفات ظلت تحتفظ بصمتها وأسرارها، والشبابيك مجرد كهوف تجتر أحزانها وظلامها، والمدينة خبأت نساءها في جيوبها السرية وزرعت رجالاً عابسي الوجوه يملئون الأرصفة والحوانيت. والحبيبة التي أقمت لها عرساً قبل أن أراها ظلت متلفعة بالوهم والصمت والأساطير. لقد حقق سدنة المجتمع العريق الذي يفصل بين الرجال والنساء، انتقامهم على القلوب الخضراء. انطفأ جمر الشوق وغطاه الرماد، وزحفت الصحراء تأكل ربيع القلب وتحرق أعشابه. وحزني على أعوام الصبا التي انقضت باهتة، شاحبة، كوجوه الموتى الذين يمشون في شوارع المدينة، لا يعادله إلا حزني على تلك الصبية ذات الحسن والبهاء، التي أحبتني وجلست توقد قنديلها وتحمل وردتها حتى جف زيت القنديل وتيبست أوراق

الوردة. فأى حظ هذا الذى وضعك ذات صباح في طريقى، تمسحين جراح القلب، وتنفخين رماده، وتجعلينه يزهر من جديد.

- لا تقل أنك لم تعرف الحب قبل اليوم إلا في الحلم.

قالتها ضاحكة، وهى تنصت إلى صبوات القلب الظامئ، في بدء النشوء والتخلق. هل أظلم الأيام التى عشتها في تلك المدينة التى تغسل قدميها أمواج بحر الشمال، فأقول لسناء إنها لم تمنحنى حباً. لعله حب من نوع آخر. ولكنها منحتنى الحب الذى جئت أبحث عنه. لم يكن الحب هناك وروداً وضفائر تنهمر من الشرفات العالية، وإنما كان طرقاً على الأبواب واقتحاماً لها. كان بحثاً عن شريك للرقص في مدينة تشبه قاعة رقص كبيرة، حيث لكل إنسان شريك يجب أن يبحث عنه تمشياً مع قوانين اللعبة. وبمثل ما يذهب الرجل إلى امرأة يراها تجلس في قاعة الرقص ليقول لها هل تسمحين بهذه الرقصة، فهو أيضاً يذهب إلى امرأة تجلس دون شريك ليقول لها هل تسمحين بعلاقة حب. وبكل ما يختزنه القلب من عطش وشمس وصحراء، ذهبت إلى تلك المدينة. أسرفت في الشراب كما أسرفت في السهر

والانغماس في الأجواء التى يتيحها مجتمع الانفتاح والحرية الشخصية. تعاملت بقوانينهم وأحببت بأساليبهم ورقصت على ألحانهم واشتبكت في علاقات عاطفية ومغامرات جسدية وكأننى أنتمى إليهم. ولكننى في جزء من عقلى كنت أعرف أننى مثل قطرة الزيت في إناء الماء، ستظل طافحة فوق السطح، غير قادرة على أن تحقق الاندماج الذى تريده. كنت أعرف أننى في تلك المدينة مجرد عابر طريق يحمل رمحه. حجر يتدحرج فوق الأعشاب وظل يتسكع في حدائق الليل. وكنت أدرك أن الحب الذى عرفته هناك، حب مكتوب بحبر يتبخر عندما تشرق عليه الشمس الساطعة. وعندما عدت من جديد إلى هذه المدينة لم أرفع بصرى إلى الشرفات العالية أبحث عن حبيبة تنتظرنى، كنت قد جئت رافعاً الراية البيضاء ممتثلاً لأوامر سدنة المجتمع الأجلاء، فسألتهم أن يمنحونى امرأة يختارونها لى بذوقهم وحكمتهم وتكون على مقاس قوانينهم ومساطرهم، ويعقدون لى عليها، لأفوز بالانسجام مع عالمهم. كنت واهماً وغشيماً عندما طلبت هذا السلام المستحيل معهم. نقطة الزيت، ظلت طافية حتى وهى تعود إلى الخابية التى خرجت منها، فقد تلوثت بمادة غريبة

تمنعها من التطابق مع محتويات الخابية. ولم تستطع النقطة التائهة أن تخرج من التيه، إلا عندما التقت بنقطة زيت طافية مثلها، ومثلها تحتوى هذا العنصر الغريب المصنوع من مادة الأحلام، لتحقق معها توافقها وتكاملها.

هل كنت متواطئاً مع نفسى، ومع ما تحب أن تسمعه سناء منى، عندما أهملت ذكر التفاصيل والأسماء، وجمعت ليندا وساندرا في صورة واحدة لامرأة غريبة، غامضة، تجلس في صالة واسعة تنتظر من يقول لها هل تسمحين بالحب. هل كان تمويها أن أمسح من هذه الصورة التى قدمتها لها كل الملامح والوجوه التى عرفتها، فلا أبقى إلا على ملامح وجهها الذى رأيته في الحلم. ولكن ما الماضى إن لم يكن هذا الشىء الذى نختزنه تحت الجلد، ونسافر به ممزوجاً بكريات الدم. وسواء ذكرت التفاصيل أو تغاضيت عنها، فما كيانى كله إلا تعبير عن تاريخى الشخصى. إن مادة الماضى هى التى صنعت الرجل الذى أحب سناء. إننى ألتقى بها وأنا أحمل تراثى الذى صنعته بيوت سكنتها ورجال ونساء عرفتهم ومدن سافرت إليها وكتب قرأتها وأغنيات سمعتها. ومجبولاً من كل تلك المرارات، وحكايات الفشل

والنجاح ولحظات الشوق والحنين، والظمأ والارتواء، والضحك والبكاء، أرحل إليها. وبكل النقوش المرسومة فوق الذاكرة، والحروق التى تركت ندوبها فوق القلب، أحبها.

ولكن ماذا عن تجارب الماضى التى صنعت سناء؟ ضعى هذه الأصابع المنحوتة من مرمر الأحلام في يدى، واسندى رأسك على صدرى، وأخبرينى بذكرياتك عن اللحظات التى أسهمت في تكوين رؤيتك الصافية للحياة.

- إن لك قلباً مثل القصور عامراً بالقصص والأسرار، ولعل به غرفة سرية ستظل مقفلة على الدوام. أما قلبى فهو مثل أكواخ الفقراء، فلا تنتظر أية مفاجآت.

كنا قد سبحنا كثيراً هذا الصباح وعدنا إلى الشمسية حيث تناولنا غداء من السندوتشات والفواكه، واتكأنا فوق الرمل نشرب القهوة ونستمع إلى صوت البحر وحديث الذكريات.

لعلنى كنت سأفعل مثل الفتاة التى حلمت بها، أجلس كل مساء قرب النافذة، أوقد قنديلى وأحمل وردة أرشق بها فتى وسيما، لولا أننى كنت أجلس في ظل ذلك الأب، صارماً، وقوياً، ومحباً، أوصد أبوابه في وجوه الآخرين وبقى

لنا. حضوره الكثيف كان يسد كل الفراغات التى يمكن أن يتسلل منها عاشق المساء. كنت على أبواب الجامعة وكان أبى يريدنى أن أدرس الطب. لم أحصل على درجات تؤهلنى لذلك، ولم أكن أملك حماساً مثل حماسه لدخول تلك الكلية. لكن والدى أرغمنى على أن أنتظر عاماً آخر لأعيد الامتحان وأحصل على الدرجات التى تريدها دراسة الطب. وعندما رحل قبل أن ينتهى العام، قررت كنوع من المصالحة بين ما أراده لى وما أردته لنفسى، أن أدخل كلية الصيدلة. ومنذ أن دخلت الجامعة وإلى أن تخرجت منها واشتغلت معيدة لأكثر من ثلاث سنوات، لم يكن همى هو الحب. لعلى كنت سأبحث كغيرى من فتيات الجامعة عمن أحبه وأرضاه زوجاً للمستقبل. ولكننى كنت مشغولة عن ذلك، بدفع هذه الموجات المتلاحقة التى جاءت تركض نحوى من طالبى المواعيد ولحظات الاختلاء الغرامية. اكتشفت وأنا اختلط لأول مرة بمجتمعات الرجال في الجامعة أن كل من التقيت به أصبح عاشقاً يترصد لى في الأركان الخالية ويأتى هامساً يطلب موعداً. كنت أدفعهم جميعاً عنى. وأتعامل بخوف وحذر مع كل الرجال الذين حولى. لم أكن أنتقل لأى مكان داخل

الجامعة دون أن أصطحب إحدى الزميلات معى، لكى لا يشجعهم وجودى المنفرد على الاقتراب منى. كنت أعرف أنه ليس جمالى وحده الذى يدفعهم لمحاصرتى، إنه أيضاً كونى امرأة تحررت من سطوة الأهل والأب فلا سلطة لأحد عليها سوى سلطتها على نفسها، ولذلك تصور بعض الرجال أننى هدف سهل للغواية. كنت أدرك خطورة المسؤولية وثقلها، مدركة أن مجتمع الجامعة يفرح باصطياد هنة صغيرة يصنع منها قصة يتغذى بها عشاق الشائعات. وكانوا يصنعون الشائعة التى تموت فور ولادتها لأننى تعلمت كيف أفرض احترامى. وصل الأمر ذات مرة إلى تدبير مكيدة ضدى، واستصدار قرار بطردى من الجامعة. كان ذلك في أول عام التحق فيه بكلية الصيدلة. كنت صغيرة وقليلة الخبرة فاشتركت بأغنية في الحفل الذى أقامته الكلية. انتهى الحفل وأصر المشاركون في إحيائه على أن نبقى قليلاً للسهر، فبقيت معهم. وفي الصباح استدعينا جميعاً للتحقيق بحجة أن السهرة كانت سهرة سكر وعربدة. عرفت فيما بعد أن طالباً خبأ زجاجة خمر في جيبه، ودون علمنا كان يخرج ليرتشف جرعات منها ويعود للسهر والغناء معنا. اكتشفوه سكرانا في

آخر الليل وعرفوا أنه حضر سهرتنا فجاءوا بنا جميعاً للتحقيق. انتهى التحقيق وبرءوا الجميع، ماعدا اثنين، هما ذاك الطالب وأنا. كان قرار الفصل مفاجأة كبيرة لى، كما كان صدمة لأمى التى خشيت أن أكون قد أسأت استخدام الثقة التى منحتها لى. لم أكن أدرى ما الذى فعلته حتى استحق ذلك العقاب، ربما لأن ذلك الطالب الذى أصدروا قراراً بفصله والذى هجر بعد ذلك البلاد وذهب للحياة بالخارج، كان فعلاً أكثر الطلاب قرباً من نفسى. كان زميلى في الفصل. وكان الوحيد الذى آنست إليه وصرت لا أتحرج من الجلوس معه في مقصف الجامعة، لأنه لم يكن يأتى هامساً متلفتاً يسأل موعداً أو يتحدث عن عذابه وأرقه بعد أن رآنى. كان يحدثنى عن أمه التى تولت تربيته بعد وفاة أبيه، وكان هذا التشابه في حالتنا يجعلنا نقترب من بعضنا البعض. لم أتوقف كثيراً لأفكر إن كانت مشاعرى نحوه حباً أو لم تكن. تصرفت ببراءة وتلقائية فاعتبروا ذلك استهتاراً وخروجاً على الأدب. تأسفت له، لكننى لم أبك أو استسلم لليأس. دافعت عن نفسى حتى تأكد لإدارة الجامعة براءتى. كان الدرس قاسياً، وكان المصير الذى تعرض له ذلك

الطالب الوحيد الذى كان قريباً منى مصيراً فاجعاً. امتنعت بعد ذلك عن المشاركة في الأنشطة والحفلات وكرهت الاقتراب من هذه الحلقات التى يعقدها الطلاب، وفرضت على نفسى عزلة صارمة، فلا أختلط بأحد ولا أكلم أحداً خارج حدود الدرس والواجبات. واقتضى الأمر عدة سنوات حتى استعدت قدرتى على التواصل مع المجتمع والعودة الى ارتياد المحاضرات العامة والمشاركة في الأنشطة والرحلات كالرحلة إلى مدينة قورينا. لعل الثمن كان كبيراً لأننى تنكرت لحق من حقوقى في أن أدع نفسى على سجيتها، ولعلنى عندما التقيت بك كنت أفكر في هذه العزلة التى عانيت منها طويلاً. هذه القسوة التى عاملت بها نفسى. لأمر ما أحسست وأنا ألتقى بك ذلك الصباح أننى ألتقى بإنسان مختلف. كنت قد صحوت مبكراً جداً لأبحث بين أحراش الجبل عن الأعشاب والنباتات الطبية قبل أن ننشغل ببرنامج الرحلة. ولم أكن أظن بأن أحداً قد سبقنى إلى هناك حتى رأيتك جالساً فوق الصخر، تنتظر شروق الشمس. اندهشت عندما رأيت إنساناً أكثر جنوناً منى، يستيقظ هو الآخر مبكراً، ويترك دفء الفراش بحثاً عن نشوة الاقتراب من هذا الجلال الذى

يصنعه لقاء الفجر بأشجار الجبل وكائنات الغابة. كنت قد رأيتك في مرة سابقة أثناء تلك المحاضرة، عندما سألتك سؤالاً، أجبتنى عليه بانفعال واقتضاب، وعرفت فيما بعد أنك تغيب عن التدريس لأنك تعانى من حالات الاكتئاب. كان مشهد الصباح الربيعى فوق الجبل الأخضر، والذى يوحى للإنسان بأنه حقق سلامه مع الكون. هو الذى جعلنى أكثر تحرراً وانطلاقاً، ودفعنى لأن أنسى تحفظاتى وأبقى في صحبتك بدل الالتحاق ببقية أعضاء الرحلة. لعل الذى ساقنى إليك هو الفضول لمعرفة أسباب الأزمة النفسية التى عشتها. أعرف أنها مسألة طبيعية أن تعانى امرأة ما إحساسات الإحباط والمرارة في مجتمع يسميه أساتذة الجامعة مجتمعاً ذكورياً، أبوياً، تسلطياً، إلى آخر القائمة. ولكن كيف يحدث ذلك لرجل من هؤلاء الأساتذة أنفسهم الذين هم في موقع القيادة من هذا المجتمع الذكورى الرجالى. لعلها سذاجة منى أن أتصور أن الرجال يجب أن يكونوا في مأمن من هذه العلل. وكنت قد هيأت نفسى للقاء رجل متوتر الأعصاب، فجاءت اللحظات الأولى للقائنا تؤكد هذا الظن، عندما رأيتك تقف مندهشاً، جاحظ العينين، تنظر في فزع نحوى، بينما أمد

لك يدى بالسلام فلا تراها. بقيت ساعات معك وازددت اقترابا منك ورأيت دفء العواطف التى أحطتنى بها وكأنك تعرفنى منذ أمد بعيد، فاستيقظت في ذهنى كل المحاذير. اعتبرت أن ميلى إليك، ضعف يجب أن أحاربه في نفسى، وإن علاقتنا يجب أن تنتهى عند هذا الحد. حتى عندما جئت لأستعير منك البحث لم يكن ذلك إلا وفاء لوعد لا أحب أن أنقضه. إلا أن تحولاً طرأ على أفكارى، عندما جئت غاضباً، تستنكر ما قاله الأستاذ شعبان عنى، وتخبرنى بما حدث من عراك بينك وبينه. كانت تلك العاطفة الساخنة، التى تتفجر صدقاً ومحبة وألماً، شيئاً جديداً لم أره في عينى أحد من قبل، خارج الدائرة الصغيرة لأفراد عائلتى. قلت في خاطرى إن هذا الرجل يحبنى. إن اهتمامك بى يختلف عن اهتمام الآخرين الذين يركضون ورائى. لم يبق للحرب الدائرة في نفسى ضد كل عاطفة أو ميل نحوك ما يبررها. ليقل الناس ما يريدون قوله. لن أكون غاضبة هذه المرة لأن هذا هو اختيارى. إننى لن أظلم نفسى وأضع رتاجاً على قلبى إلى الأبد. لم أكن أبحث عن شىء أكثر من أن أعرف على وجه اليقين، إن الرجل الذى اختاره، إنما يحبنى لذاتى وليس

لمجرد البحث عن لعبة يتسلى بها. ولذلك لم يكن يهمنى إن كنت عازباً أو متزوجاً. لا أريد لهذه العاطفة أن تكون مجرد وسيلة لاصطياد الزوج. أردت ولأول مرة منذ أن دخلت الجامعة، أن أترك نفسى على سجيتها. أن أتحرر من خوفي وحذرى. وأتصرف بتلقائية وبساطة، وأترك لطبيعة الأنثى في نفسى أن تنطلق دون قمع الإرادة الواعية التى تشتغل خادمة لدى مجتمع الاختيارات المفروضة.

كنا قد تركنا الشمسية وأمضينا وقتاً نتمشى على الشاطئ، وصلنا إلى نقطة في أقصى حدود القرية، وجلسنا فوق تلة صنعتها صخور الشاطئ نرقب مشهد الغروب ونستقبل رذاذ الموج.

كانت سناء قد أنهت كلماتها بالمثل الإنجليزى الذى صنع منه شكسبير عنوان مسرحيته «كل ما انتهى إلى خير، فهو خير "All is well that ends well" "

قلت لها إن الأشياء لم تكن لتنته إلى هذا الخير لولا تلك المرارات. وما هذا الحب إلا مكافأة على ضنك وعناء الأيام الماضيات. وقلت لها أيضاً، وأنا أستعيد ذكرى غنائها الجميل عندما التقيت بها في زمن آخر:

- ولكننى أشعر بالأسف لأنك انقطعت عن الغناء.

- وأنا أيضاً، فالغناء رغبة مكبوتة لا أمارسها إلا عندما أغنى لنفسى.

- ألا تسمعيننا شيئاً الآن؟

- هنا؟

- نعم هنا.

التفتت سناء تمد بصرها باتجاه رجال ونساء يمرقون من بعيد. اطمأنت إلى أننا في مأمن من تطفلهم، فاتخذت مظهر مطربى الحفلات. رفعت أصابعها لتدليك الحنجرة وأصدرت همهمات لتسليكها، ثم أحنت رأسها بأناقة، تحية لحشود الجماهير المصنوعة من موج البحر، قائلة:

- هيا ردد معى.

بدأت تغنى وأنا أردد من ورائها المقطع الأول من الأغنية، وأحاول أن أصنع إيقاعاً بالتصفيق الخافت المنتظم.

- قولوا لعين الشمس.

كانت الشمس تسحب أرديتها وتختفي خلف البحر، تاركة المجال كله، لشمس سناء، تشرق الآن، وتملأ القلب بلظى أنوارها.

ما أن مضت قليلاً في الغناء حتى توقفت عن الترديد والتصفيق ومنحت نفسى بكاملها لسحر الغناء القادم من بلاد الأسطورة. أتلقف بكل أنسجة الجسم وخلاياه، عذوبة الصوت وبهجته. متمثلاً تلك العوامل التى قادنى إليها الحلم بصحبة امرأة استعارت ملامح سناء وصوتها. ولكن لماذا تبدو الأشياء أكثر بهجة عندما نعثر على مرجعية لها في عالم الماضى. لماذا يكون للماضى هذه السطوة على الحاضر حتى في أكثر لحظاته توهجاً؟ أننى على يقين بأننى لم أكن لأحصل على هذه المتعة لو لم يكن هذا الغناء استحضاراً لدنيوات تختفي خلف ضباب الزمان.

كنت لا أريد أكثر من أن نبقى معا. لدينا البحر والرمل والحب. لدينا السباحة، وشيء من القراءة بعدها وقبلها، حيث يأخذ كل منا كتاباً. وإذا ما عثر على شىء أعجبه، توقف عنده ليقرأه للآخر، ويكون موضوعاً للنقاش. ولكن سناء كانت تقترح فور أن تهدأ حدة القيظ أن نذهب في جولات إلى مركز المدينة. كان لها منطقها البسيط. فهى الآن، وبصحبة رجل تربطها به أمام المجتمع علاقة شرعية، تستطيع أن تذهب إلى كل الأماكن التى كان الذهاب إليها مغامرة، بالنسبة

لامرأة مثلها. لهذا فهى تريد أن نذهب، كلما وجدنا وقتاً، لنشاهد فيلماً أو معرضاً، أو نتجول في الأسواق ونجلس في الحدائق والأماكن العامة. اقتنعت بمنطقها، ووجدت أن الذهاب في صحبتها، يجعل هذه المدينة التى لم أكن أراها إلا موحشة كئيبة، مثل مدينة النحاس وسكانها الممسوخين، تكشف عن وجه أقل كآبة ووحشة.

وكلما انتهت حصة السباحة ودخلت سناء لأخذ حمام تزيل به ملوحة البحر، كان فكرى يحوم حول الجسد الذى يتعرى تحت الماء، مثيراً، وشهياً، وعامراً باللذاذات، كأنه لم يخلق إلا لممارسة الحب. يصنع دائرة من الجاذبية، تخترق الجدران، وتصل إلى جسدى، فيهتز رغبة وشوقاً إليها. أقف بائساً خلف الباب المغلق أحارب الهواجس التى تثيرها الشهوات الترابية. لأننى أحب أن أرى سناء في ضوء يختلف عن غيرها من النساء. يكفي أننى أرتاد معها آفاق الفرح والمتعة كل نهار أضع يدى في يدها وأسير معها، وكأننى أتجول في قصر صنعته قصائد الشعراء العاشقين. فلماذا التوجع والأسى إذا ظلت غرفة واحدة في القصر مقفلة، لا أقوى على دخولها هى غرفة الجنس. ولكن شحاذ الرغبة

الأعمى، يبقى برغم ذلك كله، واقفاً على الأبواب يستجدى حسنة ، رافضاً أن يستجيب لأى نصح أو تهديد. أقول أحياناً إن اشتباك العواطف والتحامها، سوف يزداد تعزيزاً بلحظة يشتبك فيها الجسدان. يتحاوران ويتخاطبان بلغة هى أكثر بلاغة من كل الكلمات التى نستعيرها من القواميس. يتلاقيان ويحققان ما يحتاجانه من ارتواء. طقس ضرورى لابد منه لتحقيق الاندماج، واكتمال دورة الحب. ثم أعود لأعزى نفسى قائلاً بأن ما تصنعه بى سناء، هو ذاته ما فعلته شهر زاد بشهريار، عندما جاءت تحارب عنفه وصبواته وتحمل إليه عاطفة أكثر نقاء من مجرد الشهوة. فلماذا لا أرضى بهذا العطاء الجميل، وأجعل من هذا الحب تصعيداً وتطهيراً لغريزة الجسد، وأنتظر بصبواتى الجنسية موعد الزفاف، بدل الانشغال بإرضاء شهوة سرابية، لا سبيل إلى إرضائها، لأنها كلما ارتوت ازدادت عطشاً. إننى على يقين بأن أى إلحاح على هذا الجانب سوف يغضبها، ويثير في ذهنها الشبهات التى كانت تخشاها، عندما كانت تطرد أولئك المتطفلين على موائد حبها. كنت أحاول استعجال ورقة الطلاق التى أصبحت في هذه الأيام إجراء ضرورياً لكى يتم

الزفاف وترضى المكاتب الشرعية بتسجيله. توليت بنفسى مراجعة المحكمة بعد الجفاء الذى حدث بينى وبين أخى. صعدت في آخر مرة ذهبت إلى مبنى المحاكم، سلماً حلزونياً يقود إلى الطابق الخامس، ثم عبرت رواقاً طويلاً مظلماً كأنه نفق تحت الأرض. أخبرنى الموظف الذى وصلت إليه لاهثاً أن الموضوع قد انتهى ولم تبق إلا بعض المسائل الإجرائية. سبق أن سمعت منه ذات الكلام منذ أسبوع مضى. اشتبكت في نقاش غاضب معه وأنا أحتج على هذه المماطلة التى لا معنى لها، وكأن هذا البناء الذى يشبه البرج لم يبن إلا لكى يعرقل حياة الناس بدلاً من تسهيلها. جاء موظف آخر لفض النزاع، واعداً بأن يتولى بنفسه إتمام الإجراءات، فهو رجل يعرف مكانتى وله ابن التحق منذ عام مضى بقسم اللغة الإنجليزية يريد أن يوصينى به خيراً. تركته ساخطاً وقد تناهى إلى سمعى صوته وهو يهدئ من ثائرة زميله قائلاً:

- لعلك لا تعلم أن المسكين من ضحايا الأمراض النفسية.

جاء موعد ظهور نتائج الامتحانات، فذهبت إلى الجامعة بصحبة سناء. كان الفناء يشهد زحاماً كبيراً يصنعه

الطلاب الذى تواقدوا لمعرفة النتيجة. مررنا بطالبة تنوح كأنها تودع ميتاً. وطالب يفلت من قبضة زملاء يهدئونه ليضرب رأسه بالحائط. وآخرون يصنعون حلقة ويصفقون لزميل يرقص فوق أعشاب الحديقة اليابسة. قلت لسناء:

- ها نحن نرى الفرح والحزن يتجاوران ويتعايشان جنباً إلى جنب في لحظة واحدة، ومكان واحد.

- إننى أشعر بالأسى للطالبة التى تنتحب والطالب الذى يضرب رأسه بالحائط، ظناً منهما إن هذه هى نهاية الدنيا.

- أما أنا فلا أشعر بالأسى إلا للولد الذى يرقص قافزاً في الهواء، لا يعلم ما ينتظره خارج هذه الأسوار.

التقيت أثناء ذلك بالدكتور محمود الذى جاء مهنئاً بالخطوبة. صافحنى وصافح سناء دون أن يذكر شيئاً عن الجفوة التى بيننا. اكتفي بأن وعد بزيارتى في الأيام القادمة، وتركنى لأحد أعضاء جمعية النشاط، الذى جاء يقول بأنهم يبحثون عنى لأن لديهم نشاطاً يريدون القيام به. عرفت عندما ذهبت معه إلى مقر الجمعية، إن أعضاء فريق الموسيقى صاروا يلتقون هنا مرة كل أسبوع، استعداداً لحفل

يبدءون به السنة الدراسية. جلست معهم قليلاً أناقش برنامجهم، والنفقات التى يحتاجون صرفها من صندوق الجمعية، وانتهى اللقاء بأن أسندوا لى مهمة البحث عن مطرب معروف، يأتى من خارج الجامعة، للمشاركة في إحياء الحفل.

قالت سناء ونحن نغادر الجامعة:

- لدى فكرة مدهشة.

- هاتها بسرعة، فقد نفد رصيدى من الاندهاش وأنا ألتقى بامرأة تطلع من عالم الأحلام.

- ألم تسألنى لماذا تركت الغناء؟

لم أجد مبرراً للسؤال. لم أرتح إليه. لعلها تفكر حقاً في العودة إلى الغناء تحت أضواء المسارح. رأتنى صامتاً فأضافت:

- أردت أن أسألك أنت أيضاً لماذا تركت التمثيل.

كنت قد أخبرتها عن هذه الهواية القديمة التى مارستها عندما كنت طالباً. قلت دون اهتمام حقيقى بالسؤال:

- أنا أيضاً لم أترك هذه الهواية، فحياتى مليئة مثل كل الناس بالتمثيل.

وضاحكة قالت سناء:

- أرجو ألا أكون ضحية لإحدى تمثيلياتك.

- تعرفين أنك أنت الشىء الوحيد الصادق في حياتى، وما عداك فهو باطل.

أين هى الفكرة المدهشة؟

- الفكرة هى أن نعود أنا وأنت لممارسة هواياتنا. نفاجئ الجامعة بتقديم عمل مسرحى غنائى، تقوم أنت فيه بالتمثيل، وأنا بالغناء. ما رأيك؟

- مدهش.

- ولماذا الاندهاش؟

- كيف لا أندهش لما تسمينه فكرة مدهشة؟

- أنت تسخر من الفكرة.

- سيعتبرونه جنوناً.

- ليس هناك جنون أكثر من أن يبقى الإنسان متنكراً مدى العمر لموهبة حباه بها ا .

كنت أحسب أنها مجرد فكرة طارئة، خطرت لها تلك اللحظة، ثم تبخرت مع ما يمتصه الفضاء كل يوم من أفكار وأمنيات، سيحتاج الإنسان إلى أعمار أخرى كى يلاحقها

ويسعى إلى تحقيقها كلها. ولكن سناء ظلت مشغولة بهذه الفكرة، وذهبت تبحث عن نص مسرحى يصلح للغناء والتمثيل. فهى ترى أن وجودنا معاً سيكون له معنى أكثر عمقاً، عندما يتيح لنا فرصة اقتحام كل الآفاق التى يعجز الواحد منا عن اقتحامها بمفرده. فبمثل هذا الفعل الجرىء، المبدع، تتأكد علاقتنا، وتحقق حياتنا الجديدة المشتركة أكثر أهدافها نبلاً. إنها بالتأكيد فكرة مدهشة، ولعلنى أكثر شوقاً منها لاختبار مواهبى في التمثيل ومنح هذا الجانب المقموع فرصة التعبير عن نفسه. لقد سمعت ثناء كثيراً على تمثيلى ولكن ذلك زمن تولى مع الأيام التى كنت خالياً فيها من هموم العمل وما يجره من مسؤوليات وصراعات. أما الآن فإن التمثيل والغناء، ليس إلا تطفلاً على مهنة أخرى، لن نجيدها كما يجيدها أهلها، ولن يقابل تطفلنا إلا بالازدراء الذى لا أريده لنفسى ولا أريده لسناء. هكذا كنت أبرر لها الفزع الذى أصابنى من الدخول في تجربة كهذه التجربة.

- طالما أنه اعتراض فنى، وليس اعتراضاً أخلاقياً، فسأثبت لك أن المحترفين، هم سبب انحراف هذه الفنون.

وبإمكاننا أن نجعل الجامعة تلعب دوراً في تصحيح الانحراف.

رأتنى صامتاً لا أتكلم فتساءلت:

- هل أنت خائف؟

- مِمّ أخاف؟

- قل لى أنت مِمّ تخاف. لعلك تفكر بأولئك الذين يستهزئون بكل فن وإبداع.

- إن هذا أدعى للتحدى.

- ليكن تحدياً ندخله معاً إذا شئت.

لم تمض سوى ثلاثة أيام حتى جاءت سناء بنص مسرحى مقتبس، عن حياة رابعة العدوية، عثرت عليه في كتاب مدرسى.

- غناء دينى، وتصوير لحياة امرأة من أهل ا . مسرحية ترضى فضول أكثر العقول تزمتاً.

قلت وأنا أقلب صفحات الكراس:

- ولكنها قبل أن تظهر في ثياب المتصوفين سوف تقف على المسرح في ثياب الراقصات، تغنى لسكارى الحانات.

- مشهد صغير يمكن الاستغناء عنه، وتعويضه بجملة في الحوار. وسوف تجد هنا دوراً يليق بإمكانيات ممثل خطير مثلك. إنه بهاء التاجر النبيل الذى أحبها وتقدم لإنقاذها ثم لجأت إلى التصوف بعد مقتله.

أردت أن أتجنب أى صدام معها، فقلت بأنه مشروع كبير يحتاج إلى وقت وإعداد. أما الآن فإن هناك حفلاً سيقام قبل نهاية الصيف، ومهمتى العاجلة هى أن أجد حلاً لهذه الورطة التى أوقعنى فيها الطلاب. إذ من أين أجد لهم واحداً من طواويس الغناء، ينسى زهو ألوانه، ويرضى بالغناء وراء فرقة من العازفين الصغار. لا أحد يستطيع إنجاز هذه المهمة غير أنور جلال. مضت أيام لم أذهب إلى سهرته. ألتقى به أحياناً على الشاطئ، وأعده بحضور السهرة ثم أخلف وعدى. فلا بأس من زيارة هذه الليلة إلى داره، والاستمتاع بسهرته، والاستعانة بنفوذه على تحقيق ما يبتغيه الطلاب.

نشر أنور جلال ذراعيه مرحباً ومعانقاً. تراكضت نحوى كلمات اللوم والعتاب من أصحابه. أوقفهم قائلاً:

- لا تسرفوا في اللوم. للرجل عذره المقبول فابحثوا عن موضوع آخر.

- ألا يحق لنا أن نعرف؟

تساءل رشيد غانم. فرد عليه أنور جلال:

- ألا تتخلى لحظة واحدة عن فضولك الإذاعى؟

ضحك عبد القادر أمين، رجل العلاقات العامة، وهو يتناول قطعة جزر من طبق أمامه، ويضعها في فم سعاد التى كورت شفتيها وصارت تراوغ بهما قطعة الجزر تقليداً لأفلام الجنس والإثارة. قال منتصراً لرجل الإذاعة:

- ولماذا تتعب نفسك بالسؤال عن سبب غياب الدكتور؟ ألم يقلها نابليون منذ عصور مضت، فتش عن المرأة؟

- هل لابد أن نستعين عليك بنابليون لكى نعرف السبب؟ قل لنا إذن، من هذه المرأة الموعودة بالجنة، التى شغلتك عن الناس والدنيا؟

لابد أن بعضهم قد رآها معى. شاركتهم الضحكات ولم أقل شيئاً. أسرعت سعاد إلى المطبخ، تحضر كأساً فارغاً استجابة لإشارة من أنور جلال، الذى أخذ زجاجة الويسكى وسكب منها كمية كبيرة في الكأس. أضافت هى الثلج والماء

وقدمته لي. نظرت نحوي طويلاً ثم انفجرت في عاصفة من الضحك.

- لماذا تضحكين؟

سألتها إحدى نساء الجلسة، فرد عبد القادر أمين:

- أجمل ما في سهرتنا أن الضحك هنا لا يحتاج إلى سبب أو مبرر.

قالت سعاد وهي ما تزال تضحك:

- إنه يعرف لماذا أضحك.

احترق وجهي خجلاً. لم تكن سعاد تجلس هذه الليلة في مكانها المعتاد على الأريكة بجوار أنور جلال. احتلت مكانها امرأة أخرى أراها لأول مرة. بينما جلست هي بجوار عبد القادر أمين، مستجيبة لمداعباته الحسية. أيقنت أن تسامح العلاقات في هذه السهرة، يحقق تفوقاً على أكثر المجتمعات تحرراً وانفتاحاً. ولا بد أن سعاد أعجبها ما أحدثه كلامها من حرج صبغ وجهي بالاحمرار. فقالت وكأنها تشهد الآخرين على انتصارها:

- لا تخجل على هذا النحو، فأنا لم أفضح لك سراً، ولم أخبر أحداً بما حدث بيننا.

- يبدو أن حياتك تمتلئ بأسرار لا نعرفها، فما هى القصة؟

تكلمت هى:

- أخجلنى منذ أيام بكثرة ثنائه على البنطلون الذى أرتديه، فقررت أن أعطيه له. كنا بمفردنا في هذه الغرفة، وما إن رآنى أبدأ في خلع البنطلون، حتى فر هارباً وهجر المجيء إلى السهرة.

- ها هو يأتى الآن نادماً، يطلب منك الصفح والغفران والبنطلون.

ضحكوا بإسراف. رآنى أنور جلال أمسح العرق على جبينى فضرب كأسه بكأسى مرحباً، وسعى إلى تغيير الحديث مستأنفاً مع أصحابه النقاش الذى بدأ قبل حضورى عن هذا المستوى المتدنى لحركة فنية تراوح في مكانها وتأبى أن تكسر أطواق عزلتها وتحقق حضوراً فاعلاً على مستوى الفن العربى. قال رشيد غانم:

- لو رأيتم استمارات الإنتاج التى تصرفها الإذاعة كل يوم لأهل الغناء والموسيقى، لاستغربتم أين تذهب هذه الأموال، ولماذا لم تفلح في بناء فن يجتاز الحدود.

قال عبد القادر أمين مداهناً:

- ذلك لأن أرضنا قاحلة عقيم. دلنى على ملحن واحد يملك موهبة أصيلة لا تعتمد على الاجترار وتقليد الآخرين عدا أنور جلال.

قال أنور جلال متجاوزاً هذا الإطراء:

- لنقل أن هناك خمسة أو ستة ملحنين أكثر موهبة وأصالة منى، فهل يصنع هؤلاء فناً؟ إن عصفوراً واحداً لا يصنع ربيعاً، ولا حتى مائة عصفور. إنه مجتمع كامل يتحرك حركة واحدة مثل عازفي الأوركسترا.

رأيت أن الحديث هذه المرة يأتى مخالفاً للتقاليد التى تنبذ المواضيع الجادة في هذه السهرة، فساهمت في النقاش الذى يرسى تقليداً جديداً، قائلاً:

- ولكنك تجد أحياناً فناناً واحداً يؤسس ذوقاً ويدشن عصراً جديداً للإبداع الفنى.

- ولكن من هو هذا الفنان؟ ستقول لى إنه بيتهوفن أو موزار أو هايدن أو فاجنر أو شوبان، وتنسى أنهم نتاج بيئة تقدس الموسيقى، وشعوب تذهب إلى المعابد لسماعها. أما هنا فأنك لو تحولت إلى أبوللو رب الفنون، وجئت تحمل قيثارتك

الذهبية، تعزف لهم ألحانك الإلهية، لسخروا منك، وذهبوا للاستماع إلى حليمة العرجاء التى تضرب طبلتها في الأعراس.

تكلم بمرارة. إنه فنان ناجح يحظى باعتراف المؤسسات الإعلامية التى تذيع إنتاجه وتنشر في صحافتها مقالات الثناء عليه، كما يحظى بإعجاب الرجال النافذين الذين يهربون له الويسكى ويبسطون حمايتهم على هذه الشقة فلا تطالها أيدى العابثين بأسرار الناس وحرمات بيوتهم، ولذلك فإن لشعوره بالإحباط ما يبرره، قلت في نفسى.

حانت لحظة صمت أردت أن أتخذها مناسبة لإخباره بما جئت من أجله، ولكننى رأيت أن هذه اللحظات العامرة بالأسى على مصير الفنان، غير ملائمة لهذا الحديث. تدخلت سعاد لإنقاذ الجلسة مما يهدد صفاءها. لم تكن مرتاحة للنقاش، فانتقلت بالحديث إلى موضوع أكثر إثارة، وأعادت للتقاليد التى تنبذ المواضيع الثقيلة الجافة، هيبتها واحترامها:

- هل عرفتم ما حدث اليوم. ضبطوا ولداً وفتاة يقبلان بعضهما خلف جدار المقهى، فازدحم عليهما الناس وقادوهما إلى مركز الشرطة، برغم أن الولد كان يقول إنها خطيبته.

- يا للعار والفضيحة، كيف يقبل الرجل امرأة لم يتزوجها بعد.

قالها عبد القادر أمين ضاحكاً وهو يأخذ قبلة سريعة من سعاد. توالت التعليقات.

- القبلة عار حتى عندما يتبادلها الزوج مع زوجته.
- ها نحن نشهد بداية انهيار المجتمع وفساد أخلاقه.
- يجب أن نهجر هذه القرية التى وصل فيها الفساد إلى حد أن يقبل الولد خطيبته.

أدنت سعاد رأسها منى وسط موجة الضحك والتعليقات، قائلة:

- لم تعد غاضباً منى.
- لم أغضب منك في أية لحظة من اللحظات.
- لنشرب إذن نخب صداقتنا.

حان موعد الطرب، فأخذ أنور جلال عوده، وغنى ونحن نردد معه الغناء:

- من غير حب الدنيا دى إيه
- من غير حب نعيش على إيه

عندما انتهت السهرة وخرجت دون أن أجد فرصة لأفاتح أنور جلال بالموضوع الذى جئت الليلة من أجله، كنت أحس بشىء من الغبطة لأننى سأجد مبرراً لتكرار الزيارة. وبعد أن انتهى المبرر في الليلة الثانية وأخذت من أنور جلال وعداً بالبحث عن مطرب يشارك في الحفل الجامعى، لم أتوقف عن المجىء للسهرة. داومت على حضورها ليلة وراء الأخرى. جئت في البداية بدافع الإلحاح الذى ألقاه من أنور جلال أكثر مما جئت بدافع الرغبة في السهر والشراب. ثم شيئاً فشيئاً صار المجىء روتيناً يومياً لا أتخلى عنه. حاولت دون جدوى أن أضع حداً لهذا الانغماس في سهر قد يؤثر على علاقتى بسناء. أصبحت أتأخر في الذهاب إليها، وأقضى معها النهار وأنا أتثاءب إعياء من قلة النوم، أو متألماً أشكو الصداع، وأرى في هذا السهر خذلاناً للعلاقة المبهرة التى تربطنى بها، وظلماً لهذه الأنثى التى أشاعت في نفسى من البهجة ما يغنينى عن مطاردة المتعة في سهرات آخر الليل. ثم إننى في هذه السهرة عضو زائد عن الحاجة. لا يقضى المصالح ولا يقدم الخدمات التى يقدما الآخرون. هنا لكل شىء ثمنه، ولكل عضو من أعضاء السهرة وظيفة يقوم بها

إحياء لها ومحافظة على استمرارها. أما أنا فلا خيل عندى أهديها ولا مال. أجلس متفرجاً وأستهلك الشراب والطعام دون أن أجد شيئاً أقدمه بالمقابل. رجل متطفل على عالم أكبر من إمكانياته ومهاراته، ومع ذلك أذهب أقمع مشاعر النقمة على نفسى وأذهب. ما إن ينتهى النهار وأعود وحيداً إلى غرفتى بعد أن أوصلت سناء إلى بيتها، حتى أجد نفسى مساقاً كالسائر في نومه إلى تلك الدار المدفونة مثل نبع الماء تحت جبل التقاليد بصخوره وأحراشه، حيث يرتفع نداء الأوتار العاشقة وتشعشع في الرؤوس أبخرة الخمور الفاخرة، وتسطع اللغة التى تحررت من العاب النظيفة التى نحفظها بها، محلقة في الفضاء كعصافير غادرت أقفاصها، كما تسقط التحفظات وأساليب التكلف والافتعال التى تحكم العلاقة بين النساء والرجال، فيعودون إلى طبيعتهم الأولى ببراءتها وبدائيتها قبل أن تصنع لهم التقاليد أقنعة يتخاطبون بها. ثمة شىء تمتلكه تلك الشقة يرغمنى على الذهاب إليها كل ليلة. إن هذه السهرة بكل مباذلها، أو بسبب هذه المباذل، تمثل في نهاية الأمر، تحدياً لمجتمع التزمت والمحرمات وطقوس القيظ والصحراء والجفاف. احتمت بالبحر، مؤكدة انتماءها إليه، ورفعت راية

العصيان ضد الصحراء. إنها سير في الطرقات الممنوعة، وكسر لإشارات المرور وعلاماتها الحمراء، وخروج على قوانين القبيلة وتعليماتها. صرخة احتجاج في وجه مؤسسات اجتماعية وسياسية ودينية، تسعى كل يوم للاعتداء على الهامش الصغير الذى تبقى للإنسان بعد أن ترك لها كتاب العمر تملؤه بتعليماتها ووصاياها وتعبث به كما تشاء. أعفته من مهمة التفكير، وقررت بالنيابة عنه صيغة للحاضر والمستقبل، ثم لم تكتف بهذا كله، فجاءت تفرض عليه متى يستيقظ ومتى ينام وماذا يشرب أو يأكل أو يلبس أو يكره أو يحب. ولهذا فإن قوة الجذب التى تمتلكها هذه الغرفة أكبر من تلك الاعتبارات التى تطالبنى بالامتناع عن الذهاب إليها. ليكن عالماً أكبر منى، ويحتاج إلى قدرات ومهارات لا أملكها، فإنه برغم ذلك، يتكشف كل يوم عن أسرار جديدة تجعلنى أكثر فضولاً ورغبة في الاقتراب منه. إننى لأول مرة أخالط رجالاً يتمتعون بالسلطة والنفوذ ممن يرعون هذه السهرة ويضمنون لها الحماية والتموين مقابل زيارات متقطعة ومتباعدة. وما أن تعرفت إليهم، حتى ازددت إعجاباً بهم واعترافاً بقدرتهم النادرة على تحقيق هذا التعايش الجميل

بين الأقنعة والقناعات. إنهم يقولون كلاماً تنشره الصحف والإذاعات، يختلف تماماً عن قناعاتهم التى تفصح عنها جلسات السهر والشراب. ومع ذلك فهم يحملون تناقضاتهم فوق أكتافهم ويمضون في الحياة كأنهم شخصيات بيرانديللو التى تبحث عن مؤلف. يعملون سدنة لدى آلهة الأعراف والتقاليد والأخلاقيات، ويؤسسون في ذات الوقت معبداً ديانته الكفر بهذه الآلهة. ولا يوازى ما يقدمونه من خدمات لضمان استمرار هذه الجلسة، إلا تلك الخدمات التى يقدمها رشيد غانم وعبد القادر أمين. فرشيد هو رجل البرامج الإذاعية، الخبير بما يدور خلف الكواليس، وما يطبخ في مطابخ السياسة. تربى في الإعلام واشتغل به منذ أن كان صبياً يبيع الصحف حتى صار كاتب أحاديث وبرامج، ومازال وهو فوق الأربعين محافظاً على تقاليد الإعلام العريقة، إذا سمع مسؤولاً كبيراً ينوى زيارة المقابر، امتلأت برامجه بتمجيد الموتى واستلهام العبرة من زيارتهم، وإذا نبذ المسؤول تلك الزيارة أطلق رشيد غانم حملة ضارية ضد الذين يعبدون الموتى ويقدسون الجماجم والعظام. يعرف أخبار المكافآت والهبات والصفقات التى تعقد مع شركات الإنتاج، وما

وراءها من خلفيات وأسرار، ويعرف أيضاً من هو الأكثر نفوذاً من أصحاب المراكز القيادية فوجب التقرب منه، ومن هو الذى جاء بشأنه منشور إلى الإذاعة، يطالب بحجب أخباره، فوجب الابتعاد عنه. إنه العين التى ترى وتنقل إلى الآخرين ما تراه، لا يتأثر بتبدل العهود أو تعاقب المسؤولين الكبار، محافظاً على مواقعه وبرامجه، قادراً على إرضاء كل مسؤول جديد. يرعى لأنور جلال مصالحه داخل الإذاعة، ويروج في برامجه لألحانه وأغانيه، ويقبض الثمن سهراً وشراباً. يتندر على عمله بالإذاعة قائلاً أن ما يقدمه من برامج ليس إلا استمراراً للمسيرة التى بدأها شيخ كفيف، جاءوا به منذ أكثر من ثلاثين عاماً ليقرأ التراتيل في أول يوم لافتتاح الإذاعة. كان شيخاً مريضاً بالرشح والزكام، تركوه في غرفة الإرسال التى تبث على الهواء مباشرة، ووضعوا أصبعه على زر بجوار ناقل الصوت، وأفهموه بأنه إذا أراد أن يسعل أو يتمخط فما عليه إلا أن يحرك الزر إلى أعلى ليتوقف الإرسال، ثم يعيده كما كان ويواصل قراءة التراتيل، ولكن الشيخ الكفيف فهم العكس، فصار يقفل ناقل الصوت إذا أراد التراتيل، ولا يفتحه إلا عندما يتوقف للتمخط والسعال

وإخراج البصاق الذى تجمع في حلقه. فصار المستمعون الذين يتحلقون حول أجهزة المذياع، في أول يوم لمباشرة الإرسال الإذاعى، لا يسمعون من إذاعتهم الوطنية إلا صوتاً يسعل ويتمخط ويبصق في وجوههم. وهكذا يقول رشيد غانم، فإن ما يقدمونه من برامج سعالية بصاقية، ليس إلا استمراراً لتلك البداية المباركة التى وضع أساسها شيخ من أهل التقوى والصلاح.

وبرغم أن عبد القادر أمين أصغر سناً من الآخرين. في الثلاثين من عمره أو يزيد بعام أو عامين، إلا أنه تفوق على الجميع بشبكة العلاقات التى يملكها ويجيد استخدامها. يسمونه »صاحب التدابير«، القادر على قضاء كل الحوائج، ابتداء من تجديد رخصة القيادة إلى تدبير تأشيرة الخروج وتجديد جوازات السفر وتحويل العملات ومن توفير السلع المفقودة في السوق إلى تدبير الأوراق الصحية التى تعفي صاحبها من الخدمة العسكرية. علاوة على القيام بمهمات صغيرة هينة، تضمن نجاح السهرة. إذا عز الشراب فهو الذى يقوم بتوفيره في دقائق، وإذا احتاجت السهرة إلى مزيد من النساء أدار الهاتف فإذا بهن حاضرات. لا توجد إدارة أو

شركة إلا وله صاحب يعمل بها، يقضى له مصالحه. ليس مهماً أن يكون مسؤولاً كبيراً، فالمهمة التى يقضيها لك حارس صغير بأحد المخازن قد لا يقضيها لك المسؤول الكبير، وهؤلاء الصغار كما يقول أكثر نجاعة وأرخص ثمناً، لأن لكل إنسان في عرف عبد القادر أمين ثمناً. وبرغم أنه يعمل موظفاً، للعلاقات العامة بشركة مقاولات تتبع الدولة. إلا أن المال يجرى بين يديه كما لو أنه صاحب تلك الشركة. ابتنى عن طريقها دارة بضواحى المدينة تحيط بها مزرعة، ويكترى شقة كبيرة قريباً من شقة أنور جلال يأتى إليها بأسرته أثناء النهار، ثم يعيدهم إلى بيتهم ليلاً لكى يتفرغ للسهر والشراب ومصاحبة النساء إلى شقته في آخر الليل. ولا أدرى كيف يستطيع بعد ذلك أن يستيقظ ويذهب إلى عمله ثم يمضى لقضاء مصالحه ومصالح الآخرين. طاقة غريبة من النشاط والحيوية والقدرة على الحركة والانطلاق في مختلف الاتجاهات، وخلافاً للقاعدة التى تقول بأن ضابط العلاقات العامة يجب أن تكون له أسنان ناصعة البياض، يستخدمها في الابتسام والحصول على القبول، فإن أسنان عبد

القادر أمين كانت متهدمة صفراء، برغم وجهه الملئ نضارة وشباباً.

- جادك الغيث إذا الغيث همي

- يا زمان الوصل بالأندلس

أندلس مفقود. معلق بين السماء والأرض. بين زمن ضائع وزمن لا يأتى. بين وصل لا يتحقق إلا في الحلم، وجفاء لا يأذن بالانتهاء. وأوتار العود تصنع سلماً إلى عالم هزم العالم الواقعى وانتصر عليه، لا يقوى على صعوده إلا كائن أسطورى جاء إلى هذا الزمان يرتدى في قدميه نعالاً من الضوء.

قلت لأنور جلال عندما التقيت به نهاراً:

- يجب أن تعذرنى إذا لم أستطع مواصلة السهر معكم.

كان يجلس في شرفة شقته يقرأ مجلة فنية، ويشرب القهوة. وكان الوقت قبيل الظهر. كنت قد فكرت فيما يجب أن أقدمه لأكون جديراً بالانتماء إلى هذه المجموعة التى تسطع سهرتها ألقاً وتوهجاً وضحكاً بعد أن تنطفئ الأضواء وتهمد الأصوات في بقية أركان الدنيا. أيقنت أنه لا مكان لى

بينهم، ولا شيء في حوزتي أسهم به في إحياء سهرتهم، ولا طريق أمامي سوى أن أستقيل.

فاجأته اللهجة الجادة التي تكلمت بها. أقفل المجلة ووضعها بجوار فنجان القهوة. ثم أطبق عينيه الصغيرتين وهو ينظر نحوي نظرة مركزة وكأنه يدرك أن ما يقوله لساني لا يتفق مع حقيقة ما يريده قلبي.

- هل حدث شيء يغضبك؟

- لم يحدث إلا ما يبهجني.

قررت بدلاً من التحجج بالعمل والتعب، أن أكون صادقاً وأخبره بحقيقة المشاعر المتصارعة في نفسي:

- دعني أحدثك بصراحة. أعرف أن ثمن ما نستهلكه من شراب كل ليلة يصل إلى مئات الدنانير. وأنا لا أستطيع أن آخذ دون أن أقدم شيئاً. لا أستطيع أن أستغل ما لقيته من كرم أكثر مما فعلت.

- ما بيني وبينك أكبر من هذه الاعتبارات التي لا معنى لها. لا أحد يدفع نقوداً ثمناً لهذا الشراب. إنه يأتي لأصحابه من خارج الحدود. وتصل إلينا قطرات منه، فما

الضرر إذا استعان الإنسان على الدنيا بكأس يحميه من الجنون. إنك تغضبنى عندما تقول هذا الكلام.

رآنى متردداً في التسليم بمنطقه فأضاف:

- سأكون أكثر غضباً إذا تركتنا الآن بعد أن أخبرتنى بالسبب. ثم انه لم تبق سوى بضعة أسابيع وينتهى الصيف، فدعنا نترافق هذه المدة القصيرة ولا تقلب المسرة غماً.

مازلت لا أجد تفسيراً لهذا الإلحاح أكثر من أنه وفاء لعلاقة ربطتنى به أثناء الطفولة وأراد أن يستحضر ما فيها من صفاء وبراءة في زمن فقد البراءة والصفاء. قلت ضاحكاً وأنا أرى الغضب يلون وجهه:

- مازلت سريع الغضب كما كنت أيام الطفولة.

- إننى لا أقوى على الغضب إلا من الأصدقاء القريبين من نفسى، أما مع الآخرين فهو ترف لا أقدر عليه.

تأملته قليلاً. وجه حليق لم يفقد برغم الظلال وسامته وصفاء بشرته. أصاب الصلع الجزء الأمامى من رأسه ولكن ما تبقى لديه من شعر ظل غزيراً فاحم السواد. أطاله في سباسب تغطى العنق والأذنين، وغطى بسباسب أخرى المنطقة العارية من الشعر في رأسه. خطر لى أن أسأله إذا

ما كان سعيداً وراضياً عن الحياة التى اختارها لنفسه، وعن أنور جلال الذى أزاح جمعة أبو خطوة واحتل مكانه. ولكننى بدلاً من ذلك سألته سؤالاً آخر يتعلق بما حسبته تناقضاً بين دراسة دينية امتدت زمناً طويلاً وبين هذه المهنة التى اختارها ونوع الحياة التى يعيشها، فهل ذهبت كل تلك السنوات التى كرسها لدراسة الدين، عبثاً.

- قضيت زمناً طويلاً في الدراسة الدينية، أليس كذلك ؟.

- عشرون عاماً، نصفها في جامع الباشا، ونصفها الآخر في الأزهر الشريف.

- وهل ذهبت كل هذه السنين هباء دون أن تستفيد منها بشىء.

- كيف لم أستفد. يكفي أننى خرجت منها بفهم لهذه الحياة التى يقول عنها القرآن إنما الحياة الدنيا لهو ولعب.

- وهل هذا كل شىء؟

- وهل تظن أن ذلك شىء يسير، أو أن الوصول إلى هذا الفهم كان أمراً سهلاً بالنسبة لإنسان مثلى واجه ميراثاً بحجم الجبال وطبقات من الصوان والقصدير التى أرادت أن

تقمع الفنان في نفسه. إن اللهو واللعب مطلب عزيز المنال، لا سبيل إليه إلا بالمعاناة والتعامل الصادق مع الحياة.

ها هو الرجل يطرح تناقضاً جديداً، ويجعل اللهو والعب الذى جاء في الأثر الشريف باعتباره ذماً للدنيا واحتقاراً لها، قضية كدح وصدق ومعاناة. إننى معجب بمهارته وهو يستنبط من دراسته للدين الحنيف نظرية في اللهو واللعب.

- وماذا عن الفن؟

- لا أفهم الفن إلا سبيلاً لخدمة وتعميق هذا المعنى الذى يربط الحياة باللهو واللعب.

قالها بمرح يمتزج فيه الجد بالهزل، ولكن أكثر أغانيه صدقاً تؤكد أن ما يقوله ليس صحيحاً. رأيت أنها مناسبة لكى أعود إلى طرح السؤال الذى تحرجت منه في البداية.

- هل أنت سعيد حقاً بهذه الحياة ؟.

ضحك بإسراف لا أدرى إن كان إعجاباً بالسؤال أم سخرية منه.

- هذه أسئلة نتركها لكم أساتذة الجامعات. أما نحن بسطاء الناس فأننا نمضى حيث تمضى بنا الحياة دون أن

نقف لنسأل أنفسنا هذه الأسئلة الفلسفية المعقدة عن السعادة ومعناها.

لقد هرب من السؤال، ولكن لأغانيه طابعاً حزيناً يفضح قشرة اللهو واللعب التى يحاول الاحتماء بها. إنه يسرف في تلحين أغانى المناسبات طلباً للرزق والأمان، حيث يتضاءل المستوى الفنى وتغيب شخصيته الحقيقية. ولكنه يتبدل خلال أغانيه القليلة الأخرى، صاحب موهبة وأصالة، وقدرة على إبداع رؤية فنية خاصة به لا تقتات على التقليد والاجترار.

نهضت لكى أتركه مع مجلته وأعود إلى سناء، إلا أنه استبقانى قائلاً:

- الآخرون رفاق كأس وألفة، علاقة لها لون هذه الأيام. أما أنت فأنك شريك في الانتماء لتلك الجذور، وشاهد على الحرب التى أعلنها عمك أبو خطوة ضد السماء.

كان والده يصنع الجرار والأطباق والقدور وغيرها من أوان فخارية، ويعطيها لصبيان الحى يسرحون بها بين البيوت مقابل ملاليم يمنحها لهم من ثمن البيع. كنت أحد الذين شاركوا في بيع أوانيه قبل أن يعرف والدى فيمنعنى

خوف أن يلهينى هذا العمل عن دراستى. أما معركته الشهيرة ضد السماء فقد حدثت عندما كان يجفف أوانيه فوق السطوح. كان يوماً مشمساً من أيام الربيع ثم فجأة ودون إنذار وقبل أن يجد الرجل فرصة لإنقاذ أوانيه، انهمرت الأمطار وأتلفت الجرار والصحون والأباريق التى لا زالت لينة خضراء. خرج العم أبو خطوة فوق سطح البيت، ومفجوعاً بما حدث لأوانيه، وقف هناك تحت الأمطار يرفع يديه إلى السماء في تشنج وعصبية، ويرفع عقيرته صائِحاً، يهدد ويتوعد ويحتج ضد غدر الأمطار وظلم كائنات السماء. صار الموضوع قصة يتندر بها أهل المدينة القديمة، وعانى الرجل من جفاء الرجال الكبار الذين نبذوه واعتبروه مارقاً على الدين، فتخلف لزمن طويل عن حضور صلاة الجماعة في المسجد لأنهم رفضوا أن يصلى معهم. ولا شك أنه ما أرسل ابنه بعد ذلك إلى الأزهر منفقاً شقاء العمر من مدخرات قليلة على إرساله، إلا تكفيراً عن تلك الغضبة العنيفة التى ندم عليها فيما بعد. كان يريد لابنه أن يكون الرجل الذى لم يكنه. ولكن الابن بطريقة ما حقق لوالده حلمه. حقق له رغبته اللاواعية في

الثورة على أولئك الرجال الذين نبذوه ومنعوه من الصلاة معهم في المسجد.

كيف لا أذكر عمى أبو خطوة، قلت لابنه، وقد كانت النقود التى أخذتها منه، ثمن أول قطعة شيكولاته أشتريها في حياتى.

بقيت مع أنور جلال أستحضر بصحبته عالمنا القديم. رأيته يتحدث بحب وحماس عن تلك الجزر التى يغمرها الماء، فأدركت أن شجن أغانيه يأتى من حنينه إلى تلك الأيام التى لا تزال متوهجة في عروقه، وأن تلك الجذور هى التى تغذى فنه الآن. بدا لى واضحاً، أن الطفل المطموس تحت ركام لفافات التبغ واقداح الشراب وموسيقى الأناشيد الرسمية، لا يستطيع أن يتنفس إلا عندما يدير وجهه بعيداً عن عالم هذه الأيام، ويستقبل فضاء الذكرى.

انطلق الحديث في معارج أكثر حميمية وألفة، فسألته عن أسرته وأولاده. أخبرنى بأنه يضع حداً فاصلاً بين حياته العائلية وحياة الفن ومتطلباته. ولذلك فهو يبقيهم بعيداً عن هذه الأجواء. قائلاً بأن وجهاً آخر شديد المحافظة والتزمت، ينبئ بأن دراسته الأزهرية لم تذهب كلها سدى. سألنى عن

سناء وعما إذا كنا قد حددنا موعداً للزفاف، واعداً بأنه سيأتى بأشهر المطربين لإحيائه. أخبرته بأننى مازلت أنتظر ورقة تتلكأ في المحاكم لا أعرف سبيلاً للحصول عليها. ما أن تأتى حتى نكمل العرس. قال قبل أن نفترق:

- عدنى بألا تتخلف عن السهرة، وأعدك بأن يأتيك بها عبد القادر غداً.

وفي الليلة التالية جاء عبد القادر أمين بالورقة، في يسر وسهولة جاء بها ودون حديث عن متاعب واجهها في الحصول عليها. لن أحتاج لأن أذهب بعد اليوم إلى ذلك البناء الذى يشبه قلعة من قلاع القرون الوسطى، بكل ما يثيره من وحشة وانقباض، ولن أعبر ذلك الرواق المظلم وأشتبك في نهايته مع موظف له ملامح تشبه شبكة العنكبوت. جاء الرجل بالورقة التى انتظرتها طويلاً، واعتبرتها وثيقة تحرير من الرق. أخرجها من جيبه كما يخرج الساحر من كم قميصه سرباً من الحمام، لينفتح الأفق، زاهياً رحباً، مليئاً باحتمالات الفرح، وعامراً بأناشيد الانعتاق.

شاركت في وصلة الغناء الشعبى بشهية مفتوحة للمرح والطرب، ورجعت إلى غرفتى أستعجل مجىء النهار كى

أذهب إلى سناء لنباشر من فورنا الإعداد للعرس ووضع قائمة بأسماء الضيوف. انتهى الانتظار الطويل. لن أحتاج بعد اليوم إلى أن أحارب فورة الدم في العروق كلما رأيتها ترتدى لباس البحر، فما هى إلا بضعة أيام حتى أراها تتمدد كنهر من الضوء فوق فراشى. ليهنأ إذن شحاذ الرغبة ولينم سعيداً كأى شحاذ بات يدرك أن حلمه بامتلاك الجرة الذهبية سيتحقق بعد أيام.

جاء الصباح وذهبت مبكراً أنقل فرحتى إليها وإلى أمها التى كانت قلقة على مصير ابنتها عندما وافقت على خطوبتها لرجل لم يفك ارتباطه بزواجه الأول. صار من حقها أن تهنأ الآن. لن يكون زواجنا كغيره من مواثيق الزواج. سيكون نهراً يضاف إلى أنهار العالم. وسماء أكثر بهاء، نصنع بها سقفاً جديداً للدنيا. عانقت سناء أمام أمها دونما حرج. فسوف تصبح زوجتى بعد يوم أو يومين. ولكن الأم جاءت تتكلم بلغة أذهلتنى، وأخرجتنى من دوائر الأحلام التى تبنى خيامها فوق أرض الواقع، إلى واقع أجرد لا يعرف الخيال والأحلام. إنها تتكلم بلسان المجتمع وحقائقه وتقاليده، فالزواج في عرفها وعرف المجتمع ليس عاشقاً يأتى راكباً فرسه حتى

يصل إلى خباء حبيبته فيردفها خلف ظهره ويمضى. إنه أكثر تعقيداً من ذلك. وهى لا تطلب مهراً لابنتها ولا تسأل عن الصداق والمقدم والمؤجل ولكنها تسأل عن أشياء لا يتحقق الزواج بدونها. تسأل عن بيت تعيش فيه ابنتها غير هذه الإقامة الفندقية، وهى أيضاً لا تريد أن تزوج ابنتها في الخفاء وإنما تريد لها عرساً بمثل ما جرى به العرف في هذه المدينة وبكل ما يحتاجه من ألبسة وحلى واستعداد. ها هى الورقة التى جئت فرحاً أحملها في جيبى تكشف عن وجه آخر للقضية أكثر ثقلاً ومسؤولية. إننى أرفض التسليم السريع بمنطق الأم، ولكننى في ذات الوقت أحس بحرج بالغ وأنا أعترف بعجزى عن تلبية الالتزامات الكثيرة التى يريدها العرس أو تدبير بيت وتأثيثه في وقت قصير. دافعت عن رغبتى في الإسراع بالزواج الذى أريده أن يكون زواجاً بسيطاً يتفق مع روح العصر ولا يحتاج لأكثر من مأذون وحفل صغير يحضره عدد من الضيوف، أما تدبير البيت فهو مسألة تأتى مع الأيام. ولكن الأم تضع عينها على المجتمع وما يقوله الناس، فهى لا تستطيع أن توافق على تزويج ابنتها بطريقة سرية تثير الشبهات في أذهانهم. أما البيت فكيف

أنكر عليها حقها في أن تطلب لابنتها بيتاً يأويها. وكانت سناء أيضاً مع فكرة الانتظار الذى يتيح لنا وقتاً للبحث عن بيت وتأثيثه. رضيت بالتنازل عن فكرة الزواج العصرى السريع، وذهبت في ذات الصباح إلى قسم الإسكان الجامعى، أقدم طلباً وأضع اسمى في أسفل اللائحة، في حين انكفأ شحاذ الرغبة يبكى في إحدى زوايا القلب. رأتنى سناء مكتئباً وأنا أذهب بها إلى البحر، فصارت تطمئننى قائلة بأنه ما أن نحصل على الشقة حتى تهون المشاكل الأخرى. ستضم مرتبها إلى مرتبى ومدخراتها إلى مدخراتى لنتمكن من مواجهة نفقات التأثيث ومصاريف العرس، ولكن هذه الصورة المتفائلة للغد لم تستطع أن تزيل حالة الإحباط التى لازمتنى طوال النهار. لماذا تصبح الأشياء أكثر تعقيداً بمجرد أن نضع حساباً للآخرين. إن شيئاً من هذا ما كان ليحدث لو لم نكن نفكر بالمجتمع، وما جرى به العرف، وما يقوله أبناء وبنات آوى من سكان البيوت التى تجاورنا. ولكننى أعود وأقول، لمن يمكن أن تقام الأعراس العظيمة إن لم تقم لامرأة لها بهاء سناء وروعة عينيها وصفاء جيدها، ولمن تصاغ المجوهرات الغالية وتصنع الثياب الفاخرة إن لم

تكن من أجل هذه الأنثى التى تزدهى الدنيا بالنظر إليها. ألست آثماً في حقها، عاجزاً عن الوفاء بالتزامات حبها ؟. فبأى حق أغضب لأنها سألتنى توفير مسكن صغير أقيم فيه مع ابنتها؟ كيف أضع اللوم على الآخرين وأشتم الناس والمجتمع وأنسى نفسى؟ أنسى أننى إنسان بائس، عاجز، يتسول الحب كما يتسول السهر والشراب. يريد أن يأخذ دون أن يكون في مقدوره أن يقدم شيئاً.

جاء الليل وجلست مع الساهرين، مسلماً نفسى للخدر اللذيذ الذى يسرى في الجسم مع دورة الكأس. هل فكرت حقاً أن أستقيل من هذه الجلسة؟ كم يبدو سخيفاً ذلك التفكير وباعثاً على الضحك. من أين لى بلحظات أتمتع فيها برفقة هؤلاء الرجال الخارقين الذين حققوا تفوقاً يتفق مع الطفرة الاجتماعية التى جاء بها النفط. إنه موقف يحتوى على مفارقة طريفة. أسكن مع الميسورين في جناح بمدينة سياحية، واختلط بأهلها كأننى واحد منهم ثم أعجز عن تدبير شقة كبقية الناس، بعد أن تخليت في لحظة ضعف عن شقة جاءت بالصدفة من إرث رجل ميت. لم أكن قد فكرت ماذا سأفعل بعد أن تنفذ المدخرات القليلة التى اعتمدت عليها في

تأجير هذه الغرفة. استسلمت لإغراء الحياة السهلة، ونسيت أننى رجل ينتمى لأدنى درجات السلم الاجتماعى، لا مورد لى إلا مرتبى، وأتعفف برغم ذلك عن قبول دخل إضافي يمنحه لى عبد القادر أمين الذى يريدنى أن أترجم بعض الأوراق والرسائل لشركته، أو يمنحه لى رشيد غانم الذى يطالبنى بأن اترجم لبرنامجه فقرة أسبوعية مقتبسة من المجلات الأجنبية.

شربت بأكثر مما تعودت أن أشرب. تفتحت شهيتى للهو اللعب والحديث عن المفارقات الجميلة في الحياة. أليست مفارقة مذهلة أن تأتى الورقة التى انتظرتها طويلاً وأقمت لها عرساً قبل موعد العرس، ثم بعد لحظات قصيرة تصبح مبعثاً لإحساس لا حد له بالتعاسة.

- املأ الكأس، كما يقول عمر الخيام، قبل أن يجف في كأس العمر رحيق الحياة.

- ما أحوجنا إلى خيام جديد يعيد للكأس اعتباره بعد أن صار على أيامنا مجرماً يطارده القانون.

منعت نفسى من الضحك وأنا أنتبه إلى أن الذى يقول هذا الكلام، واحد ممن ينسبون أنفسهم إلى العهد الجديد،

ويدافعون في المنتديات عن أطروحات الصدق والنقاء التى تكره السهر بصحبة الخمر والنساء.

- نعم إن لكل عصر خيامه، وأنا أرشح أنور جلال للقيام بهذه المهمة باعتباره يستمد من الشريعة السمحاء مبدأ يبيح اللهو اللعب.

رمقنى أنور جلال بنظرة تنبئ عن عدم ارتياحه لما قلت. إننى أستخدم حديثاً قاله لى على انفراد، في هذا اللغو الذى يصحب الشراب.

قال بلهجة تحذيرية:

- إنك تشرب بشراهة هذه الليلة، وكأنك تريد خلافته.

نعم. ولماذا لا أشرب بشراهة. أليس هذا شراباً يأتى لأصحابه من وراء الحدود، ولا أحد يدفع فيه نقوداً، فما الضرر من أن يشرب الإنسان كأساً يحميه من الجنون. ثم يضيف إليه كأساً آخر يزيده جنوناً إذا أراد.

توافد على السهرة ضيوف كثيرون كما هى العادة في ليلة نهاية الأسبوع. استنفدوا الكراسى، حتى صاروا يضعون النساء فوق حجورهم، واستنفدوا الويسكى فانقلبوا إلى شرب الفودكا. انمحت التناقضات بين الجالسين، وانتظموا في

مسبحة واحدة تشع برموز المجتمع المنهار من تجار ومقاولين، وبناة المجتمع الجديد من أصحاب النفوذ والمراكز الإدارية.

كنت دائماً أتحاشى خلط الشراب، ولكنها ليلة استثنائية. ومن طلب النشوة استهان بالمخاطر والمحاذير. كأن هارون الرشيد قد تنكر في ثوب عصرى وجاءت به جولته الليلية في أحياء المدينة، إلى سهرتنا. وما هذا الرجل الأسود البشرة إلا سيافه مسرور، أما الرجل البدين الذى يتحدث بلسان ثقيل كأنه أعجمى لا يعرف اللغة، فهو ليس إلا وزيره جعفر البرمكى. وأجاد هارون الرشيد التنكر حتى ضللنى عن الاهتداء إليه. عرفت رفيقيه وعجزت عن اكتشافه. بقيت أتأمل الوجوه لكى أعرفه وأقوم بأداء واجب الولاء والطاعة قبل أن يأمر سيافه بدق أعناقنا إن لم نسرد له حكاية طريفة تبهجه. كنت أفكر في تلفيق حكاية تنجينى من السيف عندما رأيت رشيد غانم يتزلف للسياف مسرور، يحسبه من كبار التجار الذين باعوا أملاكهم قبل التأميم وهربوا أموالهم إلى الخارج، معبراً عن أسفه لهبوط سعر الدولار. في حين اختار عبد القادر أمين، جعفر البرمكى يحسبه من رموز العهد

الجديد، فجاء يشيد ببرامج التقشف التى أعلنتها اللجنة الاقتصادية التى يشرف عليها. مؤيداً سياسة ربط الأحزمة وشدها على البطون. انتابتنى نوبة من الضحك لم أستطع ردعها. رآنى عبد القادر أنظر إليه فسألنى عما يضحكنى. لا أدرى ما هى الأحزمة التى يمكن أن تربط جوفاً مثل جوفه، يتسع لحمل المزارع والقصور والسيارات والفنادق السياحية والقوارب المليئة بالويسكى الذى يأتى مهرباً من سيراكوزا. لقد نسيت بسرعة الشىء الذى أضحكنى، كما نسيت هارون الرشيد ورفيقيه. يجب أن أقول له شيئاً لكى لا يعتبرنى مجنوناً.

- إن لى رأساً لا يحتمل اختلاط الشراب.

- وهل هذا هو سبب الضحك.

واصلت الضحك بشكل أكثر صخباً. إنهم يقيمون كرنفالاً للأقنعة ثم يطالبون بتفسير للضحك. قلت مدارياً:

- نعم. إننى أتصور حالة هذا الكأس المملوء بفودكا قادمة من موسكو، ماذا تراه يقول عندما ينتقل إلى جوفي ويفاجأ بوجود أقداح الويسكى، رمز الخمور الامبريالية وسيدها.

- لا تخشَ شيئاً. سيحدث بينهما صراع عظيم، وسيكون مردوده هذه المرة لصالح النشوة التى تغمر الرأس بسرعة مذهلة، وتجعل الإنسان يضحك دونما سبب.

تعددت الأسباب والضحك واحد. نعم. قلت في نفسى. هذا يحدث عندما يملك الإنسان معدة قادرة، مثل هذه الشقة، على تذويب كل المتناقضات.

- أخشى أن يرفض هذا الكأس البقاء هناك والاندماج مع منتجات الأعداء، فيضطر إلى الرجوع.

لم يكن غثياناً ما أحسست به، ولكن الرجل ظننى أعنى ذلك فقال محذراً:

- يجب أن ترغمه على البقاء وإلا ضاعت السهرة ونحن ما زلنا في أولها.

وأضاف أحد الذين يتولون تمويل السهرة بالشراب:

- واجبنا أن نسعى للاستفادة من عناصر التفوق في مجتمعات الشرق والغرب، بإرادة قوية، قادرة على استخلاص أفضل النتائج منهما معاً.

إنه رجل يحتفظ بإرادته حرة، وموقفه مستقلاً، وبهذا الوعى يباشر مسؤولية المؤسسة المصرفية التى أسندها له المجتمع.

نعم، نعم. هذا ما سأفعله الآن. مستخدماً إرادة القوة في إرغام هذا الكأس على البقاء والاندماج مع نقائضه. فمن ذا الذى يستطيع إفساد سهرة تقام فوق أرض يغمرها الوفاق الدولى والوفاق المحلى، وتنصب لها خيمة على تخوم مجتمع قديم ينهار، ومجتمع جديد يولد في الخلاء، وتمضى بمباركة الاثنين. شقت السهرة طريقها بيسر وسهولة إلى فضاءات اللهو واللعب والثمالة. عزف أنور جلال وغنت سعاد مقطعاً من أغنية الأطلال وسط تهليل وإعجاب الساهرين. قال أحد المقاولين القدامى غامزاً، لزملاء السهرة ممن ينسبون أنفسهم إلى العهد الجديد:

- لا شىء يستحق التمجيد في هذا الزمان سوى الأطلال.

واصلت سعاد الغناء بصوت يجيد حفظ المقامات الموسيقية ولكنه يفتقر إلى العذوبة والصفاء:

- يا حبيباً زرت يوماً أيكه.

ظلت تعيد ترديد هذه الجملة حتى أفاق أحد الحاضرين إلى أنه لا يعرف معنى كلمة »أيكه«، فقاطعها متسائلاً عما تعنيه. تلقف الآخرون الكلمة يعبثون بها ويحرفونها ويصنعون منها كلمة جنسية بذيئة. توقف العزف والغناء وتفرغ الجميع للضحك والتهريج وتركيب الفكاهات حول هذه الكلمة. وفي حين وضع أنور جلال عوده جانباً واستغرق في الضحك حتى دمعت عيناه. فإن سعاد لم تكتم غيظها لهذه المقاطعة المهينة لغنائها، دون أن يعبأ أحد بها وسط الضحك والضجيج. اختفت داخل الشقة ثم عادت وظلت واقفة. أفسحت لها مكاناً بجوارى فجلست على حرف الكرسى لا تشارك في الضحك ولا الحديث. وبقى الرجل المصرفي يطالب بمعرفة معنى الكلمة حتى وجد من أخبره به.

- إذن فهى تقصد أن تقول يا حبيباً زرت يوماً بيته.

- هذا بالضبط ما تقصده.

أبدى الرجل اندهاشاً أكثر مما أبداه مثرى موليير عندما اكتشف أن ما يقوله من كلام هو النثر. وبقى يردد الكلمة مستغرباً، ضاحكاً، معجباً بها، حتى أيقنت بأنه سوف يستخدم نفوذه لإضافتها إلى قاموس المجتمع الجديد.

ولن يقرأ بعد اليوم كلاماً عن المساكن الشعبية، مشاريع الإسكان وأزمة الإسكان، وإنما كلاماً عن الأيكات الشعبية ومشاريع الأيكات وأزمة الأيكات. وما مشكلتى هذه الليلة أيها الرجل الذى يرتدى ألوان الجاه والنفوذ إلا العجز عن توفير أيكة أعيش بها مع امرأتى لكى لا تتقوض حياتى وتتحول إلى أطلال.

كنت ثملاً عندما وصلت السهرة إلى نهايتها. انصرف بعض الساهرين في حين بقى عدد كبير ممن أثملهم الشراب. ولأن الشقة لا تتسع لنومهم جميعاً فقد تولى عبد القادر أمين ترتيب الأمور ودعوة بعضهم للمبيت في شقته. كنت قد تجاوزت عتبة الباب عندما لحق بى قائلاً بأنه سيضطر إلى الاستعانة بشقتى في إيواء واحد أو اثنين من الضيوف. عبرت له عن حرجى، لأننى لا أعرفهم معرفة تسمح برفع الكلفة إلى حد المبيت معهم في مكان واحد، ولكن للسهر أحكامه فليختر لى من يشاء. تركنى واقفاً في الشرفة، ثم عاد وهو يسحب سعاد من يدها.

- ما رأيك في هذا الاختيار.

رآنى مندهشاً فغمز بعينه وهو يضحك ويبسط ملامحه ويربت على كتفي كأنه اصطفانى لرحلة مثيرة إلى جزيرة أطلنطيس. لقد شربت من شرابهم وجلست معهم في سهراتهم التى تمتد إلى الصباح وكأننى واحد منهم، دون أن أبدى استعداداً للدخول في لعبة تبادل النساء. لعله اعتبر ذلك خجلاً أو غشامة أو عجزاً عن التواصل معهن، فجاء هذه الليلة يسهل لى ما كان صعباً ويختار لى من هذا الفائض عن حاجة الشقق الأخرى، شريكاً يمكن رفع الكلفة معه والنوم بصحبته في غرفة واحدة. أو لعل سعاد هى صاحبة المبادرة، وهى التى كلفته بهذا المسعى. وقفت متردداً، متحرجاً من اصطحابها معى. كانت هى ما تزال واقفة بجوارنا تعلق على كتفها حقيبة جلدية عامرة بنقوش لا معنى لها. ماذا أستطيع أن أقول. أدى الرجل مهمته وعاد إلى ضيوفه وتدبير أماكن نومهم. في حين تحركت بصحبة سعاد باتجاه شقتى. ولكننى سأمتنع عن الاقتراب منها. لتشبك ذراعها بذراعى كما تشاء، ولتلصق جسمها بجسمى وتحاول تطبيق نظريتها عن التيار الكهربائى الذى يصعد مع الجسم، فكل ذلك لن يجعلنى أنقض هذا العهد. إننى ضحية تواطؤ بينها وبين رجل التدابير،

ولكننى سأقاوم الغواية حتى لو رفعت درجة التيار إلى حده الاقصى. إنها امرأة شهية. تملك جسداً فتياً وأسناناً تشع بياضاً برغم التبغ والشراب. تحب اللهو واللعب وترديد الأغنيات المرحة. أبدت انفعالاً صادقاً وهى تغنى يا حبيباً زرت يوماً أيكه، حتى أحسست بأنها تقصدنى بكلامها، فتعاطفت معها وتأسفت للإهمال الذى لاقاه غناءها، وعبرت لها عن إعجابى بصوتها وأدائها. ها هى تزور الآن أيكتى مكافأة لى على هذا الإعجاب، وتحقيقاً للحدس الذى راودنى عندما سمعتها تغنى. ومع ذلك فسأمتنع عن الاتصال الجنسى بها. وإذا أرادت نقوداً فسأعطيها النقود دون أن أقبض الثمن متعة وجنساً. ليس زهداً وإنما حسابات ربح وخسارة. أجد فيها أننى الطرف الخاسر في هذه الصفقة. أعرف الشرخ الذى يحدثه اتصال كهذا، بعلاقة الحب التى تتمحور حولها حياتى. ولن أكون غبياً، فأبيع علاقة عمر مع سناء مقابل ليلة لذة مع سعاد. لن أعتبرها نزوة طارئة، أو لحظة من لحظات العبث واللهو. ستذهب اللحظة أو النزوة وتبقى آثارها تلتصق بالجسد والوجدان. لن أذهب إلى سناء، ملوثاً بخيانتها. لا لن أفعل ذلك. ها هى تأخذ حماماً. تغسل الجسد من أدرانه

القديمة، وتهيئ نفسها لعرس من الأعراس التى تقيمها كل ليلة. كم رجل تغذى من ثمار هذا الجسد. ولكنه جسد كموائد المعجزات، التى تطعم كل الناس دون أن ينقص منها شيئاً. وها هو الماء يغسل آثار البصمات ويجعل البدن نقياً، وجديداً، مثل تفاحة ذهبية. لرشرشة الماء فوق جسمها إيقاع مثير ومهيج. لن أستسلم له، مهما دق شحاذ الرغبة الأعمى عكازه بالأرض احتجاجاً. لن أستسلم له أو لها. سأذهب إلى السرير، سأحاول استدعاء سلطان النوم كى يأتى لإنقاذى هذه الليلة. ولكن للنوم سلطاناً بالغ الغشامة والكبرياء. إنه لا يأتى عندما نستدعيه. هى التى تأتى وقد ارتدت قفطان نوم من الشيفون الأحمر، لا يغطى شيئاً من تفاصيل الجسد الأنثوى، وإنما يضيف إليه توهجاً واشتعالاً. نهدان لا غطاء لهما ولا حماية منهما، وفخ شهى مفتوح، سأناضل ضده هذه الليلة، إنها ليلة المفارقات العظيمة. وأهمها أننى سأختبر الآن رجولتى بالامتناع عن ممارسة الرجولة مع هذه الأنثى. سأعتبرها قطعة أثاث. وسادة. سجادة. شبحاً. دولاباً. أى شيء يستحيل التواصل معه. سأتظاهر بالنوم، وسأرسل شخيراً عالياً، مفزعاً، يخيفها يوقف هدير الدم في عروقها. ها

هى تنضو القفطان عن جسمها، وعارى تندس في فراشى. تغمرنى بعطرها. تحتوينى بذراعيها. تنثر أعضاءها فوق جسمى. ترمى شعرها فوق جسدى. تركض الجياد في دمى. لماذا يكون لجسم الأنثى عندما تخرج من الماء كل هذه العذوبة هذه النضارة. هذا السحر وهذه الغواية. أنهمك في عناقها وتقبيلها. سأطفئ بالتقبيل والعناق هذه الحرائق. سأسكت صهيل هذه الجياد العنيدة الكافرة. سأحاول خداعها. تقديم رشوة لها. حتى تتوقف عن الصهيل. لن أتمادى أكثر من ذلك. ولكن كم مضى من الوقت لم أمارس الجنس. شهر. شهران. ثلاثة أشهر. ربما أكثر من ذلك. لا يهم. ليكن جسمى أرضاً عطشى، ولتكن هذه المرأة غيثاً يهمى، فسأمتنع عن الانتفاع بأمطارها. لتكن سحائب خير، عامرة بالماء والبرق والرعد، فسأتحول إلى أرض صخرية هذه الليلة لا تشرب الماء ولا تنبت الزرع. امرأة خبيرة بممارسة الحب، تثبت لى في كل لحظة أنها ابنة مهنتها التى تحيل العملية الجنسية إلى صراع تخوضه بالأظافر والأسنان بمثل ما تستخدم النهدين والشفتين واللسان للفوز بما تريد، تئن وتتوجع وتنتفض ارتعاشاً كأن تيارها الكهربائى ارتد

يصعقها. وأنا أرفع راية التسليم أمامها، وأمشى مغمض العينين شبقاً وشهوة، يقودنى شحاذ الرغبة الأعمى إلى فخها.

غمر الهدوء الدنيا فلم يبق إلا حفيف الأنفاس. بقيت مستلقياً بجوارها، أدخن سيجارة من سجائرها، وأراقب الدخان الذى يخرج من فمى وهو يسلك طريقاً متعرجاً حتى يلتقى بدخان السيجارة التى تدخنها. يشتبكان معاً ويصنعان شكلاً هلامياً، سرعان ما يذوب في فضاء الغرفة. ولم أكن نادماً. لم أجد في نفسى أى أثر لمشاعر الخيبة والخذلان. إننى لم أرتكب إثماً. لم أقع ضحية لمؤامرة من أحد. بدليل أننى لا أحس الآن إلا بالنشوة والرضا. إننى لا أنظر إلى ما حدث باعتباره غواية. أو خيانة للمرأة التى أحبها. إنه استجابة لعرض سخى من امرأة شهية مغرية. لا تشكل عبئاً، ولا تطالب بعلاقة دائمة، ولا تضع نفسها موضع المنافسة مع سناء. ما تسعى إليه هو اقتناص لحظة من لحظات النشوة تكتفي بها، ثم تمضى مع الليل الذى منه تأتى وإليه تعود. إن استجابتى لها تمنحنى علاجاً لمشاعر الإحباط التى أحسست بها عندما اكتشفت أن زمناً طويلاً سوف يمضى قبل أن ألتقى بسناء في غرفة نوم واحدة. فلماذا ألوم نفسى، وألوم هذه

المرأة التى جاءت لإرضاء جسد لم يجد في علاقة الحب التى تربطنى بسناء سوى الإهمال.

وعندما جاء الصباح لم تتغير مشاعرى. كنت مدركاً أنى وصلت إلى تبرير مقنع لسلوكى. والجسد الذى وجد نفسه مقذوفاً في معركة الجنس ليلة البارحة لم يكن إلا جسدى، ولكنه مارس إرادته بمعزل عن إرادتى. منفصلاً عن عواطفي. يؤدى وظيفة بيولوجية كان لابد أن يؤديها من أجل الحفاظ على حيويته وعافيته. عملية أشبه بعمليات فصد الدم. لا علاقة لها بالحب والعاطفة.

كنت أقود سيارتى، ذاهباً إلى سناء عندما باغتنى ذلك السؤال الذى صرت أقلبه في رأسى وأنا أحس بالفزع والارتباك. ماذا لو عرفت سناء بما حدث؟ إنه افتراض بعيد الاحتمال، قلت في نفسى، لأنها لا يمكن أن تعرف. لا يجب على الإطلاق أن تعرف سناء بما فعلته ليلة البارحة، لأننى لا أقوى على تخيل النتيجة. ولكن ما هو ذلك الشىء الذى يبقى في نفوسنا بحيث تستطيع المرأة التى نحبها أن تهتدى إليه منذ اللحظات الأولى. لأن هذا ما أحسست به وأنا أصل إلى سناء واجدها تنتظرنى أمام عتبة البيت. فتحت لها باب

السيارة، فجلست بجوارى وهى تنظر نحوى وكأنها تبحث عن شىء ناقص. وبشكل لا إرادى تفقدت ملامحى في مرآة السيارة. تبسمت.

لم تسرق المرأة أهدابى أو حواجبى أو سناً من أسنانى. كان كل شىء في وجهى ثابتاً في مكانه. أسرفت في التعبير عن عواطف الحب لسناء، واعتذارى لأننى تأخرت في المجىء إليها. كنت أريد أن أشغلها عن الموضوع الآخر. ولكنها تعرف بغريزة الأنثى أننى ارتكبت إثماً في حقها. إذ من أين جاء هذا الشك الذى أراه في عينيها. لعله ليس شكاً. وإنما إحساس بالذنب باغتنى وأنا ألتقى بها، وجعلنى أسقط مشاعرى على مشاعرها، وأتوهم أنها هى التى ترتاب في سلوكى. ظننت منذ لحظات أننى جئت مهيأ لها، متصالحاً تمام المصالحة مع شحاذ الرغبة الأعمى الذى أوقعنى في هذا الفخ. فلماذا أبدو الآن ضعيفاً، غير قادر على النظر في عينيها. استعدت شيئاً من توازنى عندما وصلنا وبدأنا نباشر استعدادنا للنزول إلى البحر. ولكن صوتها جاء فجأة يحمل نذر الهلاك، عندما قالت:

- ما الذى حدث ليلة البارحة؟

ألقت سؤالها وهى تتفقد وجهى كأنها تقرأ كتاب الفضيحة منشوراً على جبينى. كانت اللهجة التى قالت بها السؤال لهجة ودودة وهادئة، ولكن هذه البطانة من الود التى تشبه دهاء المحققين لم تمنع رعشة تشمل جسمى. هل لهذه المرأة بصيرة تخترق الحجب والمسافات وترى مثل زرقاء اليمامة ما لا يراه الآخرون. كنا قد اقتربنا من الشاطئ. وكان البحر هائجاً، والموج يضرب الصخور ضرباً عنيفاً صاخباً، والرذاذ يصل إلى وجهى ويملأ فمى بالملح. كدت ارتمى منهاراً تحت قدميها أطلب المغفرة. ولكننى تمالكت نفسى وابتلعت ريقاً ممزوجاً بأملاح البحر قبل أن أقول:

- ما الذى حدث؟

أعدت إليها السؤال متصنعاً الدهشة والبراءة، مدركاً أنها سوف تكشفنى وتفضح أسرار الليلة الماضية.

- يبدو واضحاً أنك أفرطت في الشراب.

كانت آثار ما استهلكته من خمور امتزجت فيها مهارة الشرق بمهارة الغرب، مازالت معى، تملأ عينى بالتعب ورأسى بالصداع. ولكن هل هذا كل شيء. أليس هناك شىء آخر تريدين أن أخبرك به. الحق أقول لك، أننى أسرفت

كثيراً جداً في الشراب. فعلت ذلك وأنا أحبك. وذهبت مع تلك المرأة إلى الفراش وأنا أحبك. وعدت منها وأنا أحبك. لا شيء منى تبقى معها. ولا شيء منها تبقى معى. لأننى لا أنتمى لأحد إلا لك. ولا أعترف بمركز للكون إلا أنت. ولا محور تدور حوله الأرض غيرك. أنت المبتدأ والمنتهى بالنسبة لى، فلماذا إذن تتأملينني بهذه النظرات الغريبة، التى تبحث عن شيء مفقود. ما الذى تجدينه ناقصاً من أجزائى، إننى أعود إليك كما تركتنى بالأمس. جسداً، وروحاً، ومظهراً، وجوهراً، وشوقاً لا ينقص بل يزيد. أردت صادقاً أن أسألها عما تراه قد تبدل في عواطفي نحوها. ولكننى كنت عاجزاً عن الكلام. إحساس بالضآلة يداهمنى. ما أنا إلا إنسان تافه، تافه. يجب أن أعترف بذلك وأعلنه للدنيا. إنسان لا يعرف قيمة هذه المرأة. ليس جديراً بها ولا كفؤاً بحبها. ولا كيف طاوعتنى نفسى على فعل ما فعلت. هل كان ذلك حقاً مجرد إطفاء لحرقة الجسد. ولكن الجسد مازال يتحرق شوقاً لوصالها. ولن يحقق ارتواءه الحقيقى بعيداً عنها. تخوم هذه المرأة، جسداً وروحاً، هى تخوم العالم المشتهى، الذى لا أعرف كيف أقترب منه، أو أتعامل معه، أو أحافظ عليه،

لأننى بعبارة واحدة، لا أستحقه. أهنت نفسى عندما أهنتها، وغدرت بمشاعرى عندما غدرت بها، ولا سبيل إلى التطهر والخلاص إلا بأن أخبرها بما حدث. أتوسل بالصدق والصراحة سبيلاً لمحو الإثم والإهانة. أجلس على كرسى الاعتراف كما يحدث في كنائس الروم وأسرد ما حدث بتفاصيله وظروفه، كوسيلة ألتمس بها الصفح والغفران، وأعيد بها النقاء لعاطفة لم أعرف كيف أحميها من التلوث. ومرة أخرى أجد نفسى عاجزاً على الارتفاع إلى شموخ هذا الموقف ونبله. كل ما أستطيع أن أفعله الآن هو أن أنسى ما حدث. أنساه نهائياً. أرمى به في ركن مظلم من ذاكرتى بحيث يختفي تماماً من منطقة الوعى. كنت قلقاً. والموج الذى يضرب الصخر ويصفعنى برذاذه، انتقل بكل عنفه إلى صدرى. لم ينقذنى من مشاعرى إلا دخول سناء إلى البحر. كانت الريح قد أطاحت بالشمسية المغروسة في الرمال، فأعدتها إلى مكانها واتكأت تحتها. أردت أن أثنيها عن فكرة السباحة الآن، وانتظار سكون العاصفة وهدوء البحر، ولكنها نفضت رأسها ومضت مثل مهرة جامحة، تقذف بجسمها بين الأمواج. تركتنى أمسك كتاباً وأتعارك مع الريح التى تضرب

صفحاته، وركضت كأنها موجة، ترتمى في أحضان الموج وتلتحم به، ترتفع مع ارتفاعه وتهبط مع هبوطه حتى تغيب تحت الماء وتذوب في امتداده الأزرق. طويت الكتاب وصرت أراقبها وهى تواجه هذه الكتلة الهائلة من الهيجان والشراسة، جزعاً عليها، ومعجباً في ذات الوقت بقدرتها على المجازفة وركوب الأخطار.

كان عدد السابحين قليلاً. ستة أو سبعة، يعومون متجاورين قريباً من الشاطئ. وعلى مدى الأفق كانت هناك سفينة تقف في نقطة ما، حيث تصطدم أشعة الشمس اصطداماً عمودياً بماء البحر، وتصنع انعكاساً يتوهج ويجعل السفينة كتلة من الضياء وكأنها إحدى مراكب الشمس. وسناء تمضى بعيداً مع الموج، ترحل مع المد، وتتوغل في عمق البحر، كأنها ابنة الشمس تسعى للحاق بسفينتها. رأيتها تغيب عن بصرى، فتركت الاتكاء تحت الشمسية، ونهضت واقفاً لكى أستطيع أن أتابعها. وقفت على حافة الماء، مسفوعاً برذاذ الموج، ومملوءاً بإحساسات الخطر والفجيعة. صرخت بأعلى صوتى:

ضاع صوتى وسط هزيم الأمواج وضربات الريح.

- إنه الجنون.

ابتعدت سيناء داخل البحر. نقطة تظهر وتختفي تحت ركام الموج. وصوتى يضيع مرة أخرى وسط الضجيج الذى يصنعه البحر. ما الذى تفعله هذه المرأة بنفسها. إنها تدخل منطقة لم أرها تصل إليها حتى أثناء هدوء البحر. لعل التيار الشديد هو الذى يدفع بها بعيداً، وهى تحاول العودة فلا تستطيع. لعلها تصرخ الآن وتطلب النجدة فيضيع صوتها وسط الهدير. لابد أن أفعل شيئاً. الآن وقبل فوات الأوان. أريد أن أرى رجل إنقاذ أستنجد به. لماذا يختفون عندما نحتاج إليهم. سأذهب للبحث عنهم. إنها لا تزال نقطة بعيدة وسط هذا الزبد وأقواس الماء. ثم بدا وكأن النقطة توقفت في مكانها. لا، بل هى تعود. ببطء شديد تقترب. تنفست بارتياح. لم تكن تواجه خطراً. وقفت أنتظرها وهى تشق الموج باتجاه الشاطئ ركضت نحوها عندما اقتربت. قاومت عنف الأمواج وذهبت إليها. كنت أريد أن أشاركها جزءاً من طعم المغامرة. أن أحس بإحساسها. أن أقترب قليلاً من معاناتها وهى تصارع الموج حتى من هذا الموقع الآمن، ومن هذه المياه الضحلة. وضعت يدى في يدها وعدنا سوية للارتماء بجوار

الشمسية. اكتشفت أننى دخلت إلى الماء ممسكاً بالكتاب الذى كان معى. لم أتأسف عليه وأنا أراه منقوعاً في الماء وغير صالح للقراءة. فقد كان من كتب المقرر الذى أتولى تدريسه. ومنهكة أخذت المنشفة تمسح الماء عن وجهها وشعرها وجسمها. الصدر يرتفع وينخفض، شهيقاً وزفيراً وإجهاداً، ولكن الوجه يفيض إشعاعاً، والعينان تشرقان بابتسامة مضيئة، وكأنها لم تواجه صراعاً مهلكاً، كأنها رأت أثناء دخولها إلى البحر، مدناً سحرية، مطمورة تحت الماء، لم تكشف أسرارها لأحد سواها.

تأملتها وهى تسير أمامى في طريق عودتنا إلى الشقة. مبللة الشعر، معفرة الزندين بذرات الرمل، يتلألأ مرمر كتفيها تحت التماعات الشمس، وتتسلق إحدى ساقيها عشبة من أعشاب البحر، التصقت بسمانة الساق كالوشم الأخضر. أحسست مرة أخرى بضآلتى في مواجهة هذا الألق والشموخ. هذه القوة الملتهبة، التى تخترق عنف المدى الأزرق، وتتسلق جبال الموج، وتعود موشومة الساق بإشارة النصر التى أهدتها لها آلهة البحر. إننى لا أجيد السباحة مثلها، ولا تربطنى علاقة حميمة بآلهة البحر مثل العلاقة التى تربطها

بها، وما كنت لأواجه بحراً شرساً حتى لو كنت أكثر خبرة بالعوم منها، لأننى منذ البداية أحمل روحاً يسكنها الخمول ولا تبحث إلا عن الأمان. ولكن لماذا أقسو على نفسى إلى هذا الحد. لتكن ماهرة في السباحة، واثقة من قدرتها على مغالبة الموج، فلماذا يثيرنى تفوقها ويملأنى إحساساً بالنقص. هل أخشى أن يكون ما فعلته استعراضاً متعمداً للقوة، وتحدياً تقوم به امرأة المياه العميقة لرجل المياه الضحلة. هل يستفزنى أن أراها وهى الأنثى تتفوق في رياضة عضلية، لا أستطيع مجاراتها فيها، ويغيظنى ذلك بسبب شوفينية رجالية لا أستطيع أن أتحرر منها. لعل هذه الشوفينية هى التى جعلتنى أزهو ليلة البارحة بامتلاكى لجسد امرأة أخرى، وأتخذ منه ميداناً لاختبار قدرتى على غواية النساء، ناسياً أن المرأة لم تكن إلا امرأة عامة. لعلنى فعلت ذلك بدافع التحدى لها، ولكى أثبت للرجل الذى ينحدر من سلالات الفحول الذين يقسمون بذقونهم وشواربهم، أننى مازلت سيد نفسى، ولست مجرد عبد لهذه المرأة. كنت دائماً أشعر بالنقص أمامها، وأرى نفسى ذرة تدور وتذوب في دائرة الضوء المحيط بها. إنها الجانب الأقوى، والأكثر طغياناً، وجمالاً، وقوة جاذبة،

مسيطرة. وما فعلته لم يكن إلا إصراراً على تأكيد الذات التى تنمحى في حضورها. الآن وأنا أسير بمحاذاتها، وأتخلف أحياناً عنها، عاجزاً عن مجاراة خطوها الراكض. تسفعنى الريح وتضرب رأسى الشمس. الآن وأنا أراها تخرج من هذه المغامرة بوجه يسطع بزهو الانتصار، أستطيع أن أدرك بالضبط مبعث سلوكى ليلة البارحة. بل إننى أعرف على وجه اليقين أننى أنا الذى استخدمت كل مواهبى في استجداء الحب، متوسلاً لسعاد أن تمنحنى حسنة . أبديت اهتماماً خاصاً بها منذ بداية السهرة، وبالغت في إظهار الإعجاب بغنائها، وما إن وجدت فرصة لأدنيها منى، حتى قفزت على الفرصة وأفسحت لها مكاناً لتجلس ملتصقة بى وأنا ملتصق بها أبثها كلمات الإعجاب والافتتان بجمالها. كنت طوال الوقت أسعى إليها تمهيداً لما انتهت به ليلتى معها. ولم يكن ما حدث، تدبيراً منها أو من صاحبها كما أحببت أن أبرر لنفسى هذه الخطيئة. لابد أن شيئاً في سناء كان يستفز جانباً غامضاً في نفسى. جانباً، ظل وبرغم دفعة الحب المضيئة التى جاءت تغسلنى وتطهرنى وتعيد خلقى إنساناً جديداً متحرراً من أمراضه المزمنة، بعيداً عن منطقة الضوء،

متحصناً بصمته وظلامه، مرتعباً من قوة هذا الحب. أعرف إلى أى مدى أحبها، ولا أرى للحياة معنى بدونها، ولا شك أن هذا هو بالضبط ما يستفز ذلك الجانب الغامض في نفسى الذى جاء يدفعنى إلى استخدام هذه الحيلة الرخيصة التى لا تدل على القوة وإنما على الضعف واليأس، أرد بها الاعتبار لكيان ينسحق ويتلاشى أمام طغيان هذا الحب. لم أجد شيئاً آخر أفاخر به وأسعى لتأكيد ذاتى الرجولية من خلاله إلا عضو الذكورة أرفعه في مواجهة هذا الفيض الغامر السخى من حبها الذى داهم حياتى كسيول الفرح. ذلك العضو الذى كدت أفقده، وأفقد حياتى بسببه أثناء الختان على يد حلاق غشيم، هو الشىء الوحيد الذى لا تملكه سناء، وبه وحده أعلن انتصارى وأرضى سلالة الفحول الذين ينتحبون في صدرى. منعت جسمها عنى، فجئت أحارب تطهرها بتلاويث امرأة أخرى، ظناً منى أننى أقوم بتلاويثها هى.

كنت ناقماً على نفسى، مدركاً أننى لم أعرف كيف أحب هذه المرأة. وأن حبى لها جاء ناقصاً، مريضاً، لأن شيئاً في نفسى قد أصابه العطب، وأضحى مشوهاً لا يقوى على الحب. ورياح القبلى بصهدها اللافح، تأبى إلا أن

تواصل العواء، تكتح ترابها في صدرى وترفض أن تتيح لى فرصة أن أحقق أدنى درجة من الانسجام مع الدنيا التى حولى.

انتهى النهار مبكراً. انتهى دون أن أنظر في عينى سناء لأعرف إن كانت قد صفحت عنى. لم يعد يهمنى أن أعرف كيف تنظر لى. ما يهمنى الآن هو كيف أنظر أنا إلى نفسى. كان حرياً بهذا الحب أن يمنع عنى أمراض الروح وانشطار الذات، ولكن ماذا يمكن أن يفعل عازف الناى الماهر مع قصبة كثرت شقوقها وأصابها العطب. مهما سكب العازف من أنفاسه الحاذقة المضمخة بعبير الإلهام، فلن تصدر عن الناى إلا أصوات ناشزة. أردت أن أعاقب نفسى هذه الليلة فامتنعت عن الذهاب إلى سهرة أنور جلال، حارماً نفسى من قطرات خمر أمسح بها ماتركته رياح القبلى في رأسى من غبار. ولكى لا أتراجع عن هذا القرار هاتفت محمود أذكره بموعد الزيارة وأتفق معه على لقاء هذه الليلة. جلست بشرفة المقهى انتظر مجيئه. سكنت الريح وجاءت أنسام الليل ورائحة البحر تطرد قيظ النهار. وشرفة المقهى المطلة على الشاطئ تمتلئ برجال ونساء يشربون القهوة

وعصير البرتقال، ويصنعون بكلامهم كتلة هلامية من الضجر واللامعنى. سيأتى مصحوباً بأخى، كما أخبرنى. ليأت أخى إذا شاء، فلم أكن البادئ بالقطيعة. ولكن ما الذى أريده منهما. إننى لم أطلب محمود إلا تحصيناً لنفسى من غواية تلك الجلسة. ليتنى اخترت للقائهما يوماً آخر. مزاجى مازال سيئاً. أحدق في الظلام وأراقب على البعد أمواج البحر وهى ترتطم بصخور الشاطئ في عراك بدأ مع بداية الكون ولن ينتهى إلا بنهايته، فأدرك كيف يصبح المكان وعاء للزمن اللانهائى، وأسمع ألسنة الماء تقول كلاماً عن تفسخنا السريع في هذا الوعاء. أرى منارة تبرق في جوف البحر، فيستيقظ في ذهنى الحنين إلى عالم مجهول، أبعد من هذا المدى الذى تحتكر اضطهاده وتعذيبه رياح القبلى. استغرقتنا كلمات التحية عند وصولهما، وسألت أخى عن أطفاله فأجاب معاتباً:

- أما كان يجب أن تبدأ بالمصالحة وتأتى لزيارتى وزيارة الأسرة وأنت الأخ الأصغر.

ضحكت لما تثيره صفة الأخ الأصغر من تداعيات لا تتفق مع التناقضات التى يحملها رجل شاهد ما يحدث في

الدنيا منذ ألف عام. سألنى عن حالى، فقلت متجاوزاً الحديث عن أسباب الجفوة:

- أبحث عن شقة أكتريها بعد أن جعلتمانى أفقد شقتى.

وبسرعة التقط محمود الخيط، ليصنع قيداً يكتفنى به:

- إنها ما تزال موجودة، ولن يحتاج الأمر إلا إلى إشارة منك، حتى تعود لك الشقة والزوجة.

ضحكت هازئاً فواصل الحديث:

- لم تكن المسكينة تريد الشقة. كانت مجرد وسيلة ضغط من أجل أن تعود إليها.

- سأقبل شاكراً أن تعيدها لى.

- من حقها الآن أن تتوسل بها للحصول على زوج.

- زوج مقابل شقة مفروشة. لو نشرت بذلك إعلاناً في صحيفة دولية لانهالت عليها الطلبات من كل عواصم العالم.

- ألست نادماً على التفريط بها؟

- الشقة؟

- لا، فاطمة.

استغربت عندما رأيت أننى أحتاج إلى قوة تركيز شديدة حتى أستعيد شكل ملامحها. لقد انمحت صورتها من ذاكرتى. ولم أكن هازلاً عندما سألته مستفسراً:

- فاطمة؟ من فاطمة؟

حل بيننا الصمت. جلست متوجساً. خائفاً. متحفزاً للعراك لو ذكروا سناء بسوء. رأيتهما يتبادلان النظرات فازداد حذرى. تحولت إلى كتلة من الأعصاب المشدودة. لن أطيق أن أسمع كلمة واحدة مما سمعته سابقاً منهما. رأيت أخى يهم بالكلام فتهيأت لإسكاته. ولكنه جاء يقول كلاماً مخالفاً لما توقعت. إنه يبدى أسفه لمعارضتى، واحترامه لحقى في اختيار المرأة التى تكون شريكة حياتى. وهو لا يريدنى أن أشقى بحثاً عن الشقة، لأن بيته الكبير لن يضيق بعائلة صغيرة مثل عائلتى. شكرت له عطفه قائلاً:

- إن كنت تريد عونى فأبحث معى عن شقة من بين المساكن التى توزعها الدولة على الفقراء.

تصورت للحظة أن هذه المباركة العائلية لزواجى من سناء، سوف تبهجنى، ولكننى لم أشعر بأية بهجة. انزلقت كلماته على ذهنى دون أن تترك أثراً. إنه لا يقولها عن

اقتناع وإنما اعترافاً بالأمر الواقع. لم تكن معارضته تزيدنى إلا عناداً ورغبة في التحدى. كانت جزءاً من الرياح التى املأ بها أشرعتى مبحراً في رحلة مقدسة إلى جزيرة تسطع بالنور خلف بحر الظلمات. مازالت هناك رياح كثيرة في أشرعتى، ولكننى سأفتقد عون أخى. كنت أريد أن أستعيد دور والدها وهو يقاوم الدنيا من أجل أمها، ويصنع حباً استثنائياً يدخل ذاكرة التاريخ ويصير حديث الناس لأعوام طويلة. ولكن أخى يقطع الآن على حبنا فرصة أن يكون حباً عاصفاً، متطرفاً، إلى حد معاداة الأهل والمجتمع، ويحيله إلى قصة حب عادية، يحدث مثلها كل يوم بين أولاد وبنات المدارس. ضحكت من هذه المشاعر التى اثارتها في نفسى موافقة أخى. ولكى لا أكون ماسوشياً يتلذذ بالعذاب والمعاناة، أعطيت مشاعرى تلويناً آخر. إننى لا أبتهج لموافقة أخى لأن حبى لسناء ينتمى إلى دائرة أكثر اتساعاً من هذه الدوائر المحدودة المقفلة، التى نسير فيها بحكم العادة والتكرار والمألوف. إنه حب فوق هذه الاعتبارات التى تفرضها الحياة اليومية بروتينها وتفاهتها. وهو أكبر من هذه المعايير الصغيرة التى تعودنا أن نختبر بها أفكارنا ومشاعرنا ونقيس

بها قضايانا الملتصقة باحتياجاتنا الأرضية. ورغبة في تغيير الموضوع سألت محمود عن أخبار الجامعة. لم تكن تلك الأخبار حقاً تعنينى، ولذلك ألقيت السؤال بإهمال. ألقيته وأنا أنظر إلى امرأة تجلس إلى طاولة قريبة تلعق الأيس كريم وتدغدغ مشاعرى بحركة لسانها. تحدث محمود عن مظاهر الاستعداد للعام الجديد وعن المدرسين الذين صاروا يداومون على الحضور. ثم استخدم صوتاً أكثر خطورة وهو يقول:

- صارت الإدارة تبدى حزماً شديداً مع الأساتذة المتهاونين، وعليك أن تحترس.

لابد أن ما يشدنى إلى محمود ويجعلنى أحتفظ بصداقته منذ التحاقنا بالجامعة، هو هذا التباين في نظرتنا للحياة. يكاد الرجل أن يكون نقيضاً لى. الحياة بالنسبة له خط مستقيم يقيسه بالمسطرة كل يوم ولا يحيد عنه شمالاً أو يميناً. المحافظة الصارمة على مواعيد الدوام. الحرص على تطبيق المنهج تطبيقاً حرفياً كما حددته لجان المناهج. الالتزام الكامل بالأوامر والتعليمات واللوائح، رغم كثرتها وتناقضها إلى حد أن أحداً لم يعد يعبأ بها إلا محمود الذى يبدأ يومه بالوقوف أمام لوحة الإعلانات لكى لا يفوته أى منشور جديد. وهو لا

يفعل ذلك تزلفاً أو طمعاً في منصب أو ترقية، فقد ظل بعيداً عن المزايدات التى يعقدها الطامعون في المراكز. يفعل ذلك كله بصدق وبراءة، ويمضى في الدنيا وهو يعلق في عنقه ناقوساً يدق كل لحظة لكى لا يحيد عن الواجب والنظام، دون أن يبدى تذمراً لغياب الثناء والتقدير ودون أن يراجع موقفه وهو يسمع زميلاً لنا ممن ضربوا رقماً قياسياً في الفوز بالبعثات والمهمات إلى الخارج وما يتبعها من مزايا ومكافآت، يفتخر أمامنا بأنه أحصى ساعات العمل الحقيقى التى قدمها إلى الجامعة خلال عشرين عاماً من خدمته أستاذاً بها، فوجد مجموعها تسع ساعات ونصف. وبمثل ما هو موظف في الجامعة فإن محمود لا يرى نفسه في البيت إلا موظفاً على خانة زوج. لم أره يتحدث عن مغامرة أو سهرة نسى فيها نفسه. أو يشير حتى من باب المداعبة إلى امرأة أخرى يتمناها أو يشتهيها. يسعى لإرضاء زوجته بمثل ما يسعى لإرضاء رئيسه، ويستثمر وقته الإضافي في الترجمة التجارية لتأمين مطالبها. يرتدى ابتسامة ويمضى سعيداً بانسجامه مع الدنيا. كأننا نعيش في كون خلا من المشاكل والهموم وتحولت فيه الفوضى إلى نظام صارم دقيق. إننى

أحبه لأنه إنسان لا أستطيع أن أكونه، ولعله احتفظ بصداقتى لأنه لا يستطيع أن يكون طائراً يغرد خارج سربه كما أفعل أنا. نمشى في خطين متوازيين لا يتصادمان ولا يلتقيان. كلانا محكوم بتكوينه. بجينات يحملها، وأسلاف يرحلون في دمه، وأضواء وظلال وأصوات وأطياف، أحاطت به منذ ميلاده وصنعت عقله ومزاجه. قلت مداعباً، أرد على تحذيره، وأمد بصرى إلى المنارة البعيدة التى تلمع وسط سواد البحر:

- متى يجعلون النفي إلى مالطا عقوبة ينزلونها بالأساتذة المهملين، لكى أكون أول المنفيين.

ولكى لا أكون أستاذاً مهملاً يستحق عقوبة النفي إلى جزيرة لا يرتفع فيها الأذان، فقد ذهبت مع مجىء الصباح إلى الجامعة. اصطحبت معى سناء وجلست بجوارها في قاعة المسرح الجامعى أرقب التمارين التى يجريها الطلاب استعداداً للحفل. توالت الفقرات الموسيقية والغنائية وجاء أصحابها يطلبون رأيى فلم أجد ما أقوله سوى كلمات التشجيع، ولكن سناء ترى أخطاء لا أستطيع أن أراها، وتلتقط النغمة النشاز فتهمس لى برأيها. سألتها أن تتولى

بنفسها إبداء ملاحظاتها للطلاب بعد أن حاولت نقلها إليهم بطريقة محرفة. كان لها رأى في كل شىء تراه، فالبرنامج يجب تغييره، ومطرب الإذاعة ينبغى أن يكون آخر من نقوم بتقديمه، وكلمات الخطابة التى تستهلك نصف الوقت لابد من إلغائها كلها، وأخطاء العازفين جاءت من كونهم يختارون أغنيات ذات مقامات صعبة ومعقدة، بدلاً من أغنيات سهلة وبسيطة يمكن حفظها. أحاط بها العازفون لكى تصحح لهم أخطاءهم، والمنشدون الذين تذكرهم بالأغانى التى لا يجيدون حفظها. كنت مندهشاً لهذه البراعة التى استولت بها على اهتمام الطلاب، وهذا الفهم لميدان، وإن كانت تحبه إلا أنه بعيد عن مجال تخصصها. لم أشعر بأى ضيق وأنا أرى نفسى مهملاً، مهمشاً، بعد أن تحول كل الاهتمام إليها. كانت قد صعدت إلى خشبة المسرح وبدأت تدندن موشحاً أندلسياً لكى تحفظه المجموعة الصوتية المكونة من أولا وبنات، عندما وقفت لكى أذكرها بالوقت.

- يا هلالا غاب عنى واحتجب.

نسيت الوقت، وعدت إلى الجلوس أتابع الغناء. إن سناء لا تبدى كل هذا الاهتمام وتحظى بكل هذا الإعجاب

لمجرد فهمها للغناء، وإنما لأنها تنتمى لهؤلاء البشر الذين أحبهم ا   وحباهم بقبس من قدرته على الخلق والإبداع. أستطيع أن أدرك مدى الظلم الذى عانته عندما بقيت لسنوات طويلة مرغمة على أن تسجن مواهبها في قبو مصنوع من رخام التقاليد. إنها سعيدة الآن وهى تمنح موهبتها المشنوقة، مجالاً تتنفس فيه، من خلال هؤلاء الطلاب. سوف يكون انشغالها بهم، وغناؤها معهم، تصريفاً جميلاً لكل ما يمتلئ به صدرها من إيقاعات وأنغام. ولكن سناء لا تريد أن تكون مجرد مرضع، تمنح حليب صدرها، غذاء فنياً لهؤلاء الصغار. ولا يرضيها إلا أن تخوض التجربة بنفسها، وأن تعبر عن مواهبها تعبيراً لا يختفي خلف الأقنعة ولا ينيب عنه الآخرين. تريد أن تغنى بحنجرتها لا بحناجر هؤلاء المنشدين. ولذلك فإنه ما أن عدنا إلى بيتها نتناول غداء قبل الذهاب إلى البحر، حتى أحضرت مسرحية رابعة العدوية تتفحص أوراقها. لم أعلق بشىء وأنا أراها تحمل قلماً وتضع خطوطاً تحت بعض الأسطر والكلمات. تركتها حتى ذهبنا إلى القرية وجلسنا في الصالون نناقش المسرحية. ما أكثر ما تغير الزمن منذ ذلك العام الذى شاركت سناء في إحياء

حفلاته. بنات كثيرات صرن يشتركن في أنشطة الجامعة ويقمن بالغناء والتمثيل وتقديم مشاهد الرقص الجماعى، وهى لن تكون أقل شجاعة منهن ولن تبقى متنكرة لهذه الرغبة مدى الحياة. رأتنى أستقبل حماسها بصمت وبرود، فأدركت أننى لم أتنازل عن تحفظاتى. رأيت الكدر يغطى ملامحها فأيقنت أن هذا الإصرار على موقفها يتصل بشىء أكثر عمقاً من مجرد الرغبة في الغناء، إنها ذات تبحث عن سبيل لتأكيد حضورها، وأكثر من ذلك، فهى ذات تحمل جراحاً قديمة تريد اليوم أن تنتقم لها. لست غافلاً عن دوافعها، فأنا أعرف أنها واجهت ذات يوم مجتمعاً شرساً يرتدى نعالاً من فولاذ يسحق بها زهور الإبداع. وهى تريد أن تثبت بعد مرور تسعة أعوام أنها انتصرت على قدم الفولاذ وصانت زهرتها من السحق. ولابد أن تظهر اليوم أمام الناس بألوانها الحقيقية، مزينة بجمالها ومواهبها. ما الذي أستطيع أن أقوله غير ذلك الكلام المكرر الذي لا معنى له عن مجتمع جامعي متزمت، إذا قبل فبل الغناء من طالبة فهو لا يقبله من أستاذة، ومجتمع كبير أكثر تزمتا إذا قبل برجل يشتغل بالغناء فهو ما يزال يفتقر إلى التقاليد الحضارية التي تفرض احترامه لامرأة

تختار هذا المجال عملا أو هواية. إنني خجول من نفسي، لأنني أعرف أن هذا المنطق ليس إلا تسويغا لأفكار الرجل الآخر في نفسي الذي يكره أن يرى امرأته تظهر للناس في ثياب المغنيات. والذي ما زال يحمل تقاليد المدين القديمة التي لم تكن تعرف الغناء إلا مهنة للنساء الساقطات اللاتي يأتين للأعراس برءوس دوخها الخمر. إنني لا أريد أن أدخل في نزاع مع سناء، ولا أحتمل فكرة أن تخرج غاضبة مني. سأتوسل بالقشرة الحضارية أن تأتي بأرديتها وتحمي علاقتنا من هذا المصير. وسأستعير من أنور جلال فلسفة اللهو واللعب التي يستمدها من الشريعة السمحاء كي تمنعني من هذا التزمت الأخلاقي. قلت لسناء مستسلما لمنطقها:

- ما يغيظني هو أنك ستكونين معبودة الجماهير، فلا يبقى لي إلا مكان صغير بينهم لعبادتك.

- هل وافقت؟

- طبعا لكي أثبت للعالم أن وراء كل امرأة عظيمة رجلا.

ابتسمت عيناها، وزالت سحابة الكدر التي لونت وجهها، وانتقلت إلى الحديث عن الوقت المناسب لتقديم

المسرحية، والتعديلات التي تحتاجها، والإمكانيات التي يجب توفيرها لكي يكون عملا استعراضيا كبيرا. إنها جلسة تدشين لمغنية المستقبل. لا يهم، سأكون راضيا بالاسم الذي سيمنحه لي مجتمع الجامعة بعد غنائها في الحفلات العامة زوج المغنية، سيبتهج الأستاذ شعبان في مكانه الذي ذهب إليه، ولعله سيخرج هذه المرة من مخبئه ليطالبني بأن تغني له سناء في إحدى حفلاته الخاصة باعتباري متعهد حفلاتها. وقد تتمكن مني فلسفة اللهو واللعب مقتنعا بأنها مستمدة حقا من الدين والشريعة، فأذهب معها، أحمل شنطتها وأصبح عضوا في فرقتها، وأتعلم العزف على الطبلة لأضبط لها الإيقاع وهي ترقص وتغني. سيكون ذلك مورد دخل يعادل ما يتقاضاه مدرسو الجامعة. ولعل الدولة تأذن بفتح الملاهي الليلة فأنشئ معها ملهى ليليا نعيد به أمجاد أمها عندما كانت راقصة في بلاد المهجر. ستبتهج الأم، وستجد مجالا توظف فيه خبرتها بدلا من البقاء عاطلة داخل البيت.

- أحبك جبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاك.

أخذت الكراسة التي تحتوي سيرة رابعة العدوية أقلبها. ها هي سناء تريد إحياءها من جديد. بدأت هذه المرة حياتها

بالسوء وانتهت إلى الخير. بدأت جارية يلهو بها زبائن الحانات ثم انتهت امرأة صلاح وعبادة وتصوف. ولكن سناء تعيد سيرتها بالمقلوب. تبدأ بالخير وتنتهى إلى السوء. تبدأ امرأة مهنتها التعليم وتصبح امرأة للهو واللعب والغناء. وبهدوء أعصاب، ودونما إبداء كلمة واحدة، أخذت أمزق الكراس، وأرمى بالقصاصات فوق الأرض. كنت أحس ببهجة غريبة وكأننى أمزق رقية سحرية مكتوبة بلغة الشياطين. وسناء مأخوذة بالمفاجأة، تنظر نحوى بعينين يملأهما الفزع.

- لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟

- لا أريد أن أسمع كلاماً حول هذا الموضوع بعد اليوم.

وبخطى سريعة متشنجة، خرجت سناء وضربت وراءها الباب. بقيت جالساً دون حراك. شبكت أصابعى خلف رأسى ورفعته أنظر إلى السقف. كان السقف مساحة جيرية بيضاء. ورأسى كان خاوياً. أضحى هو الآخر مساحة جيرية بيضاء، تشبه شاشة في دار عرض سينمائى، عندما ينقطع الشريط، يغدو مربعاً أبيض وسط الظلام. أغمضت عينى.

الشريط الذى انقطع فجأة، يعود إلى العمل. المشاهد تنثال سريعة فوق المربع الأبيض. رأيت نفسى أرتدى دروع الحرب وأقود جيشاً أحاصر به أسوار طرواده، مطالباً أهلها بإعادة هيلانا الجميلة. لجأت إلى الحيلة ودخلت مع جنودى إلى جوف الحصان الخزفي. كان جوف الحصان مظلماً، كئيباً شديد الوحشة وكثير الرطوبة. سأنتقم من هوميروس الأعمى الذى وضعنى في هذا المكان. ولكن هيلانا الغائبة وراء أسوار طروادة لابد أن تعود بالحرب أو بالخديعة. فتحت عينى. وقفت. ورابعة العدوية تتناثر أعضاؤها ويسيل دمها فوق البساط. يشتبك دمها بدمى صائحاً »كيف تحرق قلبى وهو يحتويك. أنتبه إلى أنه سطر في قصاصة التقطتها من فوق الأرض. رميت بالقصاصة وتجولت ببصرى في أرجاء الغرفة. خاوية، كئيبة، معتمة كجوف الحصان الطروادى. كيف احتملت الحياة في هذا المكان. السقف الواطئ. الجدران التى تحاصر بعضها بعضا. كل شىء بائس، موحش، يثير الحزن والبكاء. خرجت هارباً. راكضاً. أريد أن ألحق بسناء. ولكن لا أحد هناك. غابت هى الأخرى وراء أسوار طروادة. وأنا وحيد بلا جيش ولا سيف. إنها

أول مرة يحدث فيها هذا الخصام. أول مرة نفترق دون تحية. دون وداع. دون اتفاق على لقاء. لماذا يفرغ الكون فجأة من الهواء. لماذا ترسم السحب البيضاء أشكالاً لحيوانات كبيرة، مخيفة، سوف تغزو بعد قليل هذه المدينة وتبدأ بالتهام الناس. يجب أن أذهب الآن إلى سناء. سأقبل الأرض تحت قدميها وأتوسل لها أن تمنع حيوانات السحب من قضم أطرافي وتمزيقها كما فعلت برابعة العدوية. ارتطمت فجأة بشاهد قبر من الرخام. كدت أسقط فوق الأرض. لماذا لا يجدون مكاناً آخر يدفنون فيه موتاهم غير هذا الطريق. لم يكن قبراً. كان حوضاً من أحواض الزهور التى تحف بالممر المؤدى إلى المقهى. سأنتظر الليل، فهو وحده القادر على إخفاء هذا القبح الذى يتبدى عارياً تحت ضياء الشمس، وسأسعى هذه الليلة إلى الاستنجاد بذلك الكأس الذى يحمى الإنسان من الجنون. ذهبت إلى المقهى أنتظر الليل الذى أبطأ طويلاً في المجىء. كان المقهى خاوياً. إلا من زبون واحد يمضغ الصمت. انزويت في ركن منه أنصت لدبيب الفناء في عظامى. جاء العامل يحمل القهوة، ولكن الرجل الذى يجلس إلى الطاولة البعيدة، أخرج مقص الأظافر وبدا يقص أظافره التى صارت

تتناثر في فضاء المقهى. أخذت منديل الورق الذى يفرشونه تحت الفنجان ورميت فيه بجرعة القهوة التى ارتشفتها. وصلت أمعائى إلى حلقى، ومددت يدى إلى خاصرتى، أبحث عن سيفي الذى كنت أحمله في حروب طروادة. سأذهب إليه وأقطع عنقه لكى أكفيه عناء قص أظافره. لعنت الحكومات التى تمنع حمل السلاح والسيوف، وخرجت أطوف بين شواهد القبور حتى يأذن الليل بالمجىء. ها هى جلسة اليوم تنعم بالهدوء والسلام. نجت من مداهمات هارون الرشيد بسيافه ووزيره، فلم يحضرها إلا أعضاؤها الدائمون. وسعاد، امرأة اللهو واللعب، والبنطال الذى يخلع كرماً وشهامة، لكل من أبدى إعجابه به، تأتى وتجلس بجوارى، ملصقة جسمها بجسمى، ناقلة إليه شحنتها الكهربائية اللذيذة. امرأة نزعت من فوق جسمها قشرة الكذب، وأعلنت ولاءها لعناصر الطبيعة الأولى، فجعلت من إرضاء الغرائز الحسية هدفاً وحيداً في الحياة وأعلنت بطلان كل الأهداف الأخرى. إنها لا تريد من رابعة العدوية إلا سيرتها الأولى لأنها أكثر صدقاً وعفوية من سيرتها الأخرى. فلماذا أدعى كذباً وزوراً أننى أعافها. إنها هى الانثى الحقيقية، وما هيلانا التى أشعلت

الحروب، أو أوفيليا التى احتمت بالجنون أو جولييت التى انتحرت ودفعت حبيبها إلى الانتحار، أو شهر زاد التى أعادت ملكاً مجنوناً إلى عقله، أو سناء التى جعلتنى أركض بين تخوم الجنة والجحيم، إلا صورة مزيفة عنها، لأنها هى الأصل وما عداها باطل. لاتحمل هماً ولا حباً ولا خوفاً يضيف تلويناً على حقيقتها. لا تحمل شيئاً سوى جمرة بين فخذيها، وشهية تتجدد كل يوم لرجل يأتى ويطفئ برحيق فحولته هذه الجمرة.

دارت الكأس ودار رأسى مع دورتها. ما الفناء وما الخلود، ما الموت وما الحياة، ما السعادة وما الشقاء، ما الحب وما الغريزة، ما الوهم وما الحقيقة، ما العقل وما الجنون، ما الحركة وما السكون، ما الليل وما النهار، ما الصمت وما الكلام، ما الضوء وما الظلام ؟، ما هى جميعاً إلا خيوط ينسج بها عنكبوت الزمان شباكه التى يصطادنا بها الواحد بعد الآخر. كان أحد الجالسين يسرد وقائع مغامراته مع نساء السويد عندما أقام أسبوعاً هناك ورأى من حياتهم ما أقنعه بأن بلادهم هى الجنة. رد عليه زميل آخر:

- عزاؤنا أن جنتهم مؤقتة وجنتنا دائمة بإذن ا .

- نعم، هذا ما قلته لهم. وقلت لهم أيضاً بألا يفرحوا كثيراً لأنه ما أن تنتهى هذه الدنيا حتى نتبادل المواقع، يأتون هم إلى بلادنا ونذهب نحن إلى بلادهم.

قال الرجل الآخر بعد أن هدأت عاصفة الضحك:

- ولكن ماذا لو جاءوا بنسائهم معهم؟

- سنكون خسرنا الدنيا والآخرة.

هذه هى القضية. النساء. وهل هناك مسطرة أخرى نقيس بها الجنة والجحيم سوى النساء. لم يخطئ من أطلق اسم الحورية على سناء، لأنه لا مرجع لدينا نهتدى به إليها غير فردوس يختفي خلف حجب السماء. ولكن لماذا ينسحب عن هذه السهرة سحرها القديم الذى كان يفتننى ؟. لماذا تبدو برغم شرابها ونسائها وغنائها وقهقهاتها مكاناً يبعث على الضجر. لماذا أراها مجردة من تلك المعانى التى أسبغتها عليها عندما اعتبرتها قلعة للتحدى في مجتمع الكبت العاطفي والقمع الجنسى والاعتداء الدائم على الهامش الشخصى للإنسان. لماذا تبدو الآن عنواناً للهزيمة والانكسار والهروب، وأفراحها ليست إلا أردية تغطى الندوب والحروق التى تملأ

النفوس. ولماذا، برغم كأسها ورنين أوتارها، لا أكاد أطيق أن أبقى لحظة واحدة في جوها المعتم.

- ليه يا بنفسج، بتبهج، وأنت زهر حزين.

بدأ أنور جلال يعدل أوتار العود استعداداً للغناء. وقفت أستأذن في الذهاب.

- ألا تحب الغناء القديم؟

كيف أقول له أن الأمر لا علاقة له بالغناء القديم أو الحديث، ولا بعوده وأوتاره، وإنما هو إحساس بالقرف والتفاهة يملأ نفسى ويفيض على الدنيا فلا أراها إلا تافهة، مقرفة، فلماذا؟ لماذا أيها البنفسج الحزين؟

- سأوصله إلى داره وأعود، لأنه لا يقوى على المشى.

إننى أقوى على المشى يا عزيزتى الجميلة، البريئة، الفاضلة، فلماذا تتعبين نفسك من أجلى. جاءت سعاد تسندنى. توصلنى إلى غرفة نومى وتدخل معى في سريرى. بدأت تباشر لعبة الحب دون مشاركة منى. دون أن أبدى موافقة أو اعتراضاً. استعملتنى كما تستعمل المرأة رجلاً من المطاط. انتهت لحظة الشبق ورعشتها دون أن أحس بأية متعة.

تركتنى لأنام وعادت لإكمال سهرتها. عندما أفقت، قضيت النهار كله في لعبة غريبة، هى إعادة الأجزاء الممزقة من المسرحية إلى بعضها البعض. كانت مهمة شاقة في البداية. أحضرت شريطاً لاصقاً، وجلست فوق الأرض ألتقط الأوراق الممزقة وأعيد تركيبها. ما لبث أن صار هذا الترقيع تسلية تستغرقنى، وتجعلنى أنسى الوقت الطويل الذى قضيته في جمع وترتيب ولصق هذه المزق حتى عادت كراساً واحداً، قابلاً للقراءة. ولكنها عادت كراساً يشبه صفحات مخطوط من أوراق البردى. أحسست بالابتهاج وأنا أراه يكتسب جلال الوثائق القديمة. وقبل أن ينقضى النهار، أخذت الكراس وذهبت إلى سناء.

فتحت سناء الباب. أشرق وجهها بتعبير مضىء أنسانى تعاستى. ثم فجأة غاب الضوء وأظلمت ملامح الوجه. ودون أن تسمع كلمة واحدة منى أدارت ظهرها واختفت في قاع البيت. جلست وحيداً في الصالون الذى يضوع برائحة الحقول. مددت أصابعى أمررها فوق ساق الشجيرة التى تجاورنى. كان لحاؤها مصقولاً لامعاً يمنح الشجيرة مسحة أنثوية. والسمكة الملونة في حوض الماء الزجاجى تفتح فمها

وتداعب سمكة أخرى، كثيرة الألوان مثلها. تتقافزان وسط الماء وتتحاوران بلغتهما الخفية، غير عابئتين بسجنهما الزجاجى. ووسط هذه الألفة التى تصنعها الأشجار والأسماك، كنت تعيساً. بقيت جالساً أحاول أن أجد بعض العزاء في إشراقة الوجه الذى استقبلتنى به، قبل أن تتذكر بأننى رجل لا يستحق أن تمنحه كل هذا الفيض من بهائها ورضاها. جاءت الأم تضع أمامى فنجان القهوة وتمضى لتترك لى فرصة الانفراد بسناء عندما تأتى. أقنعت الأم ابنتها بأن ما حدث يجب أن نعالجه بالتفاهم والنقاش لا بالصمت والهروب. مرت لحظات ثقيلة، قبل أن تأتى سناء. اختارت كرسياً في مواجهتى وجلست صامتة. عرفت من احتقان وجهها وعينيها أنها كانت تبكى. جففت دموعها وجاءت. كان ما فعلته جريمة في حق هذا الوجه الذى أفسد جماله العبوس والبكاء. قدمت لها الكتاب الذى كان ميتاً وأعدت له الحياة. كان كرسيها بعيداً، فتقدمت منها منحنياً ومددت يدى نحوها وكأننى أؤدى صلاة، وأقدم قرباناً ينجينى من الهلاك. لم يكن في وسعها أن ترفض الإمساك بالكتاب. كان جسمى يتخذ

وضعاً لا يسمح بمزيد من الإذلال. مدت يدها وألقت بالكتاب فوق الطاولة دون أن تنظر إليه.

- اشتغلت نهاراً كاملاً ألتقط القصاصات من فوق الأرض وأعيدها كتاباً مرة أخرى.

لم تقل شيئاً.

انتقلت إلى الجلوس بجوارها. أسفي لا حد له. قلت لها. تعاستى أيضاً لا حد لها. كان يوم الأمس، يوماً طويلاً. مرهقاً. أتلف أعصابى، وأفقدنى القدرة على التمييز. إنها حالة تعترينى دائماً عند أول يوم أذهب فيه إلى الجامعة، بعد انتهاء العطلة. ولكننى سأصلح كل شىء. أعدك بذلك. سأتولى إعداد المسرحية والبحث عن أمهر الملحنين والموسيقيين والممثلين. سيكون حدثاً فنياً مبهراً. ولكن هذا الكلام لا يرضى سناء. لأن ما أغضبها لم يكن موقفي المعارض من المسرحية. كانت على استعداد لأن تفهم دوافعى وتتنازل عن تقديمها.

- إذن ماذا؟

- أنا التى أسألك ماذا كان قصدك عندما وافقت في البداية وما أن رأيتنى سعيدة باتفاقنا حتى أخذت المسرحية ومزقتها.

- لم أفعل ذلك إلا لأننى. .

لم تتركنى أكمل الجملة.

- لأنك كنت تريد إهانتى. عن عمد وإصرار. أردت إهانتى.

أفزعتنى هذه النتيجة التى وصلت إليها، أقسمت لها بأن شيئاً كهذا لم يخطر على بالى.

- لعلك لم تكن واعياً به، وهذا أكثر خطورة، لأنه يعبر عن شعور أعمق من الفكرة الطارئة.

- إنك تفسرين تصرفاتى تفسيراً خاطئاً.

- إننى لا أفسر. إننى أقول ما رأيت. كنت تمزق المسرحية وعيناك تبرقان بضوء غريب. لم يكن غضباً، وإنما كان نشوة. كنت مبتهجاً وأنت تفعل ذلك.

لم أكن أملك وقتاً لأفتش في ذاكرتى عما إذا كنت حقاً أردت إهانتها، أو أننى ابتهجت لهذه الإهانة. لعلنى فعلت ذلك، فأنا أعرف أن هناك كائناً يسكننى ما أن يجد لحظة

تغفل فيها إرادتى حتى يخرج من مكمنه السرى، الذى تغطيه الطحالب والأعشاب الميتة، لينتقم منى. سأعرف كيف أصفي حسابى معه بعد ذلك. أما الآن فلا شىء يشغلنى إلا دفع هذه العاصفة التى تهدد بقفل النافذة الوحيدة التى يأتى منها الضوء.

- سناء، أرجوك. هناك ضعف إنسانى، يجب أن نعمل له حساباً في علاقتنا، لكى لا يفسد علينا حياتنا. لا أدعى أننى إنسان خال من الأخطاء، وما حدث كان خطأ فعلته بدافع الحب، لأننى لا أريد لأحد أن يقول كلمة سوء عنك. كيف أستطيع أن أثبت لك ذلك؟

- لا أدرى. لم أعد واثقة من شىء.

- علاقتنا أكبر من هذه الأشياء الصغيرة.

- إذن ما هى، في رأيك، الأشياء الكبيرة؟

إنها تتكلم بلسان امرأة جريحة. لون المرارة في صوتها شىء جديد بالنسبة لى. لن أتوقف كثيراً لأبحث عما إذا كانت هناك جوانب غامضة لم اهتد إليها في شخصيتها. فما أكثر الجوانب الغامضة التى لا أستطيع الاهتداء إليها في شخصيتى.

- أعاهدك بأننى لن أفعل شيئاً كهذا بعد اليوم.

قلتها بضعف ومسكنة. كنت فعلاً أرغب في إذلال نفسى أمامها. وسيكون انتقاماً عظيماً يستحقه ذلك الكائن الظلامى الذى يسكننى لو أنها تأتى الآن وتمزق وجهى بأظافرها كما مزقت كتابها، ثمناً لعفوها عنى.

حلت لحظة صمت مباركة.

رأيت خلالها سناء ترفع رأسها الذى كان طوال الوقت منكساً مثل راية تعلن الحداد. كست وجهها مسحة من الهدوء أعادت إليه البهاء. تفاءلت خيراً، ولم أقل شيئاً أفسد به هذا الصمت الجميل.

وببطء شديد، ودون أن يظهر على ملامحها أى انفعال، مدت يدها إلى المسرحية المليئة بالأشرطة اللاصقة، وصارت تقلب أوراقها. عاد الصفاء إلى سمائى وانتهت العاصفة.

قالت لى فيما بعد:

- ما أمهرك في ترميم الكتب الممزقة. ولكن ما حسبتها نسخة وحيدة في العالم متوافرة بأعداد لا تحصى في مخازن التعليم.

- كان عناء جمعها مجرد إشارة صغيرة أثبت بها ندمى.

كانت قد مرت ثلاثة أيام على تصالحنا. وكانت هذه هى الكلمات الوحيدة التى تبادلناها حول المسرحية. لم أتوقف لأتفحص ما تركته تلك الخصومة من أثر على علاقتنا. كنت أفيض سعادة، وحباً لسناء، مبتهجاً بهذا الصفاء الذى أريده أن يستمر معنا ولذلك لن أقول »لا« رداً على أى شىء تقوله أو تريده. لا أريد إلا ما تريد، ولا أقول إلا ما تقول، ولا أحب إلا ما تحب، ولا أكره إلا ما تكره ولا أذهب إلى الأماكن التى تحب الذهاب إليها. وكأن سناء اتخذت قراراً مماثلاً لقرارى، فمنعتنى من ترف أن أراها تتدلل وتبسط نفوذها على حياتى، فهى لا تطلب شيئاً ولا تبدى رأياً وتترك لى اتخاذ أى قرار. أسلمنا أنفسنا لروتين يومى لا يتبدل باعتباره أكثر أماناً، ويقدم لنا حلا جاهزاً لقضاء الوقت دون المخاطرة بالحديث عن مبادرات جديدة أو اقتراح أماكن أخرى. وجاءت لحظة وقفنا فيها حائرين عندما وجدنا البحر غير ملائم للسباحة.

- ماذا تقترحين؟

- وأنت ماذا ترى؟

كلانا يريد أن يدع الآخر يبادر بالاقتراح. وقفنا صامتين تضربنا الرياح. ولم نجد إلا المقهى يتولى حل هذه المشكلة. كان قريباً فاتجهنا إليه دون كلام. وكان هذا أخطر ما أصاب علاقتنا. لقد بدأت تفقد تلقائيتها.

أردت بعد هذا الخلاف أن أكون أكثر وفاء لعلاقتى بها. عدت للنوم المبكر والقيام في الساعات الأولى من الصباح كى أذهب إليها. لم يبق على بدء الدراسة سوى أسبوعين أو أكثر قليلاً، ومعنى ذلك أن الذهاب إلى الجامعة صار هو الآخر روتيناً يومياً. نقضى هناك ساعة أو ساعتين ثم نعود إلى البحر. بدأ الصيف يستسلم للوهن والإعياء، وصارت السباحة تفقد بهجتها، إن لم تصبح مستحيلة كما هو اليوم.

اخترنا ركناً يطل على جانب صخرى من الشاطئ وجلسنا متقابلين. ومن خاف الزجاج كانت الأمواج تقفز فوق الصخور وتفيض على الشاطئ وتصنع دوياً عالياً. ولأمر ما أحسست بالإثم وكأننى مسئول عن هذا التغيير الذى طرأ على الطقس ومنع سناء من مزاولة عشقها للسباحة. ورأيت

أن الحديث حول المسرحية سيكون وسيلة ملائمة للتسرية عنها. فهى لم تتجنب هذا الحديث إلا لأن المسرحية كانت نقطة توتر في علاقتنا. سأثبت لها اليوم أننى أكثر حماساً منها لتقديم هذا العمل المسرحى الاستعراضى الذى سيكون إنجازاً فنياً يعيد للجامعة دورها الريادى المفقود في مجال الإبداع. سأقول ذلك بصدق وحب لأننى وطنت نفسى على أن أحب ما تحبه هى. وعندما ردت على هذا الكلام بأنها لم تعد ترغب في تقديم المسرحية. بقيت صامتاً أفكر فيما يمكن أن أقوله. تمنيت لو أنها احتفظت بعفويتها وتلقائيتها وأصرت على موقفها الأول. سيكون شيئاً مثيراً للدهشة أن أدخل معركة من أجل إرغامها على تقديم المسرحية التى كنت أمزقها بكل ذلك العنف.

- ولكنك تعرفين أننى غيرت رأيى. سأكون سعيداً وأنا أراك تغنين قصائد رابعة العدوية.

- دعك من هذا الكلام. أنت لا تحب ذلك ولم أعد أنا أيضاً أراه مناسباً لى.

كنت أريد أن أقول لها بألا تشقى بالتفتيش عما أحب أو لا أحب. وألا ترغم نفسها على أى شىء لا تريده وترضاه،

وألا تفتش عن أى ضوء خارج ذاتها، لأنها لو فعلت ذلك لأضاعتنى أنا أيضاً. فلا ضوء أهتدى به إلا ضوءها، ولا راية أبحر تحتها إلا رأيتها، ولا شىء يستحق العناء في هذه الحياة إلا حبها. كنت أريد أن أقول لها أيضاً أن هناك كائناً يسكن الجانب المظلم من نفسى يجب أن أنتبه إليه وأبقى طوال الوقت على حذر من غدره وخيانته. أما هى فلا حاجة بها لمثل هذا الحذر. ولكن شيئاً لاح لى أرغمنى على أن أمنحه كل انتباهى. كنت أستطيع من مكانى، أن أرى سعاد تقف على بار المقهى تحمل في يدها كأساً من عصير البرتقال وتتبادل حديثاً مع أحد عماله. كان رجلاً متين البناء، يرتدى السترة البيضاء، وكنت أستطيع أن أرى أن له معها علاقة تسمح برفع الكلفة إلى حد المداعبة والملامسة. كان يملك ملامح غليظة توقظ الشهوة لدى امرأة مثلها، حواجب كثيفة، وشفاه غليظة، وأنف غليظ، ملامح زنجية في وجه رجل أبيض. وكانت هى ترتدى بنطالها الأزرق وقميصاً صيفياً بنصف كم، يلتصق بجسمها، في حين أبقت شعرها مهوشاً يصنع كتلة سوداء من الفوضى فوق رأسها. أردت أن أدير لها ظهرى فلم أستطع لأن معنى ذلك أن أديره لسناء

أيضاً. إننى على يقين بأنها ما أن ترانى أجلس مع امرأة أخرى حتى تركض نحوى لتقول أى كلام يحرجنى. تصورت ما يمكن أن تقوله.

- هاى. كنت معذوراً فيما حدث إذن.

وسأجد نفسى مجبراً على القول:

- ما الذى حدث؟

سأقول ذلك بازدراء، آملاً أن تبحث عن موضوع غير الذى ذهب إليه ظنى. ولن يكون كلامها مفاجأة لى عندما تقول:

- تلك الليلة. عندما استلقيت مثل الجثة فوق السرير وجعلتنى وحدى أقوم بكل شىء. أوقظ حتى تلك القطعة الميتة.

نعم. هذا بالضبط ما سوف تقوله. ليس لأنها امرأة سوق ودعارة، أو لأنها ستغار من هذه المرأة، ولكن لأن ذلك يتيح لها أن تثأر لأنوثتها عندما أبديت كل ذلك البرود أمامها.

ولكى أدفع شراً كبيراً بشر أقل. استأذنت سناء في الغياب عنها لحظة صغيرة وذهبت إلى سعاد. أردت أن أتجه

صوب الباب ثم استدير نحوها وكأننى قادم من خارج المقهى، ولكنها رأتنى أقوم من مكانى، فاتجهت مباشرة إليها.

- من تكون هذه المرأة؟

- خطيبتى.

- ظننت أنك متزوج مثل الآخرين. نصيحتى أن تتركها قبل فوات الأوان.

فما فائدة أن يتزوج الواحد منكم امرأة ثم يهرب منها.

- لن أهرب منها.

- لاتبعنى هذه البضاعة. رأيتك تهرب منها حتى في هذه المرحلة الوردية، فما بالك عندما تنتقل إلى المرحلة الرمادية.

- إنها امرأة من طينة أخرى.

أطلقت ضحكة صاخبة قصيرة، قبل أن تقول:

- إننى أتحدث عن طينتك أنت. فلا تخلط طينتك بطينتها. لم تقل لى أين وجدتها؟

- كنت أسبح في البحر، عندما وجدت قارورة مغلقة ومختومة بخاتم النبى سليمان، وما إن نزعت الغطاء حتى خرجت لى هذه المرأة وأمرتنى بأن أتزوجها.

- إذن فهى عفريت.

- إنها عفريت يستحق الحب.

رأيت سناء تدير وجهها نحونا فاتجهت إلى عامل المقهى أشركه معنا في الحديث. أحسست بارتياح عندما انتقلت سعاد إلى موضوع آخر.

- مضى أكثر من أسبوع دون أن نراك.

- انتهت إجازة الصيف وعدت إلى العمل.

- وقعت أحداث أثناء غيابك.

- لعله خير.

- كل الخير، فقد قمت بعمل جليل هو الانتحار.

هل حقاً حاولت الانتحار، أم تراها تتكلم هازلة. رأتنى أتفقدها بنظراتى، فأضافت:

- هذه ليست أنا. إنه شبحى. العفريت الذى جاء يفسد على الرجال متعتهم بخيانة زوجاتهم وخطيباتهم.

ضحكت ثم توقفت فجأة عن الضحك.

- ابتلعت كميات كبيرة من الحبوب المنومة. وذهبت في غيبوبة جميلة أتمناها لكل إنسان عزيز، ولكنهم أفسدوا موتى الجميل في الدقائق الأخيرة.

أدركت أنها تتكلم صادقة، فسألتها بحرقة:

- لماذا؟

- هذا بالضبط ما قلته لهم. لماذا؟ لماذا أنقذتمونى. لأن أسوأ مراحل الانتحار هى مرحلة الإنقاذ، عندما يأتى الأطباء وغسيل المعدة والتحقيق عما إذا كان فعلاً إرادياً إلى آخر هذا العذاب.

- إننى أسألك جاداً لماذا الانتحار؟

- أوه. إنها ليست المرة الأولى، فأنا أفعل ذلك مع نهاية كل صيف.

- حسبتك امرأة عاقلة.

- عاقلة إلى حد الجنون.

تحول خوفي منها إلى إشفاق عليها. كنت أريد أن أسألها عما إذا كانت قد شاهدت الطيور السوداء تغطى سقف العالم كما حدث معى منذ زمن مضى. ولكننى بدلاً من ذلك عدت للإلحاح على معرفة السبب الذى يدفع امرأة مثلها إلى الانتحار.

- لا أذكر السبب الذى حاولت من أجله الانتحار لأول مرة، لعله يتصل بقصة حب تافهة، ولكن عندما نجوت

وأقاموا لى الحفلات بمناسبة عودتى إلى الحياة، صرت أداوم على الانتحار مرة كل عام. فقد أعجبتنى الحيلة. أموت ثم أعود إلى الحياة لأجد حفلات التكريم.

إنها تقول ذلك هازلة. ولكننى أستطيع أن أستشف شيئاً صادقاً خلف هذا القناع الهزلى. ألا يكون هذا التهديد بالانتحار الذى تقوم به في أوقات تعرف أن هناك من سيأتى لإنقاذها، هو سبيلها الوحيد للحصول على تعاطف إنسانى حقيقى وسط مهرجان العواطف الرخيصة والسطحية. أبديت لها أسفي. لعلنى ساهمت دون أن أدرى في زيادة هذه الجرعة الثقيلة من العواطف السوقية التى أوصلتها إلى الرغبة في الموت. تأملتها وهى تمتص سيجارتها بشراهة، باحثاً عن ذلك الشىء الذى تاه عنى، عندما كنت أراها تجلس متألقة وسط السهرة، وقد أحكمت فوق وجهها قناع السعادة، حتى ظننت أنه وجهها الحقيقى. سمعتنى أتمتم بكلمات الأسف والأسى فضحكت ضحكتها العالية القصيرة قائلة:

- ولماذا تنسى الجوانب الإيجابية. الناس يعيشون عمراً واحداً، أما أنا فقد عشت حتى الآن خمسة أعمار إضافية.

كان عامل المقهى قد ذهب يلبى نداء زبائنه. أشارت إلى حيث تجلس سناء.

- جميلة هذه المرأة. ألا تريد أن تقدمها لى. لا تخف. لن أقول لها شيئاً يغضبك. مجرد عفريت يريد أن يتعرف إلى عفريت مثله.

أشعلت لها السيجارة التى وضعتها بين شفتيها. مدت لى العلبة فأشعلت سيجارة أخرى لنفسى. أعدت لها الولاعة، ووضعت يدى في يدها مودعاً.

- دعى هذا إلى يوم العرس عندما تأتين للغناء والاحتفال معنا.

قالت وهى تتجه إلى الباب:

- هل سنراك الليلة.

- لم تعد ظروف العمل تسمح بالسهر.

- هناك دائماً يوم العطلة، سيكون الحفل كبيراً هذه المرة، فلا تتخاف.

أطلت البقاء معها لأننى لم أشأ أن أعود إلى سناء قبل أن أراها تغادر المقهى. اكتشفت وأنا أعود إلى مقعدى بأن السيجارة ترتعش بين أصابعى. أشعلتها لأغطى بها حرجى،

فإذا بها تفضحنى. أذهلنى أن تحاول امرأة نذرت نفسها للمتعة والأوقات الطيبة، تدمير حياتها بهذه البساطة، وأيقظ حديثها الساخر خوفي من المرض الذى يهددنى.

لم أستطع السيطرة على ارتعاشة يدى فأطفأت السيجارة وخبأت يدى تحت الطاولة. لا شك أنها لاحظت اضطرابى. صرت أستطيع أن أعرف حالتها النفسية من ظهور خط صغير بين حاجبيها. خط كأنه بقايا وشم قديم لا يظهر إلا في حالات الكدر والانفعال الشديد. لم تقل شيئاً. تركت الكلام لهذا الوشم. اكتفت بإلقاء نظرة على ساعتها، ثم عادت لارتشاف الجرعة الأخيرة التى تبقت في فنجان قهوتها.

- إنها صديقة أنور جلال.

ما يزعجنى أكثر من أى شىء آخر هو هذا الارتباك الذى يجعل صوتى واهناً ضعيفاً، مرتعشاً، ويضفي على الموقف كله لون الخطيئة. انسحبت سناء إلى عالمها الخاص وتركتنى. بقيت للحظات أفكر فيما يجب أن أقوله بعد هذه الجملة التى تنفي صداقتى لها. ولكن هذا لا يقدم تبريراً كافياً لانشغالى بها كل هذا الوقت. أردت أن أخبرها بما قالته سعاد

عن محاولة انتحارها مما اقتضانى البقاء معها قليلاً من أجل المجاملة والمواساة. ولكن سناء كانت زاهدة في الاستماع لمزيد من الكلام عن هذه المرأة، لأنها فجأة فتحت موضوعاً جديداً وسألتنى عما إذا كنت قد فكرت في مكان أنتقل إليه وقد أوشك الصيف على الانتهاء. لعلها لم تقل هذا الكلام إلا رغبة في إنقاذى من حرج البحث عن تبرير لوقوفي مع تلك المرأة بعد أن رأت ارتجافي. أو لعل ظهور امرأة لها هذا المظهر الذى لا يوحى بالثقة جعلها فجأة تنتبه إلى ما يحتويه هذا المكان من وسائل الغواية لرجل يعيش بمفرده. هربت بنظراتى إلى صخرة كبيرة فاحمة السواد، كثيرة النتوءات، جاء الموج يعانقها ويطوف حولها ويرقص فوقها صانعاً أشجاراً من الماء. لعلنى سأقضى ما تبقى من العمر أنتظر تلك الشقة اللعينة. إننى لا أبذل جهداً للبحث عنها، وكأن مهمتى قد انتهت بمجرد أن وضعت اسمى في لائحة الباحثين عن سكن. لا أدرى كيف تنظر سناء إلى هذا الفتور الذى أعالج به الموضوع وكأننى أنتظر أن تهبط الشقة من السماء. طمأنتها إلى أننى سأجد الشقة قبل وصول موسم البرد. جلسنا صامتين نرقب البحر. تساءلت وأنا أرقب الصخرة الكبيرة

السوداء، من أى بركان جاءت؟ وكم بليون سنة مرت عليها في هذا المكان ؟. وصامتين تركنا المقهى وانتقلنا إلى السيارة، وفي عتمة السينما التى ذهبنا إليها، وضعت يدى في يدها، وجلسنا صامتين نشاهد الفيلم.

انقضى النهار دون أن يختفي ذلك الوشم الذى ظل ثابتاً بين عينيها يتحدى كل المشاهد الساخرة التى امتلأ بها الفيلم. هناك شىء لا أجد له وصفاً تسلل إلى علاقتنا. لعله إحساس لا تبرير له. ولكنه إحساس ممض وجارح. إننى بطريقة لا أعيها، ولا أملك سيطرة عليها، أسبب شقاء كبيراً لهذه المرأة التى أحبها. أصنع غرباناً وأطلقها في سماء علاقتنا، ثم أهجع إلى فراشى مؤرقاً أحدق في الظلام والمجهول.

عندما جاء الصباح وذهبت أطوف مكاتب الإسكان الحكومى، وأبحث في المقاهى عن السماسرة الذين يتاجرون سراً بالأبنية والعقارات، كنت مدفوعاً بخوف حقيقى، من أن يطرأ شىء يفسد علاقتى بسناء إذا تأخرت تدابير الزواج، وبقينا نراوح في هذا المكان الذى يشبه المناطق العازلة بين حدود دولتين. تسكعت من مقهى إلى مقهى، ووقفت مع

المتزاحمين في طوابير تحرقها الشمس أمام مكاتب الإسكان. ولاهثاً أرشح عرقاً عدت إلى سناء، أخبرها بنتائج هذه المشاوير. وعود كثيرة. أكاذيب كثيرة. وأكثر الكلمات صدقاً سمعتها من غفير طاعن في السن يقف أمام مكتب مدير الإسكان، عندما سألنى إن كنت أحمل خطاب توصية من مسؤول كبير. ابتسم هذا الشيخ الذى يشبه في مظهره ولحيته الكاهن تيرزياس وقال كلمات رثاء لحالى عندما رآنى لا أحظى بمباركة عرافة الإسكان في معبد دلفي. ومع ذلك عدت إلى سناء وأنا أحس بالبهجة لأننى أرهقت نفسى كل هذا الارهاق. كان يوماً قائظاً لا يصلح لشىء إلا للسباحة. وما أن ذهبنا إلى قرية الشاطئ السياحى حتى وجدناها تعج بأنواع من البشر لا عهد لنا بهم. يصنعون جواً احتفالياً، كرنفالياً، غريباً على هذه البيئة. كأننا أخطأنا الطريق وذهبنا إلى جزيرة تعيش على بيع شمسها وبحرها ورملها للسائحين. كان السبب هو وصول باخرة من بواخر النزهة لقضاء يوم بطرابلس. ثم جاءت سبع حافلات تحمل سياح الباخرة إلى هذه القرية لتناول وجبة الغداء بمطاعمها وقضاء بقية النهار

بها. كانوا يزحمون الشاطئ ويصنعون حلقات الرقص والغناء داخل المقهى ويملئون فضاء القرية صخباً ومرحاً.

قالت سناء وهى تفاجأ مثلى، بهذا الخليط من اللغات والأجناس والأعمار والأثواب والقبعات:

- لم أكن أظن أن في الدنيا كل هذه الأنواع من القبعات.

وجدنا عدداً منهم يحتمى بشمسيتنا من قيظ الشمس ويحتل الأرض الصغيرة التى رفعنا فوقها رايتنا منذ بداية الصيف. أرادوا أن يتركوها لنا فأبقيناهم وجلسنا بجوارهم، وما أن عرفوا أننا نفهم الإنجليزية حتى أمطرونا بأسئلتهم. إنهم يريدون قوارب يؤجرونها، ويبحثون عن جمال يحلمون بركوبها، ويرغبون في شراء أغطية رأس عربية لها عقالات بلون الذهب، وكأن كل هذه القبعات لا تكفيهم. أما تلك المرأة العجوز التى لابد أن عمرها يقارب المائة عام والتى قفزت من البحر ترتعش وتضحك فقد خرجت الكلمات من بين طاقم أسنانها مليئة بالماء وهى تسأل عما إذا كانت آثار بلبك قريبة من هنا. ضحكنا عندما اكتشفنا بعد وقت طويل أنها آثار »بعلبك« وأن ذاكرتها لم تسعفها للتفريق بين طرابلس ليبيا

وطرابلس لبنان. استولت على إعجابنا بفضولها وحيويتها فقررنا أن نتخذها صديقة لما تبقى من النهار. التقطنا معها الصور التذكارية واشتركنا في حلقة اللعب التى اقامها أصحابها عندما رطب الجو وجاء رجل أسبانى يحمل قيثارة وبدأ بعزف ألحان فكاهية تشبه أصوات الحيوانات، ثم عزف لنا لحناً أسبانياً راقصاً وصار يرقص مع اللحن فانبرى المشاركون في الحلقة من رجال ونساء يرقصون مثله. كان مشهداً مضحكاً وهم يغوصون بأقدامهم في الرمال ويسقطون فوق الأرض ثم ينهضون ويعاودون الرقص. شملتنا دائرة البهجة التى غمرت المكان، وانقضى يوم عامر بالضحك والصفاء، أشرق فيه وجه سناء وزالت من فوقه الظلال.

كنت قد هجعت إلى سريرى حاملاً معى مجلة رسوم ساخرة تركتها لى السيدة ذات الأسنان الصناعية، عندما انبثق في ذهنى خاطر يضىء جانباً من جوانب علاقتى بسناء. لقد جاء هؤلاء السياح يمنحوننا بيئة جديدة. يخرجوننا من عزلتنا، ويصنعون حولنا دائرة واسعة من الفرح والتواصل الإنسانى فنقضى يوماً عامراً بالمرح وخالياً من الكدر وتوتر الأعصاب. ولذلك فإن اختفاء فرص التواصل واللقاء بين

نساء المجتمع ورجاله، خارج الدوائر المحدودة الضيقة، يجعل حبنا أشبه بنبتة غريبة تنمو وسط صحراء القيظ وجفاف العلاقات. حب محكوم عليه بالغربة، لأنه يفتقر إلى البيئة القادرة على تحصينه بأقمطة الدفء والتواصل الحميم مع الآخرين. بيئة قاسية. بقدر ما تمنح هذا الحب مذاقاً لاذعاً، حارقاً، متوهجاً، لأنه يشكل تحدياً لمألوفها وقفزاً فوق سياجاتها وانتهاكاً لمخزون كهوفها الخرافية، فإنها تسعى بالمقابل إلى محاصرته بالعزلة والفراغ، وخنقه بكل ما تملكه الصحراء من قحط وعنف. ولم يبق أمام الإنسان الذى يأمل في بناء علاقة حب تحميه من الخبال وسط هذا الخلاء إلا أن يحمل حبه فوق رأسه، ويمشى خائفاً، متوجساً، مثل الراقص الذى يرقص وفوق رأسه عمود من الجرار.

لم تقل سناء شيئاً يفسر النظرات التى كانت تتأمل بها الشاطئ عندما عدنا إليه في اليوم التالى. ولكننى أعرف أن إحساسها لم يكن يختلف عن إحساسى. رحل سياح الأمس بأفراحهم وضحكاتهم وقبعاتهم الغريبة وأسئلتهم الساذجة الجميلة، وتركوا وراءهم شاطئاً فارغاً مقبضاً. كنت أريد أن أقترح عليها الانتقال بعيداً عن وحشة هذا المكان، ولكن سناء

التى قذفت بجسمها إلى البحر، كانت تدرك أن الصيف قد لا يجود بنهار رائق مثل هذا النهار. قلت لها ونحن نجلس فوق صخرة داخل البحر، انحسرت من حولها المياه:

- سوف نفتقد هذا البحر.

أدرك وأنا أقول هذا الكلام أن البحر كان هو الصديق الذى جاء إلى غوثى، في مواجهة الصحراء، التى تجثم قريباً من هنا، كحيوان خرافي ينفث أنفاسه اللاهبة. ولكن البحر متحرك والصحراء ثابتة، والصيف لن يستطيع أن يبقى أبعد من دورته الطبيعية، فماذا بإمكانى أن أفعل بعد أن يموت الصيف ويختفي البحر. لا أحد يملأ الفراغ الذى سيتركانه سوى سناء. سألتصق منذ الآن بها. ألامس شفافية جسمها. أتكئ برأسى على مخمل زندها. أمد ذراعى وأحتوى خصرها. مستمداً من حضورها الساطع سناء يذيب خوفي ويحمينى من غيلان الصحراء. الصخرة التى نجلس فوقها مليئة بالشقوق، والشقوق مليئة بماء يتجدد ويصنع قرقرة تجرح الصمت. وأنا أدير ظهرى إلى الشاطئ وأستقبل المدى. لا أريد أن أرى سوى البحر وسناء التى اتكأت بجوارى تسكب جسمها فوق الماء والحجر. والبحر لوح من

الزجاج الأزرق، أملس ومصقول يعكس صفاء السماء ووهج الشمس. عشقى لهذه المرأة لا حد له، فمن أى الشقوق تتسرب هذه الكآبة، ولماذا تمتلئ أغانى الحب بالتوجع والأنين والشكوى، ولماذا تبدو نهاية الصيف نذيراً بالفاجعة، ولماذا ينطوى البحر على أسرار لا يفصح عنها إلا للغرقى؟

فوق النتوء الأسود الذى يحاصره الماء، نجلس متلاصقين. وسفينة في مكان ما تضرب بوقها وتطلق عويلاً يمزق الفضاء يفزعنى العويل فأزداد التصاقاً بسناء وأمد يدى لكى أعانقها. ولكن رجلاً يخرج فجأة من تحت الماء، وينظر نحونا بعينين جاحظتين. اتراجع عن عناقها وأنا أتأمل منظر عينيه المفتوحتين بهذا الاتساع الغريب، فأكتشف أن في عنقه حبلاً لا مرئياً يشنقونه به. تواصل السفينة بكاءها، وتعود سناء إلى السباحة، ويختفي الرجل المشنوق تحت الماء، وأبقى أنا فوق الصخرة الناتئة أحترق بوهج الشمس. أغطس في الماء قليلاً لأبلل جسمى ثم أعود إلى صخرتى أحتمى بها، رافضاً أن أذهب إلى الشاطئ، وكأن خطراً ينتظرنى هناك. بقيت جالساً أتابع سناء وهى تضرب الماء بذراعيها وتدفعه بقدميها وتحرك رأسها شمالاً ويميناً وكأنها ترقص

وسط الماء. تصنع رذاذاً مضيئاً حولها وتمضى، بهجة تتلألأ فوق مفارش من القطيفة الزرقاء. ولكى لا أحسد البحر الذى أسلمت له جسمها يعانقه وينفذ إلى كل مناطقه، تصورت أننى صرت ماء يتحد بالماء ويذوب فيه، غمرتنى أمواج النشوة وأنا أحس بأننى أحتويها وأحيط بها وأتدافع لاثماً كل جزء من جسمها. أدخل فمها وأحرق شفتيها وأغسل شعرها. إنها امرأة شهية إلى حد الألم. جميلة إلى حد البكاء. وهذه الرعشة التى تهزنى، ليست شبقاً، وليست جنساً، وإنما ثمالة وانصهار. اتحاد مع فيض النور المنبثق من جذور الماء. أحسست بسحر اللحظة، يصنع خدراً ناعماً لذيذاً يسرى مع الدم في عروقى، فتساءلت كيف أستطيع وسط هذا المهرجان من الفتنة واللذة أن أكتئب. إننى إنسان يدمن إيذاء الذات. يترك لحظات السعادة تهرب منه، دون أن يستمتع بها. يسهو عنها فلا يدركها وعيه إلا بعد أن يفوت أوانها، ليستحضرها بحسرة فيما بعد، نادماً لأنه لم يعرف قيمتها ولم ير جمالها. ولا أدرى إذا كان هذا الخدر اللذيذ قد تمكن منى إلى حد الإغفاء. فقد رأيت شيخاً له هيئة الشيخ الصادق بلحيته البيضاء كزبد البحر، ينبثق من مكان ما في الأفق، يحمل

عصا يضرب بها سطح البحر، ويمشى بخطى سريعة فوق الماء. وقف حيث تسبح سناء، يلامس زندها بعصاه، فتنهض واقفة وتمشى معه فوق بساط البحر. رأيته يضع يده في يدها، ويمضى بها، حتى يغيبان خلف الأفق. أخذ الشيخ ابنته يعيدها إلى عالمها الأسطورى، وأنا أتقلب فزعاً فوق سرير من مسامير الصخور السوداء. نهضت واقفاً ورأتنى سناء أفتش عنها بنظراتى فلوحت لى بيدها واتجهت صوب الشاطئ. قلت لها ونحن نخرج من لباس البحر وندخل لباس أهل الأرض:

- رأيتك منذ قليل تمشين فوق الماء وتعودين امرأة تنتمى إلى الأحلام والأساطير، فقولى لى، با عليك، من أنت؟

إن لك خيالاً مدهشاً.

لا أدرى إن كان لما رأيته دلالة ما، ولكننى مازلت وبرغم هذا الصفاء الذى بيننا خائفاً من أن أفقدها، مدركاً أن هذا الخوف، مولود شيطانى، ليس له أب ولا أم، ولا يملك لمجيئه دافعاً أو تبريراً. ولذلك فهو يفزعنى. وأقول محذراً نفسى، بأننى لن أفقد سناء، إلا بسبب خوفي من أن أفقدها.

ومع اقتراب نهاية الصيف ازدادت حساسيتى نحوها ونحو العلاقة التى بينى وبينها. لم أعد أرى نفسى إلا ذلك الراقص الذى يحمل فوق رأسه جراراً لا تحصى، ويمضى ناشراً ذراعيه في الهواء، مشدود الأعصاب، محتبس الأنفاس، يحسب لكل حركة حسابها لكى يحفظ توازنه. وصرت كلما رأيت زميلاً في الجامعة يأتى لتحيتها، أو الحديث معها، أتوجس شراً، وأخشى أن يكون شريكاً في مؤامرة يريد إبعادها عنى. كنت أغضب، ولأننى أحمل وعى راقص الجرار، كنت أضبط أعصابى، بمثل ما يفعل الراقص عندما يضيفون جرة أخرى إلى الجرار التى يحملها. وأعود ليلاً إلى غرفتى لأعنف نفسى، لأننى بطريقة لا أعيها، ولا أفهم دوافعها، ولا أستطيع لها رداً، أقضى نهارى أحفر هوة أعرف أن لا أحد غيرى سيسقط فيها. صرت عصبياً، فقد بدأت الزوابع التى تهب باستمرار تنبئ يقيناً، بأن الصيف يلفظ آخر أنفاسه. بدأ سكان القرية يغادرونها. وجاء عامل من عمالها، يوقظنى من نومى، يحمل بطاقة تركها لى أنور جلال، تقول بأنه سوف يغادر القرية بعد أسبوع ويدعونى لحضور هذه السهرات الأخيرة. فصل يموت، وفصل آخر

يولد. وسوف أحتاج لعقلى كاملاً، أواجه به هذه اللحظة القاسية التى يشتبك فيها موت الفصول وميلادها. هذه الريح التى تعارك الأبواب والشبابيك، وهذه الأمواج التى تصفع الصخور، وهذا الصباح الخريفي الذى يلوث الطرقات بأوراق الأشجار الساقطة، وهذه القرية الخاوية التى سحب عنها الصيف رداءه البراق، وأبقاها عارية من زينتها. كل هذه المشاهد الموحشة لن تأخذ منى سناء. سأذهب الآن إليها. سأبقى بجوارها، أشبك ذراعى بذراعها، وأستمد من سنائها شجاعة تعيننى على عبور قنطرة الفصول. لم يكن ممكناً بعد الآن، أن نمضى مع روتيننا القديم. صار علينا أن نتلمس طريقنا نحو التوافق مع إيقاع الفصل الجديد، ونخترع زمناً يخصنا، نواجه به خواء الخريف ودورته الزمنية المعادية للأشجار والأزهار والطيور. ليس هناك غير البيت مكاناً لقضاء أوقات الفراغ، خاصة في هذا الجو الذى ينذر بالعواصف الترابية. تناولنا طعام الغداء. شربنا القهوة واستمعنا إلى أخيها يعزف على الكمان لحناً مدرسياً وطالعنا الصحف التى اشتريناها هذا الصباح. ولكن كل ذلك لم يستغرق سوى ساعة واحدة. وجدت نفسى فجأة أقف وأستأذن

في الذهاب. كانت الأم قد أحضرت مشروباً بارداً وجلست تعتذر عن ضربات المطارق التى تتناهى إلينا من الطابق الأعلى. فالجيران يصلحون شقتهم، وسينتهى الإزعاج بانتهاء هذا اليوم. وقفت قبل أن تنتهى من كلامها أستعد للانصراف. فعلت ذلك بطريقة عصبية جعلت سناء تسألنى عما يضايقنى. انتبهت إلى أننى أدير سلسلة مفاتيح السيارة بين أصابعى في تشنج ظاهر. أوقفت دورة المفاتيح وقلت بأننى يجب أن أذهب الآن، لكى أتصل بالسماسرة الذين وعدونى بالبحث عن شقة. جلست أمام مقود السيارة، ودوى المطارق يملأ رأسى، والريح تكتح ترابها كأنها أرملة تنوح على زوجها الميت. لم أذهب إلى مركز المدينة أبحث عن السماسرة، وإنما أقفلت عائداً إلى الشاطئ. أخذت كتاباً وجلست وحيداً في مقهى القرية. لأول مرة، منذ أن عرفت سناء، أترك صحبتها وأرفض دعوتها للبقاء، وأرحل عنها لكى أنفرد بنفسى، هارباً من جلسة البيت، ودوى المطارق، وعزف الصبى، وحديث الأم عن غلاء أسعار الخضار في فصل الخريف. انقطعت الحبال التى تصلنى بمثل هذه الأجواء العائلية بطقوسها وروتينها، فلم أعد قادراً على التآلف معها.

شىء محزن أن أشعر بالضجر وأنا أجلس قريباً من سناء، معلقاً بصرى بأهدابها، محاطاً ببهاء صوتها وابتسامتها ودوائر ضوئها وعطرها، ولكن ماذا أفعل وأنا لا أريد أن أرى سناء إلا كائناً استثنائياً، لا تنتمى مثل النساء الأخريات إلى عائلة وأم وأخ وجيران يضربون السقف بمطارقهم، وإنما تنتمى إلى شساعة البحر ونداء الفجر وغناء النجوم وإلى كل شىء مبهر وجميل له بهاء وجهها وضياء عينيها. لم يكن البحث عن الشقة إلا عذراً استخدمته دون أن أعنيه، لأننى ما أن غادرت البيت حتى وجدت نفسى أضيق بفكرة الذهاب إلى السماسرة والاستماع إلى أكاذيبهم، وجئت مباشرة إلى هذا المكان الذى لا يأتون إليه. كان المقهى خالياً. ليس به زبون واحد. حتى العامل لم يكن موجوداً. وعندما أظلمت الدنيا وانهمر المطر بشكل فجائى، بدا لى وكأن ذلك يحدث بإشارة منى. إنها أول أمطار الخريف، جاءت تعزف نشيدها الجنائزى، رثاء للصيف الذى مات. هطل المطر قوياً، وجاء مدفوعاً بقوة الريح يضرب الزجاج ويحجب الرؤية. ولم أستغرب عندما رأيت رجلاً يقف وسط المطر، لا يفصل بينى وبينه إلا الزجاج، يسيل الماء فوق وجهه وشعره وهو ينظر

نحوى ضاحكاً. إنه يحمل ملامحى، ويستعير لون ضحكتى، إلا انه يضحك الآن بشكل أهوج، جنونى. كدت أرميه بالكتاب الذى معى، عارفاً أننى لا أرمى إلا نفسى، ولا أرى إلاّ صورتى فوق الزجاج الذى تضربه الأمطار. ليتنى أستطيع أن أبادله الحديث، وأصل إلى اتفاق معه، بحيث يأخذ أى شىء آخر يريده ويترك لى سناء، فلا يتدخل لإفساد حياتى معها. كان صوت المطر قوياً، وكان الزجاج حاجزاً يفصل بينى وبينه استبدلت صحبة سناء بصحبة هذا الرجل المشوه الذى يسكننى، وما أن يهطل المطر حتى ينسل من جسدى ويقف شامتاً بتعاستى. ما فعلته اليوم مع سناء كان شيئاً ذميماً. ألم يكن ممكناً أن أستخدم أسلوباً أكثر لياقة، وأقل تشنجاً عندما خرجت. هل كان سيكلفنى جهداً كبيراً لو حاولت التآلف مع أسرتها وبقيت معهم، أو اقترحت تغيير المكان والانتقال إلى مكان آخر. كل ذلك كان ممكناً، فلماذا أترك الطرق الآمنة، ولا أسلك إلا أكثرها عنتا، وعذاباً لى ولمن معى. ترى ماذا قالت الأم وأنا أقاطع كلامها وأمضى هارباً، وماذا كان رأى سناء وهى ترانى أتصرف بهذه الحماقة. هل يكفي أن أقول لنفسى بأننى لن أعود لمثل هذا

السلوك فيتحقق قولى. إننى لا أعرف فالشخص الآخر الذى يتنفس تحت جلدى لا أمان له. ولكننى سأحاول.

توقف المطر عن الهطول، بينما ظلت امرأة الريح تندب أهلها الموتى. رأيت الصخرة البركانية الكبيرة ملقاة على الشاطئ يرقص فوقها الموج، فتساءلت بينى وبين نفسى:

- متى كانت آخر مرة ضرب فيها الزلزال هذه المدينة.

رجعت مساء اليوم التالى إلى غرفتى وأنا أكثر رضا على نفسى. أمضيت يوماً جميلاً مع سناء. رجعت بها من الجامعة إلى البيت لأجد أنها أعدت لنا هذه المرة لعبة جديدة لتمضية الوقت. استعارت شريطاً يحتوى فيلماً لمحمد عبد الوهاب وقامت بعرضه على جهاز الفيديو. جاء الفيلم نسمة رخية، تحمل عبير أزمنة أكثر صفاء وعذوبة.

- ما أحلاها عيشة الفلاح.

كانت أزمنة تعرف كيف تحتفي بالأوهام الجميلة. استقبلت الغناء والأحداث التى ترويها قصة الفيلم، بنفسية تعشق الحنين إلى الماضى، واستحضار عوالمه الذائبة في

سيولة الزمن. لم يكن يعنينى أن أفتش عن الظروف التى كان يعيشها الفلاح في تلك الحقبة، فقد بدا الفيلم ببساتينه وفلاحيه وحقوله ونواعيره وسواقيه منسجماً مع منطق الأغنية. تعاونت الصناعة اليابانية الحديثة، وبساطة الأفلام العربية القديمة، في إضفاء جو على جلستنا كان مفقوداً في اليوم السابق.

أتاح لنا الفيلم فرصة أن نتحاور حول تبدل الأزمنة وما تحدثه من تحول في القيم والمفاهيم، وصولاً إلى حياتنا العصرية وما طرأ عليها من تعقيد. وفي حين كنت أميل إلى تمجيد الماضى، وإضفاء طابع رومانسى على أحداثه ورموزه وسلوكياته، كان حديث سناء هجاء للماضى، وانحيازاً للتقدم الذى حققه الإنسان في العقود الأخيرة. تألقت وهى تدافع عن أطروحتها. جلست متوثبة على حافة كرسيها. تكلمت بيديها وملامح وجهها وأهداب عينيها وارتعاشة قرطين بأذنيها ورفيف خصلة شعر فوق جبينها. أسرفت في استعمال صيغة استفهامية في أعقاب كل جملة تقولها، لأجد نفسى متورطاً بالموافقة كلما سمعتها تقول »أليس كذلك« ؟، ولكننى مدفوعاً بمتعة الاختلاف معها سرعان ما أعود

لمشاكستها ومحاولة الرد على أقوالها. وفي حين كنت أستعمل لغة عاطفية وجدانية لا تهتم بالبحث عن البراهين، كانت هى تستخدم لغة علمية، مليئة بالاستشهادات التى تأتى بها من مجال تخصصها، عما وصل إليه معدل عمر الإنسان، وما حققه الطب من معجزات وما عرفته الجراحة من تطور يشبه السحر، ولكنه سحر العلم وليس سحر الخرافات. وتشير بإصبعها إلى ما تحتويه الغرفة من أجهزة حديثة، لا نتصور أن الحياة يمكن أن تمضى بدونها، في حين أن الأجيال التى سبقتنا لم تكن تحلم حتى بإمكانية وجودها، وما هذا كله سوى البداية، لأن الأيام القادمات ستكون أكثر إبهاراً وإعجازاً. بحماس دافعت سناء عن عالم اليوم، وأعلنت انتماءها للغد الأبهى الذى سوف يأتى. وكان أكثر ما أسعدنى هو هذا الاختلاف الذى نشأ بيننا. لم أستطع إلا التسليم بمنطقها، ولكننى أردت أن أحتفظ بهذه الإثارة التى يصنعها تباين الآراء، فقلت مبدياً تحفظاً أخيراً:

أعذرينى إن كنت لا أستطيع أن أثق بالمستقبل كل هذه الثقة، لأنه في مكان ما من هذا المستقبل، في مكان ما منه، يكمن لنا الموت.

كانت جملة كئيبة. لكنها لم تطفئ حرارة الانفعال الذى يتدفق ساخناً في صدرى. أنعشتنى هذه المناقشة التى أعادت إلى علاقتنا تلقائيتها وحررت نفوسنا من مشاعر الخوف والحرج. إن العطب الذى رأيته يتسلل إلى علاقتنا لم يكن إلا وهماً. والطائر الذى يحوم في سمائنا لم يكن إلا نورساً جميلاً ظننته غراباً. وهذا الخوف من أن أفقد سناء لم يكن إلا وسواساً أشفانى منه صفاء هذه الجلسة. وحامل الجرار عليه أن يعود إلى الرقص متحرراً من حمله الثقيل، ليقفز في الهواء، ويرتمى وسط الماء، ويرقص على أنغام عازف أسبانى فوق الرمال، فقد صار آمناً من كل خوف. وهذا الطقس البديع الذى استعار أنسام ربيع ما زال جنيناً ينتظر الولادة بعد ستة أشهر، ليس إلا انعكاساً لصفاء الروح وبهجتها. كنت سعيداً سعادة تضيق بها الأسقف والجدران، والأماكن المغلقة. غادرت غرفتى وخرجت أتجول ليلاً عبر طرقات القرية وحدائقها. أتأمل التماعات الأضواء البعيدة فوق مياه الطرف القصى من الشاطئ، وأرقب العتمة الزاهية التى تغطى سطح البحر وأستقبل أنسامه المحملة بشذا الأبد. يشملنى إحساس بالزهو وحب لهذا الكون الفسيح، العامر

بجمال يكشف لى الآن أسراره، ويسمعنى أغانيه، ويمنحنى مفاتيحه. لأكن ذرة ضئيلة من ذرات هذا الكون، فأنا فخور بانتمائى إليه وقدرتى على الانسجام مع إيقاعه وموسيقاه. كانت سناء قد خرجت تودعنى أمام البيت، رأيت المكان خالياً من الناس فطبعت على فمها قبلة سريعة وذهبت. طعم تلك القبلة ما زال لاصقاً بشفتى، وتأثيرها مازال يشملنى بسلامه المضىء. وحدائق القرية من حولى تضوع برائحة المطر الذى سقاها بالأمس. مررت قريباً من شقة أنور جلال، وتناهى إلى سمعى صوت العزف على العود، فطربت له. بدا لى وأنا أسمعه من بعيد مختلطاً برائحة الأشجار ويود البحر، أكثر متعة وشفافية مما لو كنت أجلس بمحاذاته. وقفت أنصت إليه دون أن تراودنى أدنى رغبة في الانضمام إلى السهرة. كنت مملوءاً بسعادتى الخاصة. متوافقاً مع حفيف أنفاس البحر، وعبير الأرض، والموسيقى التى تعزفها أشجار الليل، وفضة الزبد الذى يصنعه الموج، مأخوذاً بضوء نجمة بعيدة تتألق في وحدتها على حافة الأفق. اعتبرتها عاشقة مثلى، فأنشأت معها تواصلاً حميماً. منتشياً بهذه اللحظة المبهجة، التى تأتى وكأنها مقطوعة الصلة بما مضى أو بما سوف

يأتى. لحظة تكتفي بذاتها، وتزهو بامتلائها، حتى تهيأ لى وكأن هذه اللحظة على عكس مثيلاتها من اللحظات الأخرى، لن تموت وتتلاشى في الفضاء اللانهائى، لأنها بمثل ما كافأتنى بهذه النشوة، فسأكافئها بأن أحملها دائماً معى.

قالت سناء ونحن نجلس في صالون بيتها:

- إنك جالس ولكن قدمك تمشى. فإلى أين وصلت؟

انتبهت إلى أننى فعلاً أضرب بقدمى الأرض وكأننى أمشى، لا بد أنها وسيلة أعالج بها القلق. إحساس خادع بالمشى، وتعبير عن رغبة لا واعية بمغادرة المكان. هذا ما انتبهت إليه سناء قبل انتباهى إليه وأدركت بشفافيتها، وسر التواصل الذى بيننا ما أردت أن أقوله قبل أن أقوله، عندما اقترحت أن نترك البيت ونتجول قليلاً بالسيارة.

لماذا يأتى من حيث لا أدرى هذا القلق المجانى الذى لا دافع له ولا سبب لانبثاقه. بجوارى تجلس المرأة التى وعدتنى بها الملائكة أثناء الحلم، ومن حولى هذه الحفاوة التى تقابلنى بها الأم وكأننى ابن غائب عاد إليها في أزمنة الحرب، وأمامى فناجين القهوة، وصحون الجاتوه، وقريباً منى لعبة مسلية جاءت من اليابان تعرض الأفلام وتطرد

المال. فلماذا وسط هذه الضيافة الكريمة الحنونة، يسوقنى الفضول إلى البحث عن مكان آخر، أعرف أنه لا وجود له، وأنه لا مكان في هذه المدينة أفضل من هذه الجلسة الدافئة الآمنة، المحصنة بعزلتها عن بذاءة العالم الخارجى. أخذنا السيارة، وذهبنا نطوف بها شوارع طرابلس، بحثاً عن لحظة اندماج معها، ورغبة في تجديد الوشائج التى تربطنا بها. وكأننا نريد أن نختبر حكمة هذه الأقدار التى اختارتها لنا واختارتنا لها. ولكنها ظلت، وبرغم صلة الدم التى تربطنا بها، تمنحنا وجهاً مقفلاً لا يعد بأية مسرة. مغلقة بأزمتها. لم تعد قرية ولم تصبح مدينة بعد. لا هى شرقية ولا غربية. لا تنتمى إلى الماضى ولا تنتمى إلى العصر. معلقة بين البحر والصحراء، وبين زمن مضى وزمن لا يأتى، تعيش مأزقها التاريخى، منذ أن تخلت عن طبيعتها القروية وفشلت في اكتساب طبيعة جديدة. انتهى الزمن القديم بأفراحه البدوية، وحلقاته الشعبية التى تعقد في الأسواق وموالد الأولياء، وحفلات ختانه وأعراسه، وبيوته المتداخلة المندمجة في بعضها البعض، وقد اكتظت بسكانها الذين يصنعون لكل مناسبة عيداً. وباغتها زمن جديد لم تكن مهيأة له، أو راغبة

في أساليب حياته العصرية، فرفضت الانتماء إليه، وظلت معلقة بين ماضيها وحاضرها، لا تجد شيئاً تنتمى له أو ينتمى إليها، تنظر بريبة وخوف إلى العالم الذى يحيط بها. أخذت من العصر الجديد، شبكات الطرق الاسفلتية التى تحرقها الشمس، وصناديق العمارات التى يسفعها الريح وتتكدس حولها الأتربة، ويسكنها بشر خرجوا من خباء القبيلة ولا يعرفون التعامل مع جيرانهم الذين جاءوا من قبيلة أخرى إلا بمنطق النظرات المذعورة التى تطل من وجه إنسان مشنوق. ثم ركام هائل من الحديد الذى يقذف به البحر على شواطئها كل يوم، في شكل سيارات ومصاعد ومطابخ ومدافع وأسياخ تصنع منها منصات الخطابة. وما عدا ذلك فقد ظل هذا الجديد شيئاً لا تقوى على الاقتراب منه، حتى لو أدركت أن بعضه ضرورى لاستكمال شكلها الحضارى، فإن قلبها البدوى يرتعب عندما يأتى ذكر الأندية والمسارح والملاهى والحانات والمكتبات وقاعات الرقص ومدن الألعاب ومراجيح الأطفال ودكاكين الورود وجمعيات الرفق بالأطفال والأشجار والطيور ومستشفيات القطط والكلاب، كبديل لزهدها البدوى وأفراحها القروية القديمة التى انقرضت يوم أن خرج أهلها

يحرقون الأشجار ويستبدلونها بأعمدة الاسمنت، ثم قاموا بمسيرة جماعية لنحر جمالهم واستبدالها بحشرات حديدية يركبها الواحد منهم وكأنه نبى تخلف عن عصره وجاء يركب براقه كى يلحق بهذا العصر. أصطحب معى سناء في السيارة وأطوف بها الشوارع في دورة عبثية. أخرج من شارع ثم أجد نفسى أعود إليه باحثاً عن مكان يمتص هذا الفراغ، ويقدم لرجل وامرأة لحظة ترويح قصيرة، دون أن أهتدى إلى مكان واحد يمكن أن أذهب إليه برفقة سناء. المطاعم ليس وقتها، والمقاهى اكتفت بمجتمعاتها الرجالية، ودار السينما الوحيدة التى يذهب إليها النساء والرجال تعرض فيلماً هندياً بترجمته الركيكة وقصته المتكررة المليئة بالفواجع والدموع. أنفخ بوق السيارة قرفاً، وتذمراً من حركة السير وبطئها. وإشارات المرور التى تناكفنى وتضىء عينها الحمراء كلما اقتربت منها. أمد عنقى خارج النافذة أشتم سائقاً جاء من شارع جانبى ومرق بسرعة من أمامى، فأدوس على فرامل السيارة بشكل فجائى يرعب سناء ويضرب رأسها بالزجاج. تضع يدها على جبينها تتحسس أثر الضربة ثم تضحك في لامبالاة. أنتبه إلى أننى استعملت

عبارة بذيئة لم يسبق أن قلت مثلها في حضور سناء. أعتذر لها ملقياً اللوم على هؤلاء الرجال الذين صارت السيارات وسيلتهم الوحيدة للتنفيس عن لحظات الغضب والتوتر والكبت الجنسى والقهر الاجتماعى والاختيارات المفروضة وقبح الحياة في مدينة خاوية مثل صدفة حيوان بحرى ميت، ملقاة فوق رؤوسهم على شاطئ البحر.

تقول سناء وهى تغطى بضحكتها حرج الموقف:

- يجب أن تكتب أطروحة حول هذا الموضوع.

- لن أكتب شيئاً يساعدهم. دعيهم في هذا البؤس فهو يليق بهم.

- ولكنك تقود السيارة بطريقة عصبية مثلهم.

- ألا يقولون، من عاشر قوماً صار منهم. فما بالك وأنا فعلاً منهم.

- يا خيبة المسعى. كنت أظن أننى التقيت برجل استثنائى.

قادرة هى على استحضار الدعابة التى تذيب التوتر. إننى لست رجلاً استثنائياً فلماذا إذن هذا الاعتذار عن إبداء كلمة جنسية أمام امرأة ستكون بعد أيام زوجتى. لم أقل شيئاً.

أدرت رأسى أنظر إليها باسماً. وجدت أن وجهها الذى صار أكثر توردا بسبب ارتطامه بالزجاج، يضىء الآن بنداءات عذبة، ورأيت فمها بانفراجة الدهشة التى لم تفارقه بعد، شهياً، لذيذاً، يشعل قناديل فتنته في صدرى. انعطفت بالسيارة إلى الطريق الساحلى. وأوقفتها في ركن من أركانه، أطاب لحظة أستلقط فيها أنفاسى. اخترت الوقوف بجوار تمثال الغزالة، أستعيد بالنظر إليه دهشتى القديمة عندما رأيته لأول مرة. تغيرت معالم المدينة، وتبدلت العهود، وبقى هذا التمثال في مكانه، محاطاً بست نخلات رافقته منذ بداية وجوده، تدور حوله الأزمنة والسيارات، وتمر بجواره مواكب الحكام الذين يأتون ويذهبون، وهو ثابت ثبات حقائق الحياة، يفيض بهاء وسحراً ويحكى قصة تتصل بحميمية الخلق وإبداع الحياة وتقبض على أكثر المعانى جوهرية في الطبيعة البشرية. امرأة عارية، تحف بها نوافير الماء وهى تمسك غزالة هاربة. قصيدة من الحجر. ورخام يغسله الماء ويقول كلاماً صامتاً، يبدأ ولا ينتهى. وتكوينات تتفجر بمعان حسية متمثلة في هذه المرأة التى أمسكت عنق الغزالة الشاردة بيد، وأمسكت بيدها الأخرى جرة الماء، فاستطال العنق ونفرت

النهود وامتلأ التمثال بالدوائر الموحية. حوار مشحون بالدلالات بين هذه المرأة وهذه الغزالة وهذا الماء، وسط حلقة من أشجار نخيل ترفع رؤوسها إلى السماء، متواطئة مع سيدة الرغبة. مشهد يغرس جذوره في الحلم، وينتشر في خلايا الجسد، نابضاً بإيقاعاته السرية، حيث يتحول الجنس إلى صلاة، والغزالة الشاردة ذات الرشاقة والبهاء إلى رمز للرغبة، والمرأة التى جلست عارية فوق صحن الماء، ونشرت ذراعيها، ورفعت وجهها ونهديها، ليست إلا رمزاً للأنثى الخالدة، التى إليها تسافر القلوب العطشى، الراغبة في الارتواء من جرارها.

قالت سناء وهى ترانى أطيل النظر إلى التمثال:

- كأنك تشاهده لأول مرة. هل يقول لك شيئاً؟

- إنه يقول أشياء كثيرة. وأنت؟

- لا أرى سوى غربة هذه المرأة وغزالتها، وسط ميدان يمتلئ بضجيج الشاحنات ودخانها.

تذكرت أن هذا الميدان لم يكن ميداناً عندما كنت طفلاً، كان جنينة ورد عامرة بالطيور وأحواض الماء. نظرت بأسى إلى التمثال، وإلى حدائق الطفولة الضائعة، وانطلقت بنا

السيارة، عبر الطريق المحاذى للبحر، حتى وصلنا قرية الشاطئ السياحى. وقفت أمام بابها أسأل سناء، فيما إذا كانت توافق على قضاء بعض الوقت بها. هزت كتفيها دون مبالاة. كان الجو في تمام اعتداله. لم يكن برداً ولم يكن قيظاً. لم يكن ساكناً ولم يكن متحركاً. ولكن القرية السياحية، لم تكن هى القرية التى عرفناها خلال الأشهر الماضية. اختفي البشر والضجيج ولم يبق سوى الصمت وضوء الشمس، يغطيان أبنيتها البيضاء. وموقف السيارات أضحى متاهة هائلة من الفراغ والأسمنت. وحوض السباحة صار الآن حفرة زرقاء خالية من بهاء الماء، شبكنا أيدينا، وسرنا عبر الممر الحجرى الذى يفصل بين أبنية القرية ورمال الشاطئ. إطلالة أخيرة على زمن يهرب من بين أصابعنا. وثمة قارب ملقى على رمال الشاطئ تغطيه النوارس. تطير حوله في الفضاء، أو تمضى طافية فوق الماء، ثم تعود إليه مرفرفة، ومصفقة بأجنحتها الرمادية البيضاء. لم أكن قد شاهدت نوارس بهذه الكثرة عندما كان الشاطئ يزدحم بالمصطافين. قلت لسناء:

- ما رأيك أن نأخذ هذا القارب ونسافر.

رحلت بعينيها إلى القوس الذى تصنعه السماء وهى تنحنى فوق البحر.

- إلى أين؟

- لم يكن سندباد، ليكون السندباد الذى يبهرنا لو أنه سأل نفسه إلى أين سيسافر. سحر المغامرة يكمن في أن ننسى هذا السؤال.

- على أيامه لم تكن هناك تأشيرات وجوازات سفر وبوابات حدود ودوريات حراسة تحمل البنادق.

- إن لك ذاكرة جديرة بامرأة عربية لا تفكر إلا بالحواجز والحراسات. ألا تنسين كل هذا وتعتبرينه جزءاً من المغامرة؟

وضاحكة قالت:

- سأخذلك هذه المرة وأقول هيا بنا.

سوف نسحب هذا القارب. نتكئ فوقه متعانقين. ندير المحرك ليرقص القارب فوق ثبج البحر، ويشق بنا غلالات الماء متجهاً إلى الشاطئ الآخر. ترافقنا نوارس الحب، وتغنى لنا جنيات البحر، وترسل لنا جزيرة مجهولة لا تكشف نفسها إلا للعاشقين نداءها. تدعونا إلى عرس تقيمه لنا أشجارها،

ولكن من أين يأتى هذا الوهن الذى يمنعنا من تحقيق الأمنيات العذاب ؟. لماذا تنهار العزائم، وتذوب الأحلام في أبخرة البحر، ونرحل دون رحيل. وعلى مدى البصر، كان البحر يتوهج بصفاء المرايا، وكانت يدى التى تحتوى يدها، مصدراً لعذوبة تسيل عبر أنسجة الجسم وخلاياه، وتتركز في نقطة ما تحت أضلع الصدر. أدرت بصرى إلى حيث أدارت هى وجهها. في مكان ما من أبنية القرية ثمة أناس ينقلون أمتعتهم.

- رحلوا جميعاً ولم تبق إلا أنت. سيطردونك قريباً دونما ريب.

- أضحى الحصول على الشقة احتمالاً قابلاً للتحقيق في أية لحظة.

تركت أحلام السفر إلى الشاطئ الآخر، والأعراس التى تقيمها الجزر المجهولة للمحبين، وعدت أجابه حقائق الواقع بطعمها اللاذع. شرحت لها كيف أننى توسلت بزميل يعرف زميلاً آخر يعرف قريباً لمسؤول الإسكان، الذى وعد قريبه بأن يتدبر لى سكناً في الأيام القريبة. لم أسمع منها تعليقاً وكأنها لا تثق بصدق هذه الوعود التى ينقلها رجل،

يعرف رجلاً، يعرف رجلاً آخر، يعرف مسؤول الإسكان. ولكننا لن ننتظر إذناً من أرباب الإسكان حتى نقيم العرس، فنحن في عرس، قلت لها في خاطرى، منذ ألف سنة مضت.

كانت هى مشغولة بتأمل الدوائر التى يصنعها نورس يلاحق نورساً آخر. لعلهما ذكر وأنثى يلعبان تلك اللعبة التى بها وحدها نصنع الحياة ونحمى أنفسنا من الانقراض. كانت ترفع رأسها، فتظهر التماعات الشمس فوق صفاء جيدها. جسد يرسل شراراته المحرقة.

بدأت أشعر بوهج الشمس يثقل رأسى، فاقترحت عليها أن ننتقل إلى دارى، نشرب القهوة، ونرتاح قليلاً من المشى في الشمس. وضعت السخان فوق النار، ووقفت أراقبها وهى تعيد الأشياء المبعثرة إلى نظامها، محاولاً دون جدوى أن أتحاشى النظر إلى انحناءات الجسد واستداراته، وهى تتحرك تلتقط قميصاً أو منديلاً أو كتاباً رميته بإهمال فوق المقاعد، كى تعيده إلى مكانه، أو تمسح الغبار عن راقصة المعبد الهندى، أو تأخذ إبريقاً تملأه ماء وتسقى به النبتة في حوضها.

- لعلك لم تأت بى هنا إلا لهذا السبب.

وقفت أمضغ ريقى وأنظر إلى سمانتى ساقيها. ترسلان من خلف الجوارب الشفافة، دوائر مغناطيسية تمزق أنسجة القلب. سيكون إهانة لجمالك لو جئت بك فقط لترتيب دارى. إهانة لن يغفرها لى الشاعر بندار الذى جاء يبارك عرسنا عندما استأنفنا لقاءنا بحديقة زيوس المفضلة. ولن تغفرها لى الربة ليبيا التى أرضعتك من حليب نهديها، وقضت زمناً طويلاً تصب رحيق أزهار الليل في شعرك، وتعصر نبيذ الفجر في شفتيك ونهديك، وتصنع من فضة الندى ورغوة الصبح صفاء جيدك ونعومة أصابعك، وتسكب حرقة الأغانى التى تنشدها الحقول في جسدك. تمنحك كل ما لديها، فلا يبقى للآخرين إلا الخلاء وهبوب الصحراء. لقد باركت الربة ليبيا أيضاً عرسنا، فإلى متى نؤجل هذا الزفاف ؟.

أستطيع أن أدرك في هذه اللحظات، أن شيئاً سديمياً، غامضاً، كان يدفعنى بإلحاح إلى أن أدعوها إلى مرافقتى والاختلاء بها في هذا المكان. جلسنا نشرب القهوة ونتحدث عن التحضير للعام الدراسى الجديد. كانت هى قد علقت سترتها الصيفية الزرقاء على كرسى بجوارها، وبقيت بقميص مقصوص الأكمام تمتد أزراره فوق منبت النهدين.

اتكأت بمحاذاتى على الأريكة ذات القماش الذى يغطيه وبر برتقالى اللون. وسال شعرها قريباً من وجهى يضوع بروائح يختزنها، لها نكهة الخضاب الذى تستعمله العرائس. انحسرت تنورتها الزرقاء عن ساقين كجدولين من عسل الجنون، وبدت في وضعها المتكئ الانسيابى وبشرتها التى أنضجتها ثلاثة أشهر من الرمل والشمس وملوحة البحر، تشع بجاذبية أنثوية لها لسعة الجمر. كنت متوتراً. تحت أجفانى أختزن حرارة الشمس، وفي رأسى فرقة أذكار تضرب دفوفها وصاجاتها الصاخبة. أسقط نظراتى في فنجان القهوة، مدارياً رعشتى، متحاشياً النظر في عينيها لكى لا تفضحنى نظراتى. أحارب رغبة تتملكنى وتقذف بى مثل البراكين، في أودية النار. قمت فأسدلت الستارة البيضاء فوق النافذة المفتوحة. لعل لهذا الإحساس علاقة بشعاع الشمس الذى يتكسر على المرآة، ويرسل وهجاً قاسياً يجرح العينين.

صرت أقول كلاماً عن الجامعة بينما فكرى شارد، يقول كلاماً آخر عن العشق والانسحاق والجنون. أضع رأسى في الأرض ولكن الجزء الذى انحسرت عنه تنورتها فوق الركبة، يضىء بألوان تستقطب نظرى فيتجمد فوقها.

قلت لها، إننى بطبيعتى لست معلماً، لأننى لا أملك ذلك الحس الذى يملكه معلمون يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة في الحياة، بل إننى أستهتر بأصحاب الرسالات الذين جاءوا بعد عصر انتهى فيه التواصل بين الأرض والسماء. وكأنما أحرقتها النظرات التى اختارت مربعاً صغيراً من جسمها تستقر فوقه، مدت أصابعها تشد طرف التنورة فوقه. واصلت الحديث وأنا أراقب تلك المعركة الدائرة. بين أصابع لها لون البلح الناضج عندما يلمع صافياً في عراجينه، وبين القماش الأزرق الذى يرفض أن يغطى سطوع تلك المنطقة فوق ركبتها، قائلاً بأنه رغم نفورى من التدريس فإننى لا أتصور لنفسى مهنة أخرى غير هذه المهنة. لا أطيق أن أكون موظفاً مربوطاً بساعات الدوام الرسمى أو تاجراً أو مقاولاً أو سمسار عقارات أو علاقات، ولا أملك موهبة تجعلنى أنتمى إلى عالم أنور جلال بلهوه ولعبه وأضوائه، ولأننى لم أولد من الوارثين المحظوظين الذين يتمتعون ببطالة تستمر مدى العمر، لم أجد إلا التعليم ملاذاً أهرب إليه. كلاماً كنت أقوله لأخفي به كلاماً آخر، أجد حرجاً في البوح به. عن هذا المخزون من الوجد والمواجع والضنا الذى يعصف بأشجار

الروح ويضربها بسياط البرق والريح. عن العراك الذى ينشب بين الماء والنار وبين البحر والصحراء وبين عتمة الأنفاق وضوء النهار. عن عنف الفصول التى تدور حولنا في رقصة وحشية كأفراد قبيلة بدائية يدورون في الغابة حول فريستهم. عن الغناء الحارق اللافح الذى يغنيه طائر أطبق الفخ على أحد جناحيه وبقى الجناح الآخر يرف ويرتعش مهستراً محموماً طالباً النجاة. عن علامات أراها تلمع في أفق يشتعل بألوان مبهرة، تخترق صلابة الجدران وكثافة الحجر وتضىء العتمة والسديم. عن حدث غامض، مثير، كصرخة الاستغاثة، أترقب وقوعه، وأمضى مشدوداً إليه بقوة لا أستطيع لها دفعاً. عن شرارات يضرمها في دمى حضورها العسلى وعن زهرة لها تويج من نار تحرق صدرى منذ أول يوم رأيتها فيه، تحمل زهرتها الحمراء ذات الساق الطويلة والرائحة المسكرة وتقف فوق جبل تغطيه أنوار فجر جديد.

لم أعد أقوى على رفع الفنجان بيدى المرتعشة فتخليت عنه. يجب أن أستفيد من هذه الخلوة التى لن يتيحها لنا الصيف مرة أخرى، وأقول لها شيئاً عن فعل الحب الذى

يصبح في حالتنا طقساً ضرورياً يحقق به الحب زينته واكتماله. إننا نخطئ عندما ننظر إلى الجنس معزولاً عن أشواق القلب أو نقيسه بمقاييس بيئة تقتات بخرافات ما قبل التاريخ، بدل أن نقيسه بقوة الإبداع التى صنع بها الفنان تمثال الغزالة والمرأة العارية، وجعل الجنس عبادة حرم ا منها الملائكة وأهداها لكائنات الأرض. إنها أيضاً تملك جسداً يتفجر بقوة الحياة وشهوتها، فلماذا هذا الولاء الأعمى لعقلية تقمع الجسد وتحارب شوقه لأن يحيا. أضعنا وقتاً ثميناً، وحان يا سناء العمر وبهجته، أن نوقف نزيف الزمن ونطفئ غلتنا من فاكهة الجسد ونبيذه. حان أن نقيم عرسنا بأنفسنا دون حاجة إلى انتظار سدنة هذا المجتمع وحراس أوثانه حتى يأتوا ويقيموه لنا. أردت أن أقول لها كل هذا الكلام، عندما تركت سناء العبث بالوسادة المرقشة بالأسماك الحريرية، وقالت شيئاً أفزعنى وزاد من حرقة الدم تحت أجفانى. اقترحت فجأة أن نغادر هذه الغرفة بعد أن أكملنا قهوتنا. رفعت إليها بصرى مستغرباً كيف لم تعرف حتى الآن سبب مجيئنا إلى هنا. اكتشفت وأنا أنظر إليها، أن هناك بقعة صغيرة تتوهج احمراراً فوق جبينها، تبقت من أثر

اصطدام رأسها بالزجاج. تلمست البقعة بأصابع مرتعشة، أبدى دهشتى واعتذارى. كان عملاً وحشياً عندما قدت السيارة بتلك الطريقة البدائية، بدل أن أجعلها أرجوحة لبهاء هذه المرأة. رأيتها تستجيب لتوددى وتقترب منى حتى يلامس شعرها وجهى. أدركت أنها فهمت قصدى، وسمعت ما كنت أقوله لها من كلام في سرى. طوقت جسمها وقبلت تلك المنطقة المتوردة بين حاجبيها ثم غمرت وجهها كله بالقبلات. الشفتين والعينين والوجنتين. قبلت الشعر والعنق والصدر. قبلت اليدين ظهراً وكفاً، والأصابع ذات النعومة والصفاء واحداً واحداً. وصرت هابطاً وصاعداً ألثم الذراع العارى الذى يسيل برحيق اللذة. كان قلبى يخفق كطائر ينبجس من عنقه الدم. وكان الدم يتدفق بعنف عبر شرايين الجسم وخلاياه، فيجعله يرتجف كدراويش حلقات الزار. أنفاسى تتواثب لاهثة، متقدة، ملتهبة، كأنها تعبير عن المواقد الكبيرة التى تشتعل داخل الصدر، وفرقة الأذكار تواصل شطحاتها الصوفية المجنونة، وضرب دفوفها وصاجاتها الصاخبة. لقد ظل حبنا ناقصاً عندما أرضى العاطفة وأهمل الجسد، كمن يقفز فوق الأرض بساق واحدة في حين ظلت

ساقه الأخرى موضوعة في الجبس. سأحرر الساق الأخرى، وأحطم عنها الجبس. هنا في هذه الغرفة التى تقع بأقصى أطراف الأرض. ووسط هذه القرية الخالية، المهجورة من سكانها، بعد أن داهمها الطوفان الذى اجتاح الدنيا. لقد انحسر الطوفان الآن. لم يبق بشر فوق الأرض إلا أنت وأنا. وعلينا أن نصنع حياة جديدة. نبنى عالماً جديداً، ونعيد لهذه الأرض الخصوبة والعمران. سنواجه الحياة بعد الطوفان معاً. مندمجين. متحدين. متداخلين. تكونين لباسى وأكون لباسك. تدخلين جسدى وأدخل جسدك. نتحد دماً ولحماً وعظماً وعصباً وشوقاً وضوءاً وطيناً. يدى تصبح الآن يدك. ذراعك تصبح الآن ذراعى. ساقك هى الآن ساقى. تندمج الأطراف وترقص الدماء وهى تعانق بعضها بعضاً. تختلط الأنفاس والرؤى والهواجس والأحلام والرغبات والذكريات التى صارت تسكن بيتاً واحداً، هو هذا الجسد الذى لم يعد ملكاً لك أو ملكاً لى، وإنما جسد نتقاسمه نحن الاثنان. معاً سنقهر الكآبة التى يصنعها رحيل الفصول. الفراغ الذى يتركه موت البحر. الفزع الذى تصيبنا به صحراء المدن التى تزهو ببؤسها وتشنق في كل صبح أطفالها. سنقهر الخوف والعجز

والمرض. سنعبث بقوانين الزمن وأوامر ملك الموت، ونطرد شيخوخة القلب وخواء الروح وأحزان الجسد. سترافقنا نوارس الفرح ونحن نرحل إلى الشاطئ الآخر الذى يليق بحبنا. إلى الجزيرة المجهولة، المطمورة تحت الماء، التى لا تكشف أسرارها إلا للعاشقين، ولا تقيم أعراسها إلا لمن أضنته مواجع الهوى والصبابة حتى أشرف على الهلاك أو الجنون.

- أحبك، أحبك، أحبك.

أقولها بلوعة وحرقة واشتهاء ورعب. أقولها بمثل ما لم أقل أى شىء آخر في حياتى أكثر صدقاً وألماً ومعاناة. أقولها تعبيراً عن جذبة الروح، ورقصة الجسد الذبيح، وفورة الدماء التى تقيم أعراسها وتطلق بواريدها في رأسى وفي صدرى. أقولها وأنا أعرف أنها عاجزة عن نقل هذا الدفق، وهذا الفيض، وهذه العواصف التى يصنعها اهتياج المشاعر وثورة العناصر التى تعلن الآن قيامتها. أحبها وأحس بحبها سكيناً لا مرئياً يغوص في جسدى. دمعة لا تفارق عينى. عشباً يشتعل تحت جلدى. دماً يتدفق حارقاً تحت أجفانى. ثوباً من الجمر أرتديه ويرتدينى. فراشة تحملنى فوق لهيب

ألوانها، وترفعنى حتى ألامس زرقة السماء وأسمع زغاريد الملائكة وأطوف بين النجوم أسوقها كقطعان من غزالات الضوء والبهجة أمامى، وتهبط بى إلى عالم سفلى مليء بغيلان الظلام وشياطين الجنون، وغناء الأفاعى التى ترقص نحوى وتتسلق جسدى. فأحس بحبها يؤلمنى ويبهجنى. يسعدنى ويشقينى. يهلكنى وينجينى. يميتنى ثم يحييني. أحبها، ولا أريد شيئاً من الدنيا إلا أن تنغلق علينا هذه الغرفة وتنسد منافذها بالحجارة والأسمنت والحديد، ونبقى مقيمين بداخلها مدى العمر. ولسوف يصنع حبنا ملائكة يحملون موائد من السماء يخترقون بها السقف، فنبقى في هذه الغرفة نأكل خبز الملائكة، ونشرب نبيذهم، حتى نشيخ ونثوى، ونتحول إلى غبار فضى، ثم نبعث معاً زهرة تنمو فوق قمة جبل، أو نورساً يطير عبر المدى والبحر، أو موجة تتحد بالأوقيانوس العظيم، ترقص مع إيقاعه وتذوب في لازورده.

- أحبك، أحبك، أحبك.

غبار فضى أمامى، غبار فضى خلفي. غصة تخنق حلقى ،. وجسدى الذى لم يعد جسدى، ينفلت من قبضة الإرادة الواعية، ويركب جواداً أسطورياً. يركض به،

ويلاحق غمامة تطوف السماء لكى يروى منها عطشه. غير عابئ بما سوف يأتى. مسكون بجنون الأيام التى قضاها باكياً، مستجدياً حسنة ، أمام بابها المغلق. يطرق شبابيك الليل، ويناشد أشباح الظلام. وينسج أحلامه من وحشة الطرقات، فوق أرصفة مدينة تقتل العصافير وتخنق الأشجار وتحيل حدائق الورد إلى بيوت للشاحنات. محترقاً يتصاعد منه اللهب والدخان. يعانى انسحاقه ونزيفه، وتمزق أنسجته وشرايينه تحت وطأة الرغبات المحبطة، وأغنيات الحب المشنوقة، وأشواك اللوعة والأسى، التى ظلت تجرحه وتدميه منذ أعوام الصبا. يحمل ميراثاً من الاضطهاد والحرمان عمره ألف عام. ويمضى صانعاً ميراثه الجديد. لا ينصت إلا لعزف الدماء في عروقه. ولا يرقص إلا على نزيف أوتاره. يركض، ويركض، ويركض.

- أحبك، أحبك، أحبك.

من أين يتفجر هذا الإحساس الجارح، المتوهج، المؤلم، الرائع، القبيح، الجميل. ممزقاً كالبرق كثافة السجف السوداء، مذيباً أبخرة تحجرت كالرخام تحت الصدر. لا يأخذنى في دوامة الاهتياج والاشتعال حتى أنسى نفسى إلى هذا الحد، فلا

انتبه إلى فرقة الأذكار التى تركت دفوفها وصاجاتها، وأمسكت خناجرها، وجاءت لنحرى قرباناً لإلهها الوثنى الدموى الذى تعبده سراً. إلى الغابة التى تتحرك بأشجارها زاحفة نحوى. جبل الجليد الذى يصطدم الآن بأشرعتى. البواشق والعقبان والنسور التى جاءت تنهش الآن جسدى وتأخذ قطعاً من لحمى تطير بها. ما كنت لأنتبه، وسط دوامة الشبق والهذيان والجنون، إلى رعب ما حدث، لو لم يرتطم رأسى بصلابة الأرض وأنا أسقط من أريكة الوبر البرتقالى، متدحرجاً فوق البساط، وقد تشنجت أطرافي تعتصر سناء الباكية الدامية، التى تقاومنى وتدفعنى عنها دون جدوى. الآن فقط أستطيع أن أسمع صرخاتها، وأرى الرعب الساكن في عينيها، فأتركها تتحرر من قبضتى. تنهض وتعيد التنورة بسرعة وارتعاش إلى مكانها، تغطى بها عرى فخذيها. تضع قدميها في الحذاء، وتخطف سترتها تغطى بها عرى صدرها الذى تمزق عنه القميص. تعدو هاربة وخيط من بكائها يهرب منها ويعود ليلتف حول عنقى.

سكون مفجع يخنق الكون.

اختفي الصوت والضوء والهواء. واختفت سناء. لم يبق إلا وبر الأريكة يتناثر حولى ويغطى فمى وأهدابى كبقايا الإعصار الأصفر. أنهض مترنحاً مخنوقاً، أتعثر في سراويلى وأحدق في الفراغ. يظهر أمامى رجل له ملامح لا أعرفها. زائغ البصر، منفوش الشعر، مقطوع القميص، تغطى وجهه العتمة والجراح ونتف الوبر الأصفر، كأنه قادم من أودية الغيلان. أراه فتنتابنى حالة من الفزع والجنون. أدرك من فورى أن هذا هو الرجل الذى طاردنى في كل مكان أذهب إليه. أندفع صارخاً في وجهه بأقذع الشتائم واللعنات. أقذفه بالأحذية والفناجين والمنافض والكراسى. يتحطم زجاج المرآة وتطير قطعة منه تصيبنى تحت العين. أتجول في الشقة أهشم كل شىء تقع عليه يدى. الأكواب والصحون والأباريق. المذياع والمسجل والمرايا وزجاج النوافذ. أقذف فوق الأرض بالأشرطة وأمزق الكتب. أقلب السرير والدواليب والكراسى. أنتبه إلى أن راقصة المعبد الهندى التى تهشم مصباحها ترقص الآن على أنغام الموسيقى التى تنبثق من تحت قدميها. أرتمى بجوارها وهى ملقاة فوق الأرض. إنها تختار وقتاً مناسباً للرقص والعزف. أنظر إليها

مأخوذاً برقصها الدائرى، ومنتشياً برائحة الدم الذى يسيل لزجاً على وجهى. يجب أن أفصده دماً. لن أتحرر من هذا المسخ الذى يسكن جسدى ويستعيد روحى إلا بفصده دماً. بالبحث عن شفرة أو سكينة أمزق بها شرايين المعصم حتى أتحرر منه. سأموت وسيموت هو أيضاً معى. سيندلق دماً أسود متخثراً فوق الأبسطة والشراشف وحشو الوسائد المتناثر فوق الأرض. ليس لحياتى الآن أية قيمة وسيكون لموتى قيمة عظيمة عندما أجعله سبيلاً للانتقام منه. أستطيع أن أتذكر الآن، أننى كنت واقفاً في زاوية من هذه الغرفة، عندما أنسل هو من جسدى، وذهب يغتصب امرأتى، وأبقانى عاجزاً عن فعل أى شىء لإنقاذها منه. مكتفاً بسلاسل لا أراها. غادرتنى القدرة على الحركة والكلام وغمرتنى حالة كابوسية لا أقوى معها على الصراخ أو الاحتجاج أو الدفاع عن المرأة التى كان يصارعها وكأنه يريد قتلها. كنت أرقبه بغضب وعجز واشمئزاز وهو يمارس طقوسه الهمجية معها. يلوى عنقها ويثنى ذراعها ويجثم فوقها يمزق عن صدرها القميص وحاملات النهود ليبدأ وليمته الوحشية. طالعاً من ظلام القلب. من تلك الأرض السوداء العامرة بالاشباح

والمستنقعات والطحالب والسحالى والثعابين ذات الأجراس. كائن متوحش، شره وشرس وعدوانى. مستخدماً أنيابه وبراثنه في تدمير الشىء الوحيد المبهج، المضىء في حياتى. يجب أن أفصده دماً. وبمثل ما دمر حياتى يجب أن أدمره، الآن وفي هذه اللحظة. ولكن أشباحاً تقف بعتبة الباب تسألنى بارتياب عن سبب الصراخ والضجيج.

قلت للرجل الذى يرتدى ملابس عمال المقهى:

- سأدفع ثمن فناجينك التى تحطمت، فعد إلى زبائنك، لأن ما حدث لا يهم أحداً غيرى.

أردت أن أقفل في وجوههم الباب، ولكن رجلاً أكثر أناقة وامتلاء، يرتدى بذلة وربطة عنق، دفع الباب وتقدم دون استئذان يتفقد الشقة. كنت أرغب في أن أرمى به خارجها، ولكن الوهن والإعياء جعلانى زاهداً في عراك لا أقوى عليه. بدأ الرجل يباشر مهمة التفتيش بحثاً عن آثار الجريمة، تفقد المطبخ والحمام. رفع أكوام البطاطين والشراشف. دس رأسه تحت الكراسى والدواليب المقلوبة، وعندما لم يجد الجثة التى يبحث عنها، سألنى:

- أين ذهب الشخص الآخر؟

إذن فإن ما ظننته سراً أتعذب به وحدى أصبح شيئاً معروفاً لدى الآخرين. لعلك ظننت أنه مات. إن الشخص الآخر هنا. ينتشر في دمى، ويختبئ في صدرى، ويطفئ كل نجمة تظهر في سقف النفق الأسود الذى أسير فيه. ولكن كيف عرفتموه وكشفتم سرى.

- عن أى شخص تتكلم؟

- الشخص الذى تعاركت معه، والذى أحدث هذه الجروح في وجهك وصدرك.

قلت هارباً من الإجابة:

- هل هو تحقيق؟

- إننى أمارس مهمتى كمسؤول عن الأمن.

- حسناً. لم يكن هناك شخص آخر. تعاركت مع نفسى.

تفحصنى الرجل الأمنى بنظرة طويلة ثم انفجر ضاحكاً. كتفاه يهتزان، وجسمه يترجرج، وهو يواصل ضحكته الصاخبة التى أضفت على مناخ الكارثة لوناً سيريالياً مدهشاً. وبكل ما يدور في رأسى من عواصف سوداء، وما تثيره أزرار قميصها المتناثرة فوق الأرض من رغبة في

البكاء، وجدت نفسى أصاب بنوبة من الضحك. اندفعت أنا أيضاً أضحك مثله وكأننى اكتشف الآن أن هناك شيئاً في الدنيا نسميه الضحك، ونعتبره نقيضاً للحزن والبكاء، هو ما يمكن أن أعالج به هذه المرارة التى يفيض بها حلقى، وحالة الاشمئزاز التى تصيبنى بها جرثومة الفساد الناغلة في دمى. ضحكت ضحكاً أكثر صخباً من رجل الأمن. ثم فجأة تحولت ضحكاتى إلى نحيب. انتقلت من النقيض إلى النقيض، وخرجت من طقس الضحك ودخلت طقس البكاء، وكلاهما حارق، لافح، فاجع. أنكفئ فوق الأريكة المقلوبة وانتحب. انتهيت من البكاء فوجدت الرجل جالساً أمام باب الغرفة ينتظرنى. خرجت إليه أعتذر عما حدث، قائلاً بأننى فقدت هذا اليوم إنساناً عزيزاً ولم أعرف طريقة أعبر بها عن فجيعتى إلا بهذا المأتم الكربلائى الذى رآه. مبدياً له استعدادى لأن أدفع ثمن ممتلكات القرية التى تهشمت. أخذ بطاقة الهوية تحسباً لأى طارئ ينقض روايتى. وأعطانى مهلة أسبوع للبحث عن مكان أنتقل إليه. وعندما ذهب ووجدت نفسى أجلس وحيداً في الشرفة، لم أسرع إلى الحمام بحثاً عن شفرة حلاقة أقطع بها شرايين معصمى، فقد انتهى

ذلك الزلزال الذى كان يدفعنى لأن أعاقب نفسى وأضع حداً لحياتى. تحول إلى شعور بالاحتقار. احتقار لنفسى وللنوع الإنسانى الذى أنتسب إليه، وأرى أن هذا الاحتقار شعور يليق بى. سأتعايش معه، وأقتنع به، وأمضى في الحياة مستسلماً لهذا التشويه الروحى الذى لا صلاح له. كنت في منطقة من وعيى أعلم أن شيئاً كهذا سوف يحدث. وعلى مدى العلاقة التى ربطتنى بسناء كنت أدرك إدراكاً جازماً أن علاقتنا ستنتهى إلى مصير مثل هذا المصير. لقد رأيت ما حدث وتنبأت به زمناً قبل وقوعه. وكنت بشكل ما مهيأ له. فلماذا التوجع والنحيب وأنا أعرف منذ البداية أننى لن أكون كاسباً أبداً. وأننى إنسان منذور للعجز والتشويه ومحكوم عليه بأن يبقى خاسراً عبر كل مراحل العمر وتعاقب الفصول. لقد سقطت الجرار. تهشمت وانتهى الرقص، وسوف لن أجد شريطاً لاصقاً يعيدها إلى طبيعتها الأولى.

العتمة تزحف على البحر. وفيض من الريق المر يملأ حلقى. شجرة النخيل التى تتسلق جذعها السخارس وأغصان اللبلاب ويرتمى عليها ضوء المصباح، تبدو الآن عامرة بحشرات لا تحصى تسبح في دائرة الضوء.

لم تكن سناء إلا وهماً. طيفاً صنعته من أبخرة الحلم. ورغبة ترقد تحت أهداب العين تهيأت لى في صورة امرأة. مجرد أمنية عذبة راودتنى ذات ليلة صيف، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، الذى يملك ذاكرة سحرية مليئة بالأساطير والحضارات الميتة وعرائس البحر الوهمية، وجزر الأحلام الكاذبة. امرأة رأيتها في مرايا النوم، وصنعت منها حبيبة تضىء بجمال عينيها ظلمة النفق الذى لا نهاية له.

لم تكن هناك امرأة اسمها سناء، رافقتنى إلى شقتى هذا المساء. كان ذلك مجرد خدعة لمعالجة الحنين المرضى إلى أزمنة الحلم. مجرد سراب تراءى لى في مدينة الصحراء وقيظ الشمس ورياح القبلى.

بهذه القناعة سوف أواجه فصل الخريف الذى يكره الأوهام، ويحب الحقائق، ويعرى الطبيعة من مظهرها الكاذب.

وبهذه القناعة سوف أقوم لأغتسل وأزيل الدم الذى مازال يسيل طازجاً فوق وجهى. سأرتدى للدنيا قميصاً جديداً، وسأذهب لألتقى بالمرح والغناء في آخر سهرات

الصيف التى يقيمها أنور جلال. سأستفيد من فلسفته في اللهو واللعب، وسأعتبرها خلاصة دراسة في الدين والشريعة وكتب السماء. سأجتهد في أن أكون حوارياً مخلصاً من حوارييه، وجندياً من جنوب دولته الليلية، التى لا ترفع اعلامها إلا عندما يغمر الظلام أعلام الدول الأخرى. سأتبعه وهو يحفر أنفاقه السرية تحت الأرض، وسأتعلم منه كيف يصنع الإنسان لنفسه اسماً جديداً وشخصية جديدة، يحقق بهما الانسجام مع قوانين هذا الزمان.

سأحتمى بمظلة عبد القادر أمين. الرجل الذى يخبئ في جيوبه القصور والمزارع والنساء الجميلات والأكاذيب المدهشة، وسأصبح عضواً في الشبكة التى يدير بها الكون. ها هو يتلقانى بابتسامة تكشف عن أسنانه السوداء الجميلة التى تضيئها سن ذهبية في قاع الفم، لا تظهر إلا إذا ابتسم مثل هذه الابتسامة العريضة التى تنبئ بالرضا والقبول، واختيارى مترجماً وحيداً للرسائل التى يتبادلها مع آلهة الأولمب بعد أن هجرت جبالها وصارت تتكلم الإنجليزية وتدير الشركات المتعددة الجنسية من أبراجها العالية في هونج كونج.

سأكتب الحلقات الإذاعية لرشيد غانم، تمجيداً للتشويه الجميل وأكداس القبح المبهجة التى تملأ المدينة، وتأكيداً للتراث الذى أرساه شيخ جليل، عرف أن الإذاعة ليست إلا مكاناً لتسريح الأنف والحاق. ها هو أيضاً يوافق على أن أعينه ببعض السعال، ويتطوع مشكوراً بأن يعيرنى قناعاً من أقنعته الساحرة، أواجه به السياف مسرور كلما جاء يداهم جلستنا.

سأشرب هذه الليلة كثيراً. سأشرب حتى الثمالة. سأسعى لأن أكون مهرج السهرة ومضحك أوليائها الكبار، ثمناً لما أتقاضاه من طعام وشراب. ما هى حكاية ذلك المزارع الذى جاء من قرية يجفف أهلها الفائض عن حاجتهم من فواكه الموسم، نعم، تذكرت لقد مر صدفة بشواطئ هذه القرية، فأدهشه أن يرى النساء يرقدن شبه عاريات تحت الشمس، وتأسف لأن رجال المدينة لديهم فائضاً من النساء يجففونه بينما يعانى هو ورجال قريته جوعاً إليهن. يضحكون. ولكننى سأحكى نكتاً جنسية أكثر إثارة عن الرجال الذين يضاجعون الجنيات. لون جديد يستغربون كيف اهتديت إليه، فأقول لهم بأننى أمارس الآن تخصصى كرجل كتب

أطروحته عن الجنس، ويريد توظيف خبرته العلمية في خدمة هذه السهرة. أحكى لهم طرفاً من الحكايات التى أعرفها ثم أستعير مكر شهرزاد وأسكت عن بقيتها، فيتلهفون لسماعها في سهرات قادمة، مدركين أننى الرجل الوحيد في هذه المدينة الذى يستطيع أن يعطى للنكت الجنسية غطاء أكاديمياً. سأهتدى إلى كل مهاراتى التى لم أكن أعرف قيمتها، وسأستثمر هذا العطب الذى يشوهنى، سأستدعيه ليكون جاهزاً على الدوام، وقادراً على تأكيد انتمائى لهذا الزمان.

سألتقى هناك بسعاد. المرأة التى تلجأ إلى الانتحار مرة كل عام. والتى تتمتع الآن بعمرها الإضافي الخامس. والتى تؤمن بصعقة الكهرباء الناجمة عن احتكاك الأجساد. امرأة لا يخيفها الاغتصاب. لأنها أدركت منذ البداية أن الاغتصاب هو شريعة الحياة. وارتضت أن تقضى أعمارها الإضافية غاصبة ومغتصبة. لا يضيرها أن تنتمى إلى هذا الفائض من النساء، الذى يجففه رجال المدينة تحت الشمس، ليكون صالحاً لكل الفصول. ها هى تعود إلى شقتى، وتشهد آثار الحريق الذى اشتعل بها، فأخبرها بأننى أحرقت كل مراكبى القديمة، وافتعلت خصاماً مع امرأة الحلم التى لا وجود لها،

لكى لا تفسد علاقتى بك، لأنك أنت الأصل، وهى الصورة. أنت الحقيقة وهى الأكذوبة، فانطرحى فوق سريرى مائدة من الفاكهة المجففة.

سأنهض مبكراً وأذهب إلى الجامعة. سأكون قد غسلت أسنانى وحلقت وجهى، ووضعت فوقه كميات كبيرة من ماء الكولونيا، تخفي رائحة الدم وآثار الجروح، وارتديت بذلة ذات ألوان زاهية تمنح الناس انطباعاً جديداً عنى. سأدير وجهى معرضاً عن رؤية المناطق التى ينكسر فوقها ضوء الشمس، لكى لا أرى سراباً له شكل امرأة، أوهمت نفسى أننى أحبها. وسأغادر الجامعة سعيداً لأننى لن أعود إليها، بعد أن سمعت الخبر الذى عشت أنتظره منذ أن بدأت العمل بالجامعة. لقد ألغوا تدريس اللغة الإنجليزية وأقفلوا قسمها. أطربنى الخبر الذى جاء يحقق نبوءتى عندما اعتبرته قسماً زائداً عن الجامعة، يعلم لغة إضافية لا أحد يريدها. انتهت علاقتى بهذه الجامعة التى لم أشعر بأى انتماء إليها. وسأعود مواطناً يطفو على سطح الدنيا كما تطفو فوق الماء الطحالب الجميلة المدهشة، وأعشاب البحر ذات العفونة الساحرة، وسأنضم إلى المبدعين الحقيقيين من أبناء هذا المجتمع الذين

حققوا معجزة البقاء عاطلين ويتقاضون رواتب من خزينة الدولة.

سأمضى في الطرقات متحرراً من الهموم والمسؤوليات وأمراض الاغتراب التى يصيبنى بها النهوض للعمل كل صباح، بعد أن صرت ودون فضل أبى وأمى، أعيش حياة الأغنياء بالوراثة. متصالحاً مع صناديق الأسمنت، وطرقات الأسفلت، وأكداس القمامة المبهجة، وأرتال الشاحنات التى تلون الأفق بدخانها الجميل. متواصلاً مع الرجل الآخر الذى كان خصامى معه سبب ابتلائى بالعال وانشطار الذات. نابذاً مدن الحلم والأسطورة التى لا تظهر إلا في أزمنة المرض والاكتئاب. أرتدى ابتسامة لا تغيب. وأخترق الشوارع ماشياً دون أن أحس بأننى أعوم في كوب من الماء، لأننى لا أحمل ذاكرة ولا تاريخاً. لا وهماً ولا حلماً ولا عشقاً كاذباً. لا أنتمى لأحد إلا لظلى. ولا أعترف إلا بأقنعتى. ولا أزهو بشىء إلا بهذا العطب الجميل الذى أصبح وساماً يتلألأ في ضوء الليل.

زمن مضى، وزمن آخر لا يأتى، ولن يأتى.

وبين الزمن الهارب إلى الوراء، والزمن الهارب إلى الأمام، زمن ثالث هو زمانى، الذى سأكون فخوراً بالانتماء إليه. فخ جميل بين زمانين. حفرة تغطيها شبكة مدفونة تحت الأتربة والحجارة والطحالب والحشرات والحشائش والديدان، لا يراها إلا من أضاء قلبه عطب كغلس الظلام.

زمن مضى، وزمن آخر لن يأتى.

وبينهما حفرة، لا تلمع في سقفها النجوم الكاذبة، ولا تنبت في أرضها زهرة الغواية التى لها تويج من نار، ولا تزورها نوارس البحر ذات الأجنحة الموحشة. سأعرف طريقى إليها بفضل هداية الرجل الآخر الذى صار صاحبى ومرشدى في رحلة العمر. سأسقط في الحفرة التى كنت تائهاً عنها، أنشد الحماية والأمان وأعلن انتمائى لهذا الزمان.

سأسقط سقوطاً جميلاً، يليق بإنسان يعتنق فلسفة اللهو واللعب. سأسقط وأنا أضحك وأغنى، وأرقص معانقاً ظلى.

زمن ثالث هو زمانى

زمن السقوط والفخاخ والأقنعة والطحالب.

زمن الرعب الجميل، الجميل، الجميل.